جامعة الجزائر-02 أبو القاسم سعد الله

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

مظاهر من التأثير الإسلامي والمغاربي في مملكتي سنغاي والكانم-برنو ما بين "1493م-1750م"

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب:

احمد جعفري

إشراف الأستاذ الدكتور:

صابر الشريف خالد

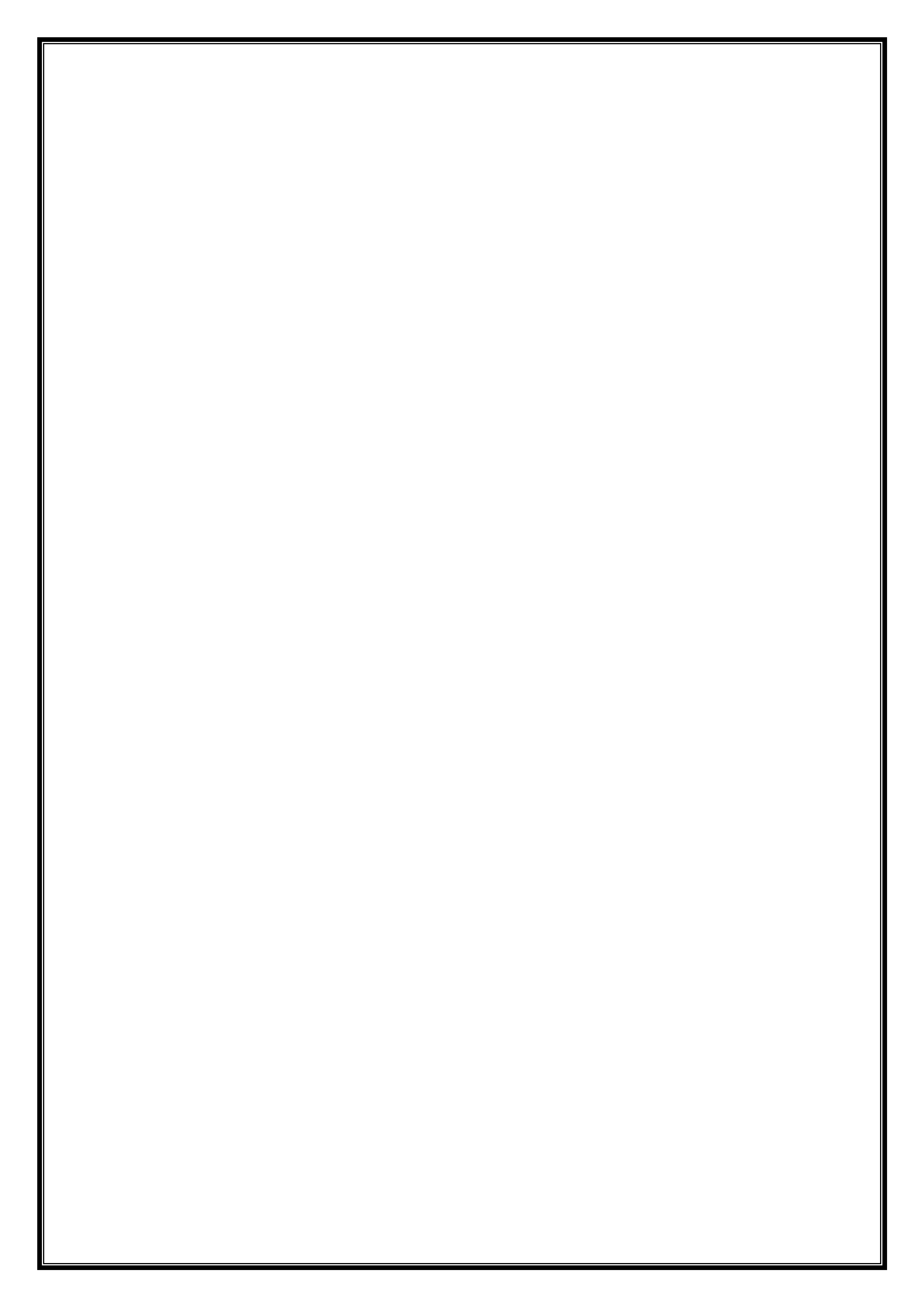
أعضاء اللجنة المناقشة

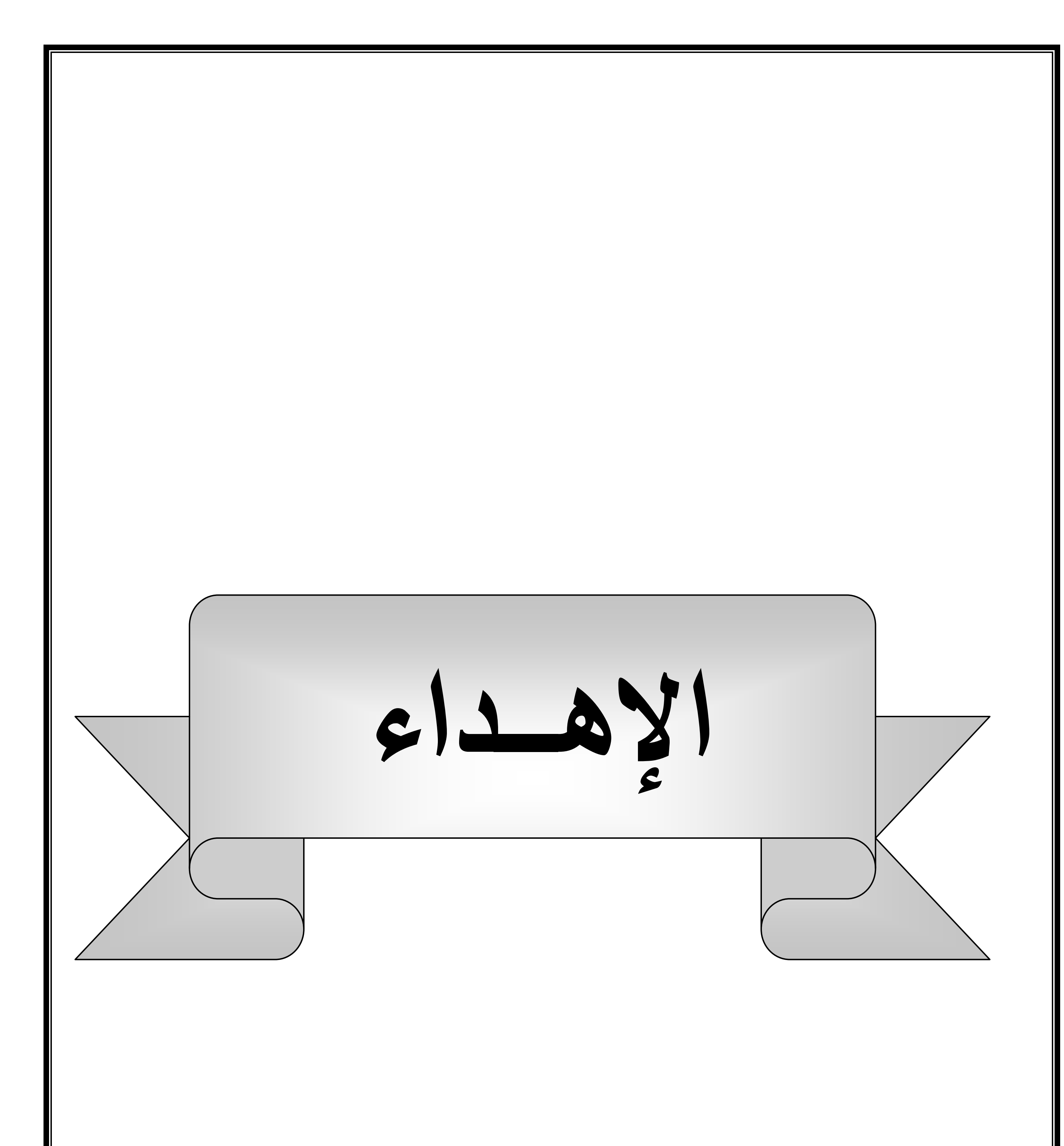
الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة الأصلية
مختار حساني	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة الجزائر _2_
خالد الشريف صابر	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة الجزائر _2_
محمد جلال	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا	جامعة الجزائر ___2
محمد بن شوش	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة الجزائر ___2
نور الدين شعباني	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة خميس مليانة
عبد الكامل عطية	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة الوادي

السنة الجامعية: 2017-2018

بسم الله الرحمن

الرحيم




الإهــداء

الى روح الوالدين الكريمين تغمدهما الله برحمته الواسعة وجعل ذلك حسنة لهما في الاخرة

الى الزوجة الفاضلة التي تحملت عناء الصبر والمشقة والغياب

الى بلسم حياتي فاطمة الزهراء ومحمد امين

الى جميع اخوتي واهلي كل باسمه

الى جميع اساتذتي وزملائي كل من مكانه

الى طلبتي الاكارم

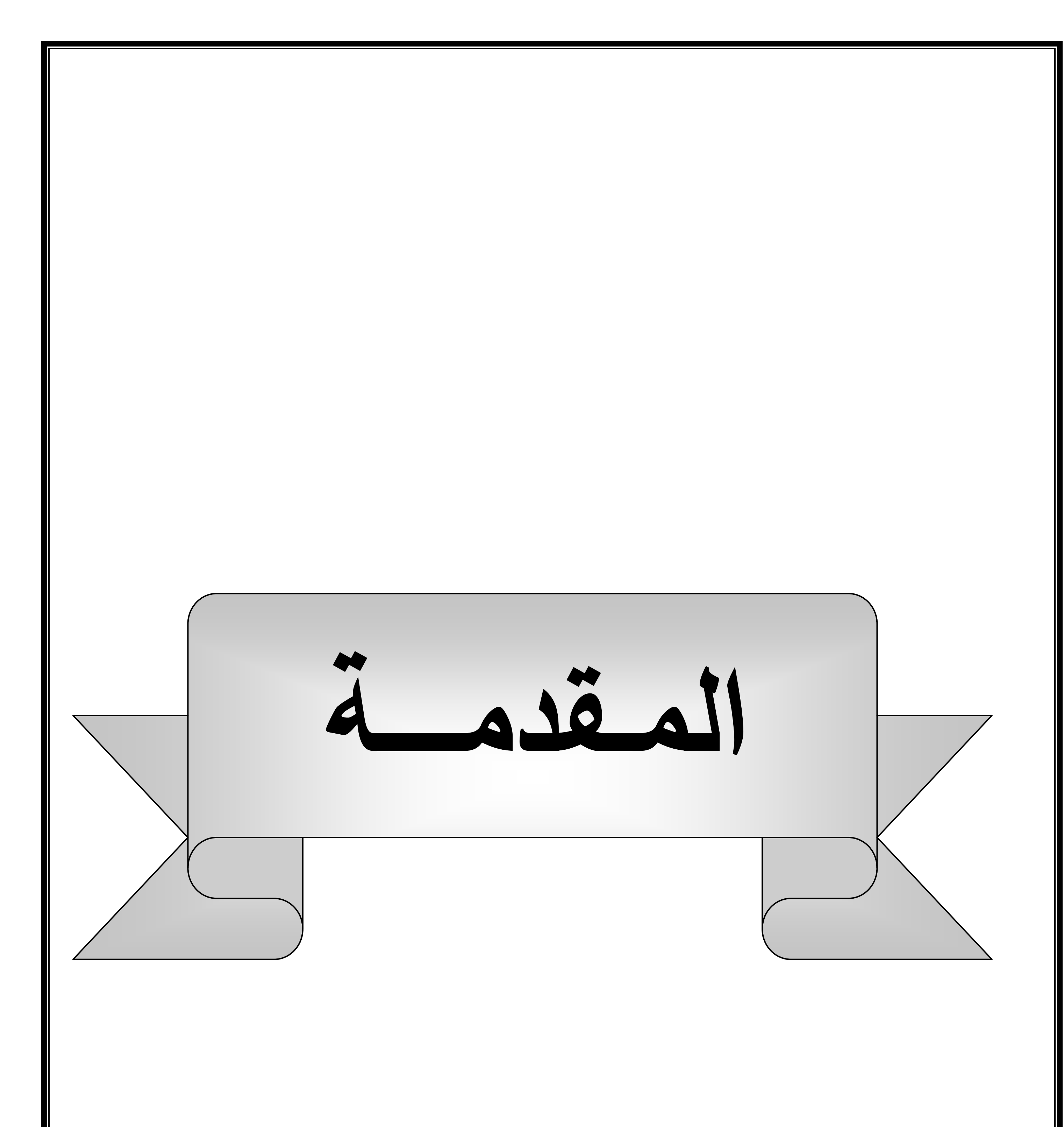
الى كل غيور على التراث المغاربي العربي والإسلامي

أقدم ثمرة هذا البحث

الشكر والعرفان

الحمد لله أولا والذي بنعمته تتم الصالحات ان وفقنا لإتمام هذا البحث و الشكر لأصحاب العقول أولى النهى و العلم من وقف على كل كبيرة وصغيرة من اطوار هذا البحث متحملا عناء التصحيح والتدقيق الأستاذ الدكتور الفاضل صابر شريف خالد.

الى كل من اعاننا في سبيل اتمامه من قريب او بعيد بدعم او كمعلومة او كتاب او دعاء خالص


المقدمـــة

المقدمـــــــــــــــة:

شهدت افريقيا جنوب الصحراء الكبرى شمال نطاق الغابات الاستوائية المعروفة لدى المصادر العربية ببلاد السودان، قيام مجموعة من الممالك الإسلامية رسمت تاريخ المنطقة في الفترة الممتدة من القرن العاشر الميلادي الى حدود وصول طلائع الاستعمار الأوربي، وتأتي في مقدمة هذه الممالك التي عرفتها بلاد السودان في الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر وحتى بداية القرن السابع عشر الميلادي، مملكتي سونغاي والكانم-برنو، في المجال الجغرافي الممتد من المحيط الأطلسي غربا وحتى حوض بحيرة تشاد شرقا.

ميزت مملكتي سونغاي والكانم-برنو في السودان الغربي والأوسط على التوالي غيرها من الممالك التي قامت في المنطقة، مجموعة من الخصائص انفردت بها عن غيرها، وذلك لارتباطها الكبير ببلاد المغرب وشمال القارة الافريقية وتأثرها الشديد بالإسلام والعربية وهي الملامح التي نلمسها في الحياة السياسية والاجتماعية الثقافية والاقتصادية للمنطقة، ذلك ما مكنها من تبوأ مكانة هامة في سيرورة التاريخ الافريقي، وجزءً لا يمكن فصله عن التراث الثقافي للحضارة الاسلامية.

ان قيام هذه الممالك الإسلامية في مناطق صحراوية واسعة تفصلها مفازات رملية صعبة المسالك والعبور في ظل طبيعة مناخية جافة لتدفع الباحث الى الوقوف حائرا امام القوة التي وقفت وراء تكوين هذه الكيانات وربطها لعلاقات متميزة مع مختلف المناطق.

ويكاد يجمع المؤرخون عربيهم واعجميهم على ان تاريخ المنطقة يبدا بالتدوين العربي عنها من خلال كتب الرحلات والجغرافيا والتاريخ وغيرها، دون ان ننسى او نتجاوز ما كتبه البرتغاليون أيضا

عن السواحل الغربية للقارة وان كان ذلك دون توغل الى الداخل في المرحلة المبكرة للكشوف الجغرافية، وان ما سبق ذلك من كتابات لا يعدو ان يخرج عن كونه مجموعة من الأساطير والروايات تملأ ما اندثر عن تاريخ المنطقة في غابر الأيام والازمان السابقة لدخول الإسلام والعربية للمنطقة لغة التدوين.

وإذا كان تاريخ المنطقة يرتبط بالإسلام وانتشاره، فان ما خلفه السودانيون من انتاج مادي او لامادي من علوم عقلية او نقلية من تقاليد وعادات اجتماعية او ممارسات اقتصادية الا ونجد أن لبلاد المغرب والمسلمين ارتباطاً بذلك كان بشكل مباشر او غير مباشر.

ويمتد عمق الروابط والعلاقات المغاربية والإفريقية إلى ما قبل الفتح الإسلامي، وهي مرحلة تؤكد عند دراستها أو الكشف عنها عمق العلاقات العربية الإفريقية وأصالتها عبر التاريخ، إذ أن هذه العلاقات يرجعها البعض إلى أكثر من ألفي عام. وهذا يبين أن صلة إحداها بالآخر تعود إلى أزمان بعيدة تسبق الفتح العربي الإسلامي بقرون عديدة حيث ارتبط الطرفان بعلاقات انسانية واقتصادية متميزة. ومن امثلة ذلك لا على سبيل الحصر اقامة مراكز تجارية مغاربية ثابتة على طول الساحل الصحراوي تربطها مسالك ودروب صحراوية بين الشمال والجنوب.

بدوره أدى ظهور الإسلام وانتشاره في القرن الثامن الميلادي الى ازدياد وشائج الاتصال المغاربي الافريقي، وتحت راية الإسلام بأبعاده الروحية والحضارية والفكرية السمحة، خرج العرب المسلمون والمغاربة صوب الشرق والغرب لنشر عقيدتهم السامية، وفي زمن ليس بالطويل تمكنوا من نشر الإسلام في أجزاء كثيرة من القارة الإفريقية.

وكانت الطرق التي سلكها العرب والمغاربة المسلمون إلى القارة الإفريقية هي الطرق نفسها التي سلكها أجدادهم من قبل من أجل التجارة أو الهجرة، وأدى هذا التطور الكبير في حياة العرب إلى حدوث نقلة نوعية في تاريخ العلاقات الثقافية بين العرب والأفارقة.

إن دخول الإسلام إلى شرق إفريقيا (الحبشة) عبر الهجرات الأولى للمسلمين إلى هذه المنطقة في عهد رسولنا عليه الصلاة والسلام. فتحت أولى أبواب الاتصال الديني والثقافي، اعقبتها بعد ذلك فتوح المسلمين في مصر (عمرو بن العاص) وإفريقية (عقبة بن نافع الفهري) والتي تشير بعض الروايات التاريخية أنه وضع حامية للإسلام في إقليم درعة كانت أولى أشكال الاتصال العربي الإسلامي بإفريقيا جنوب الصحراء.

إن انتشار الإسلام والعربية وتغلغلهما في دواخل جنوب الصحراء بطريقة سمحة سلسة ويسيرة في زمن وجيز طرح الكثير من التساؤلات عن الكيفية التي تمكن بها الإسلام من قلوب الأفارقة وعقولهم في جنوب الصحراء مقارنة بشمالها.

اختيار الموضوع:

لقد حظيت بلاد السودان في إطار علاقاتها مع بلاد المغرب العربي بعديد الدراسات الأكاديمية، لكن ما يلاحظ على هذه الدراسات ان أغلبها اهتم بالجوانب الثقافية او التجارية في جانب التأثير والتأثر، اللهم اذا استثنينا منها الكتابات الأوربية، كما أن الكثير من هذه الدراسات أيضا تناول جوانب حضارية او ثقافية عامة ولقرون كثيرة، وفي إطار بحثي لتقديم رسالة الماجستير الذي تناولت فيه احدى الممالك الإسلامية في السودان الأوسط وهي مملكة الوداي ابان فترة حكم عبدالكريم

صابون، وما وقفت عليه من ملامح إسلامية وعربية في صورة مملكة افريقية بخلفية عربية دفعني ذلك اكثر الى الاهتمام بهكذا ممالك إسلامية من اجل ابراز ذلك الأثر وتلك الخلفية دائما، ومنه وقع اختياري على دراسة مملكتين اسلاميتين افريقيتين خلال فترة زمنية محددة تجاوزت القرن بقليل ركزت في ابراز هذه الملامح الإسلامية والعربية على فترة حكمي الاسقيا محمد الأول في مملكة سونغاي، والسلطان ادريس الوما في البرنو، مع بعض الحرية في تجاوز تلك الفترتين تبعا لمتطلبات ومعطيات البحث.

هذا مع ميلي الى دراسة العلاقات العربية الافريقية لإبراز امتدادها عبر التاريخ وما خلفته من آثار ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية، بعيدة عن كل الأقلام والاصوات المغرضة والهادفة الى فصل جنوب الصحراء عن بعدها الإسلامي وتواصلها المغاربي والاسلامي.

إشكالية الدراســـــــــة:

ومن اجل هذا وذلك كان عنوان هذه الاطروحة موسوما ب مظاهر من التأثير الإسلامي والمغاربي في مملكتي سنغاي وبلاد الكانم–برنو وذلك من نهاية القرن الخامس عشر وحتى بداية القرن السابع عشر الميلاديين، منطلقا من إشكالية محورية مفادها **اين يظهر الأثر الإسلامي والمغاربي في مملكتي سنغاي والكانم–برنو وما الذي يمثله ذلك الأثر في تراث المنطقة وحضارة بلاد السودان؟** وتندرج تحتها مجموعة من التساؤلات الفرعية منها: -كيف وصل الإسلام والعربية الى بلاد السودان وماهي سبل ومعابر انتشارهما؟

-هل انتشر الإسلام في هذا المجال الجغرافي بحد السيف والغزو كما حاول البعض تصويره ام عن طريق التجارة وطبيعة الإسلام السمحة وتقبل السودانيين لهذا الدين؟

– ما حدود المجال الجغرافي الذي شمله تأثير اللغة العربية والإسلام ولماذا؟

– لماذا توقف انتشار الإسلام عند نطاق الغابات الاستوائية ولم يتجاوزها الا نادرا؟

– اين تظهر ملامح التأثير السياسي والإداري الإسلامي والمغاربي في مملكتي سونغاي والبرنو؟

– ماهي اشكال العلاقات الخارجية بين المجالين (الشمال المغاربي–افريقيا جنوب الصحراء) وما العوامل المتحكمة فيهما؟

– ربطت مملكة البرنو علاقات خارجية متميزة فاقت بها قرينتها من مملكة سنغاي ووصلت الى علاقات وسفارات مباشرة مع الدولة العثمانية. ما دلالات ذلك وما أثره على واقع المملكة محليا وخارجيا؟

– اين تظهر ملامح التأثير العربية والمغاربية الاقتصادية والتجارية في بلاد السودان الأوسط والغربي، وهل يعتبر الغزو السعدي عاملا أساسيا في تراجع هذا التبادل التجاري ام ان ذلك يعود لعوامل أخرى؟

– ماهي معالم التأثير الثقافية المذهبية واللغوية والفكرية للمسلمين والمغاربة في بلاد السودان الأوسط والغربي؟

– كيف تقبل السودانيون المذهب المالكي على غيره من المذاهب الفقهية الإسلامية التي عبرت الى بلاد السودان؟

- اين يظهر أثر اللغة العربية في اللهجات واللغات الافريقية؟

- هل طمست الثقافة الإسلامية والمغاربية هوية الأفارقة كما يرى البعض؟ ام انها أبقت على تلك التي لم تتعارض مع جوهرها. ام ان بلاد السنغاي والبرنو تخلت عن عاداتها وموروثها المحلي وبذلك ينطبق عليها القول اسلمة بلاد السودان؟

هي أسئلة كثيرة وعديدة من الصعوبة بمكان حصرها، او الإجابة عنها خاصة وان الكثير منها في الحاجة الى إجابات آنية ومعالجات بتصورات مغايرة وفق ما توفر من مادة تاريخية ومعرفية جديدة.

وللإجابة عن بعض من هذه التساؤلات قمت بتقسيم هذا البحث الى مقدمة وفصل تمهيدي وأربعة فصول وخاتمة.

تناولت في المقدمة توطئة لموضوع البحث بوضع مدخل للمجال الجغرافي والزماني لعنوان الاطروحة مع طرح للإشكالية والتساؤلات المتفرعة عنها، وكذا نقد للمصادر والمراجع الأساسية في الموضوع مع الإشارة الى المصاعب التي اعترضت تناول هذا الموضوع.

وفي الفصل التمهيدي تناولت بالتحليل والاحاطة الإطار الجغرافي والسلالي لبلاد السودان الأوسط والغربي باعتبارهما الفضاء الجغرافي الذي قامت عليه هذه الممالك، وكذا انتشار الإسلام والعربية في هذا المجال والطرق والوسائل المساعدة في ذلك الانتشار، ففي الإحاطة الجغرافية تناولت مدلول التسمية وابعادها الجغرافية والفلكية وتأثير ذلك في طبيعة مناخ المنطقة في تناغم مع اشكال سطحها من جبال وهضاب وسهول بالإضافة الى الأنهار والمجاري المائية وبالأخص نهري النيجر والسنغال. وفيما يتعلق بانتشار الإسلام وقفت عند أولى بواكير وصول الإسلام الى الحبشة في الهجرة

الأولى للمسلمين خلال القرن السادس للميلاد ثم الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وارتباطه بانتشار الإسلام في بلاد السودان، وحاولت ضمن دراسة الوسائل والعوامل المساعدة تناول معابر ومنافذ وصول الإسلام ومناقشة سهولة وانسيابية انتشاره في بلاد السودان مقارنة ببلاد المغرب، ومن خلال الوسائل تعرضت بالدراسة والتحليل لتنوع طرق الانتشار بين الفتح والتجارة والدعاة بالإضافة الى الطرق الصوفية ودور المرابطين قبل ذلك.

الفصل الأول جاء تحت عنوان ملامح من التأثير الاسلامي والمغاربي في الحياة السياسية والاقتصادية لمملكة سنغاي، مهدت له بالتعريف بالمملكة واصول نشأتها مع الوقوف عند اهم مرحلتين سياسيتين من الحكم فيها وهما مرحلتي سني علي بير، والأسكيا محمد التوري، الأول كونه المؤسس الفعلي لأسرة آل سني والذي عرف عنه الشدة والقوة العسكرية واختلافه مع العلماء ورجال الدين مما اثار ذلك جدلا واسعا بين المؤرخين، والثاني تتوقف على فترة حكمه كثيرا من جوانب هذه الدراسة، باعتبار فترة توليه المملكة عرفت هذه الأخيرة اقصى مراحل الازدهار الاقتصادي ومراحل الرقي الاجتماعي والثقافي، وبعد التعريف بهذا الأخير عرجت على ابراز الأثر الإسلامي والمغاربي في جوانب الحكم والسياسة والإدارة وتنصيب الحكام والقابهم وسفاراتهم مع بلاد المغرب والمشرق العربيين، بالإضافة الى التنظيم الإقليمي والتقطيعات الإدارية، دون اغفال الإصلاحات والنظم الحربية المستحدثة بفعل انفتاحهم على بلاد المغرب وشمال افريقيا وفي اخر المبحث وقفت عند وضعية القضاء وكيف اثر الإسلام على سكان سنغاي باحتكامهم الى الإسلام وشرائعه، وصور العدل والتقاضي التي نقلتها الينا المصادر الافريقية والعربية.

اما المبحث الرابع من الفصل الأول فجاء بعنوان اثر العربية والإسلام في الحياة الاقتصادية، تناولت فيه بالدراسة والوصف مختلف الأنشطة الاقتصادية التي عرفها أهالي سنغاي وكيف اثرت القبائل والعناصر الوافدة في تلك الأنشطة، بدءا بالقطاع الأكثر سيادة في نظر كثير من المؤرخين وهو الزراعة وقد ابرزت من خلالها أهم المزروعات والمحاصيل سواءً تعلق ذلك بفترة الاسقيين او الفترة التي اعقبتها لحكم اللارما المغاربة، هذا مع الإشارة الى الثروة الحيوانية كنتيجة طبيعية لتوفر المراعي والبراري الواسعة في منطقة شبه صحراوية، انتقلت بعدها الى البحث في الحرف والصناعات التي عرفتها بلاد السنغاي، والتي كانت في اغلبها عبارة عن حرف يدوية تقليدية تأثر البعض منها خاصة الصناعة النسيجية بالإسلام والمسلمين كون هذا الأخير يفرض الاحتشام وستر العورة على المسلم بالإضافة الى أنواع الصناعات الأخرى مثل الجلدية والفخارية وغيرها، وفي اخر المبحث تناولت التجارة والعملات التي عرفتها بلاد السودان خلال هذه الفترة وكيف اثر الإسلام فيها، ففي الأولى درست مختلف الأسواق وكيف تم تنظيمها، إضافة الى مختلف المقاييس والمكاييل والموازين المعتمدة في بلاد السودان التي كانت معروفة او التي دخلت المنطقة مع الإسلام والمغاربة، اما في الثانية فوقفت عند اهم العملات المستخدمة من الذهب المسبوك الى الملح والودع وغيرها، وختمت الفصل بملخص جمعت فيه اهم النتائج التي توصلت اليها في اتون البحث.

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان ملامح التأثير في الحياة الاجتماعية والثقافية، تعرضت في مبحثه الأول لعادات وتقاليد مجتمع سنغاي كحال عيش الاسرة ومراسيم الزواج والخطبة التي اصطبغت بصبغة دينية إسلامية، وكيف هذب الإسلام هذا الرابط المقدس وكيف انعكس ذلك على المرأة في

سنغاي خاصة وبلاد السودان بشكل عام، ووقفت من خلال المبحث دائما عند اللباس واشكاله وكيف اثر الإسلام فيما يرتدي ساكنة سنغاي من ستر للعورة ولبس البياض ليوم الجمعة وغيرها، وفي المبحث دائما تعرضت للطراز المعماري ووضعية مساكن وبيوتات سنغاي وكيف تطورت بمجيء المغاربة والاندلسيين من خلال البناء بالطوب المحروق لأول مرة، هذا بالإضافة الى عرض لاهم الاكلات والاطعمة التي يتناولها الفرد في سنغاي مع الربط دائما بالتأثير الإسلامي والمغاربي في ذلك، كما وقفت عند الاحتفالات بالمناسبات المحلية والدينية في سنغاي من عيدي الفطر والأضحى والمولد النبوي الشريف، وفي آخر المبحث أشرت الى أشكال الفنون والموسيقى التي عرفتها بلاد السودان الغربي بشكل عام خاصة منها التي تأثرت بالفن المغربي مثل فرق قناوة وغيرها، وختمت البحث بملخص عام لنتائج المبحث.

أما في المبحث الثاني والذي اختص بالتأثير الذي عرفته الحياة الثقافية، فكان أكبر فصول البحث غزارة وتنوعا سواءً من حيث المادة المصدرية المتوفرة أو المراجع والمقالات التي كتبت عن الموضوع، وقد تناولت فيه بدءًا حالة التعليم ومراحله وكيف يتدرج الطالب في سنغاي من الكتاتيب الى المعاهد والتعليم العالي أُسوةً بما عرفته بلاد المغرب آنذاك، وعرجت بعد ذلك على نظام الإجازات التي كانت تمنح للطالب بعد ترسيخه وتمكنه من علم أو مادة معينة، وأعقبت ذلك بدراسة لأهم الاعلام الذين اثروا المنطقة بإنتاجهم الفكري من أمثال المغيلي واحمد بابا التمبكتي، ومحمد بغيغ وغيرهم الكثير، وافردت بالتفصيل جانبا لأهم العلوم المدرسة في مساجد ومدارس سنغاي من التفسير والقراءات الى علم الحديث والفقه وأصوله وكذا التصوف وعلم المنطق واللغة العربية وآدابها، بالإضافة

الى التاريخ والتراجم وكذا العمارة والفنون، وفي آخر هذا المبحث عَرضتُ اهم المراكز الثقافية الحضارية في بلاد السودان الغربي عموما وسنغاي على وجه الخصوص مثل مدن وحواضر تمبكتو وجني وغاو، ثم ختمت هذا الفصل بملخص ابرزت فيه مختلف النتائج التي توصلت اليها.

الفصل الثالث جاء تحت عنوان ملامح من التأثير الإسلامي المغاربي في الحياة السياسية والاقتصادية لمملكة الكانم-برنو خلال نفس الفترة الزمنية السالفة الذكر، جاء مبحثه الأول تحت عنوان ملامح التأثير السياسية بدأته بالحديث عن نشأة مملكة الكانم-برنو وتتبعت تطورها باختصار حتى اعتلاء السلطان ادريس ألوما للسلطة سنة 1571م، وأفردت جانبا من الدراسة لهذا الأخير واهم الحروب التي قادها وأبرز الإصلاحات التي ادخلها للملكة، وفي مطلب ثان ابرزت ملامح التأثير في نظام الحكم والإدارة من حيث الإصلاحات الإدارية التي استقدمها ملوك البرنو من احتكاكهم الدائم بالبلاد العربية والمغاربية كاستحداث الأقاليم وتعيين الولاة، بالإضافة الى ما اتصف به ملوك الكانم، برنو من صور الابهة والعظمة وما استحدثوه من القاب عربية وإسلامية كالسلطان والأمير وغيرها اما المطلب الثالث من المبحث الاول خصصته للإصلاحات العسكرية ومختلف الحروب التي خاضها مايات وسلاطين البرنو خاصة منهم ادريس ألوما، وعلاقتهم بالدولة العثمانية في طلب الأسلحة النارية التي استخدمها السلطان السالف الذكر والتي جعلته في مقدمة سلاطين بلاد السودان الغربي والاوسط من حيث عدد الحروب التي خاضها والفترة الزمنية التي استغرقتها. في حين تناولت في المطلب الرابع من المبحث الأول دائما مظاهر القضاء الإسلامي في المملكة وكيف انتقل التقاضي

والتخاصم بين الافراد من سلطة القبائل وزعمائها الى التحاكم بالشريعة الإسلامية عن طريق الشيوخ والعلماء والفقهاء الذين حظو بالمكانة والتجلة في عيون الأهالي.

اما المبحث الثاني عنونته بالعلاقات الخارجية المتعددة الأهداف والمصالح لمملكة الكانم-برنو مع مختلف بلدان العالم العربي والإسلامي بدءا من مصر في الشرق مرورا بليبيا الجارة القريبة ذات العلاقات التاريخية العميقة في فترة حكم اغلب المايات طيلة القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين وحتى بداية القرن السابع عشر، هذا مع الإشارة الى العلاقات ولو بصورة موجزة مع بلاد المغرب الأدنى ممثلة في دولة الحفصيين، ومع بلاد المغرب الأوسط في صورة بلاد توات جنوب الجزائر، هذا مع الإشارة الى العلاقات الرسمية مع السعديين في المغرب الأقصى خلال حكم المنصور السعدي والسلطان ادريس ألوما ومبايعة هذا الأخير للأول، مع محاولة الوقوف على علاقات بلاد البرنو مع الدولة العثمانية خلال حكم السلطان مراد الثالث وفي آخر المبحث الى علاقتها بالجارة الغربية مملكة سنغاي.

هذا وجاء المبحث الثالث تحت عنوان مظاهر التأثير الإسلامية والمغاربية في الحياة الاقتصادية لبلاد الكانم-برنو، حتى وان كانت المصادر والمراجع التي تناولت الامر قليلة في شذرات يسيرة الا انني حاولت ابراز تأثير القبائل العربية الوافدة في وصول بعض المحاصيل الزراعية وبعض الطرق الفلاحية التي لم يألفها البرنويون، اما ما تعلق منه بالصناعة فقمت بالإشارة وبشكل أخص الى تطور بعض الصناعات وعلى راسها صناعة الأسلحة المختلفة في ظل توفر خزان هام من معدن الحديد، بالإضافة الى براعتهم وتمكنهم من بعض المنسوجات المحلية والتي جعلت منهم يصدرونها الى مختلف بلاد

السودان المجاورة، وقد افَضتُ في المكون الثالث للأنشطة الاقتصادية والمتمثل في التجارة بالإطناب بعض الشيء في العلاقات التجارية للمملكة مع مختلق مناطق العالم العربي بشكل اخص من حيث الصادرات والواردات واهم مناطق التبادل التجاري في الضفتين الشمالية(العربية) والجنوبية(بلاد السودان الأوسط) بالإضافة الى اهم الطرق التجارية بين المنطقتين، وختمت ذلك بالتعرض للنظام الضريبي الذي اقره سلاطين البرنو والذي يحمل في بعض ملامحه الصبغة الإسلامية العربية.

وجاء الفصل الرابع تحت عنوان ملامح من التأثير الإسلامي والمغاربي في الحياة الاجتماعية والثقافية لمملكة البرنو الإسلامية، تناولت في المبحث الأول مظاهر التأثير في الحياة الاجتماعية انطلاقا من العادات والتقاليد المحلية التي كانت معروفة لديهم وكيف قام الإسلام بتهذيبها بدءً بمراسيم الزواج، والمأكل والمطعم والملبس، وتوقفت أيضا عند مختلف الأعياد والمواسم التي كان يحييها سكان بلاد الكانم، برنو وكيف أثر الإسلام فيها بما في ذلك عيدي الفطر والاضحى والاحتفال بالمولد النبوي الشريف وغيرها من الأعياد الموسمية والمحلية، كما افردت جانبا هاما لإبراز دور المرأة البرنوية اجتماعيا وسياسيا ولئن كان الدور الأول تشترك فيه جميع النساء بفطرتهن، فان الدور الثاني ميز بعض سيدات البرنو عن غيرهن خاصة أمهات المايات اللائي اضطلعن بأدوار عديدة سياسية منها على وجه الخصوص.

اما المبحث الثاني فخصصته للتأثير في الحياة الثقافية عالجت فيه الحركة العلمية والنظام التعليمي وتأثره بالبلاد المغاربية، من حيث المناهج التعليمية والمواد المدرسة مثل القران الكريم وعلوم الشريعة واللغة العربية مع التعرض للمراكز المخصصة للتعليم كالمساجد والكتاتيب ودور العلماء والملوك، كما

حاولت التقديم لبعض علماء البرنو خلال فترة الدراسة على قلتهم، وختمت الفصل بحوصلة لاهم نتائجه.

وتوصلت في خاتمة البحث عامة الى مجموعة من النتائج تبرز ذلك الدور الإسلامي والمغاربي في المملكتين خلال فترة الدراسة بما لا يدع مجالا لكل المشككين والناقدين والحاقدين على فترة ازدهار المنطقة من خلال ذلك الدور، وحاولت في الأخير طرح بعض الإشكالات والتساؤلات تكون آفاقا لتخصيص جزء من الدراسات للتراث المغاربي الإسلامي في بلاد السودان سواء كتب بأقلام عربية او بأقلام افريقية او حتى بلغات محلية كالهوسا والسواحلية وغيرها.

واعقبت الخاتمة بمجموعة من الملاحق والخرائط والجداول الوظيفية والدالة التي تعين القارئ على الفهم والاستزادة. واتبعتها بترتيب ابجدي لاهم المصادر والمراجع والدوريات والدراسات السابقة التي اعتمدتها في دراسة هذا البحث وانهيت ذلك بفهرس للموضوعات وآخر للأماكن والاعلام.

نقد المصـــــــــادر والمراجع:

عديدة هي المصادر التي اعتمدتها في كتابة هذا البحث عربية كانت او محلية والتي تناولت فترة الدراسة، ويأتي على راس المصادر العربية على اختلاف أنواعها من كتب الحوليات التاريخية والرحلات الكشفية وكتب الجغرافيا، كتاب "وصف افريقيا" للحسن بن محمد الوزان الفاسي(ت957/1550م) حيزا مهما في دراستنا بقسميها الأول والثاني كون الأخير زار اغلب ممالك بلاد السودان خصوصا ما يتصل بأسرة الاساكي في عهد مؤسسها الحاج الاسكيا محمد الأول، حيث تنقل الوزان الى سنغاي والكانم–برنو، وقدم وصفا دقيقا للمناطق التي وصل اليها شمل مواقعها الجغرافية ومكوناتها البشرية

والاقتصادية واحوالها السياسية ونتاجاتها الاجتماعية والثقافية حيث حظيت كتاباته بالكثير من الصدق والموضوعية نظير المنهج الذي اتخذه في وصف المناطق التي زارها، وحتى المناطق التي لم يصل اليها فيذكر انه استقى معلوماته من الثقات.

وتعتبر رحلة بن بطوطة الموسومة بنزهة الأنظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار من المصادر المهمة في هذا البحث بالرغم من تناولها لفترة سابقة عن هذه الدراسة الا انني اعتمدتها في دراسة المنطلقات والخلفيات التاريخية لهذا البحث بالإضافة الى اعتماد بعض الاسقاطات التاريخية التي لا مناص منها باعتبار التاريخ وحدة لا تقبل التجزئة خاصة في الجانب الاجتماعي والسياسي الذي اهتم به بن بطوطة من خلال رحلتة دون نسيان المواقع الجغرافية والمراحل الزمنية بين منطقة وأخرى بالرغم من افتقاد عمله الى النقد والدقة التاريخية التي لمسناها عند الجغرافي حسن الوزان.

ويعد كتاب القلقشندي صبح الاعشى في صناعة الانشاء الجزء الخامس منه من بين المصادر الهامة التي استعنّا بها في هذا البحث وبالأخص الجزء الخامس من موسوعته التي تناولت جانبا هاما من مملكة الكانم-برنو، حيث بفضله تعرفنا الى مختلف العلاقات الخارجية التي كانت تربط البرنو بغيرها، كما نقل الينا تلك المراسلات التي كانت تتم بين مايات البرنو ومماليك مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر كما تناول الكتاب جوانب سياسية واقتصادية هامة لم يسبقه غيره اليها، برغم افتقار ما نقله او ما سمعه الى الكثير من التثبت والتحقيق .

ومن المصادر العربية دائما والتي تناولت جانبا مهما من فترة حكم الباشوات المغاربة وتأثيرهم في بلاد السودان فضلا عن الفتح المغربي واثاره نجد كتاب مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا للمؤرخ

المغربي عبد العزيز الفشتالي، وبرغم قيمته التاريخية، فان الكتاب يمثل النظرة المغربية السعدية للأحداث والتي لا يمكن الجزم بها في كل ما تعلق بحكم الباشوات المغاربة لبلاد سونغاي بدءا من سنة 1591م.

هذا الى جانب مجموعة أخرى من المصادر العربية من بينها كتاب المغيلي "أسئلة الاسكيا واجوبة المغيلي" الذي حققه استاذنا المرحوم عبد القادر زباديه، حيث يعد مؤلفه لبنة أساسية في هذا البحث او غيره من البحوث التي تضمنت مسائل فقهية وقضايا مهمة سياسية اتخذت من قبل الاساكي غيرهم قاعدة أساسية ومنطلقا لا غنى عنه في أساس علاقتهم بالرعية.

يضاف الى ما سبق ذكره من المصادر العربية بعض الإشارات والمنطلقات التاريخية التي تسبق فترة هذا البحث وتمهد له عند البكري في كتابه المسالك والممالك الجزء الثالث من تاريخ افريقية والمغرب، والذي استفدنا منه في الحديث عن الطرق التجارية والعلاقات المبكرة بين بلاد المغرب والسودان الغربي والاوسط، كما نجد بعض الإشارات لدى العمري(ت700هـ/1301م) عن مملكة الكانم-برنو وعلاقتها بمصر وبلاد الحجاز.

اما عن المصادر المحلية فتاتي كتب الحوليات وفي مقدمتها حولية عبدالرحمن السعدي بعنوان تاريخ السودان والذي يعد أفضل من كتب لهذه الفترة من مؤرخي بلاد السودان على قلتهم، وقد تناول المؤرخ التعريف ببعض هذه الممالك، وأرّخ لسلاطين بلاد سونغاي كما انه عاصر فترة الباشوات المغاربة الذين حكموا المملكة بعد سقوطها وبالتالي استفدنا منه في مختلف التنظيمات السياسية والعسكرية المستحدثة لبلاد السودان، هذا بالإضافة الى تعريفه ببعض الشيوخ والعلماء، رغم صعوبة فهم ما يكتب في كثير من الأحيان ولجوئه الى الروايات الشفوية وبعض الخرافات المحلية في الفترة التي

سبقت حضوره في المملكة، وقد اعتمد السعدي في جمع مادته للفترة التي سبقته على كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي، ورحلة بن بطوطة وعلى الرواية الشفوية كما اشرنا سلفا وغيرها من المصادر الأخرى.

ويأتي في المرتبة الثانية من المصادر المحلية من حيث الأهمية في دراستنا كتاب تاريخ الفتاش لمحمود كعت والذي اثار جدلا واسعا بين المؤرخين حول مادته التي تناولت أكثر من مائة وعشرين سنة ومدى صحة مصدرها وإمكانية رجوعها لأكثر من مؤرخ، الا ان ما يزيد أهمية الكتاب ان هذا الأخير عاصر الكثير من الاحداث وتولى القضاء في المملكة لفترة طويلة مما أتاح له ذلك ان يؤرخ لملوك سونغاي واهم الاحداث التي وقعت طوال تلك الفترة.

اما عن مصادر بلاد البرنو وعلى قلتها فقد وفقني الله ان توصلت الى مصدر نادر وهام جدا لأحمد بن فرتوا مؤرخ بلاد البرنو في عهد السلطان ادريس الوما بعنوان شأن سلطان ادريس الومه وما وقع بينه وبين امراء بلاد كانم والذي ضم مختلف حروبه وهو نفسه الذي ترجمه بالمر بعنوان الاثني عشر سنة الأولى من حروب هذا السلطان، وقد كانت الاستفادة منه بالغة وبالأخص فيما يتعلق بالحروب التي خاضها هذا السلطان ناهيك عن بعض الجوانب السياسية والإدارية التي تضمنها الكتاب.

ويضاف الى ما تم الإشارة اليه من مصادر بعض الكتابات التي أُلفت في بداية القرن السابع عشر وبعده وتضمنت جوانب هامة من فترة الدراسة اقتصادية واجتماعية وسياسية ومن هذه المصادر على سبيل المثال لا الحصر تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان لمؤلف مجهول عاش في القرن السابع عشر للميلاد، وقد استفدت منه في رصد تاريخ المنطقة بعد وقوعها بيد الباشوات المغاربة، متناولا

اثار هؤلاء الباشوات والحكم المغربي على بلاد السودان، وكتاب نزهة الحادي في اخبار ملوك القرن الحادي للمؤرخ المغربي الصغير الافراني، وكتاب" انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور" للفقيه محمد بللو بن عثمان بن فودي. وغيرها من المصادر الأخرى

ومن كتب التراجم التي لا غنى للباحث عنها في الدراسات الثقافية والاجتماعية لبلاد السودان نقف على نيل الابتهاج بتطريز الديباج وكفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج لأحمد بابا التمبكتي، حيث أرخ في الأول لأكثر من سبعمائة عالم عربي وسوداني، وأنهى ما بقي في الثاني الذي حمل بعض التكرار بأكثر من ثمانمائة عالم وفقيه، والأول في أصله تكملة لكتاب الديباج لابن فرحون المعنون ب الديباج المذهب لمعرفة اعيان المذهب، والى جانب المؤلفين السابقين نقف أيضا على كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور لمحمد بن ابي بكر الصديق البرتلي والذي احتوى بدوره على تعاريف وتراجم لأبرز علماء الفقه المالكي في بلاد السودان بالرغم من كونه متأخرا عن باقي كتب التراجم السابقة، وكتاب" إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من اهل التكرور والصحراء واهل شنقيط" لأحمد أبو الأعراف التكني، والسعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية" لأحمد بابير الارواني وغيرها.

هذا وقد عدت في بحثي الى مجموعة كبيرة من المراجع العربية المتخصصة والعامة ففيما يتعلق بالأولى عدت أساسا الى كتابات المؤرخ الجزائري المرحوم عبد القادر زباديه في كتابيه مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، الذي يعد احد اللبنات الأساسية في إقامة دعائم هذا البحث بالرغم من ان مؤرخنا لم يركز كثيرا على جوانب التأثير الحضارية العربية في المجال الاقتصادي بينما نجد الامر يختلف في الجانبين

السياسي والثقافي وكتابه الثاني المعنون ب الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في افريقيا جنوب الصحراء حيث قدم من خلال هذا الكتاب الصغير الحجم جم الفائدة جوانب حضارية واقتصادية وثقافية هامة تتعلق بمملكة سنغاي والممالك التي سبقتها في المنطقة.

يضاف الى ما سبق ذكره من المراجع كتابات مطير سعد غيث احمد في مؤلفيه "الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، حيث ركز المؤرخ بدوره على الجوانب الثقافية الدينية والتي عاد فيها الى الفترة الزمنية التي سبقت القرن الخامس عشر والسادس عشر، وان كان تركيزه أكثر على فترة حكم الاسقيين أيضا، ومؤلفه الثاني تحت عنوان التأثير العربي في مجتمع بلاد السودان. هذا من جانب المراجع الأساسية المتعلقة بالتأثير في مملكة سونغاي، اما ما تعلق منه بمملكة الكانم-برنو فمن اهم المراجع على قلتها ما كتبه الرباصي يونس في كتابه العلاقات الخارجية بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو ما بين القرنين 13 و16 الميلاديين والذي استفدت منه في كثير من جوانب الاطروحة بالأخص في نشأة المملكة وعلاقاتها السياسية والتجارية مع بلاد المغرب، وان كان هذا الأخير اغفل كثيرا من الجوانب الثقافية والاجتماعية مع تركيزه على العلاقات التجارية اكثر منها دون غيرها، ومن المراجع الهامة أيضا حول مملكة البرنو في فترة الدراسة التي عدت اليها كتاب طرخان إبراهيم طرخان تحت عنوان امبراطورية البرنو الإسلامية وعلى أهمية الكتاب التاريخية الذي استفدت منه في كثير من جوانب البحث مثل تأسيس المملكة واصولها والقبائل التي استوطنتها ومختلف المظاهر الاجتماعية والثقافية ، الا ان المؤرخ لم يلتزم بالتدرج التاريخي او التنظيم المنهجي للكتابة التاريخية فكثيرا ما يتناول ظاهرة معينة في الفصل الأول ثم يكررها بعد ذلك في مواضع أخرى من الكتاب.

ومن المراجع ذات الأهمية كتاب تاريخ الإسلام وحياة العرب في امبراطورية كانم-برنو لصاحبه صالح بن يونس وهو عبارة عن مؤلف شامل موسوعي لكل ما يتعلق ببلاد الكانم برنو، الا ان ما يعاب على الكتاب اعتماد صاحبه على كثير من الرواية والاساطير التي لم يجمع عليها المؤرخون حول مملكة الكانم، هذا بالإضافة الى كثير من الملتقيات والدوريات والمجلات التي اعتمدتها في كتابة هذا البحث

وقد رجعت في هذه الدراسة الى بعض المراجع الأجنبية، التي وبرغم أهميتها البالغة لما تتمتع به من عمق في التحليل ودقة في الوصف فإنها تمثل سلاحا ذو حدين، لما قد تحمله من أهداف مبيتة تضر بالإسلام وحضارته في بلاد السودان، ومن هذه الدراسات جون سبنسر ترمنجهام TRIMINGHAM في كتابه History of Islam in west Africa و موريس دولافوس Maurice Delafosse في كتابه les Noires de L'Afrique.

يضاف الى دراسات هؤلاء كتابات بالمر PALMERالمتعلقة بالسودان الأوسط وبالأخص ترجمته لمخطوطات احمد بن فرتوا، على شاكلة كتاب مذكرات سودانية،Sudanese Memories او الاثني عشرة سنة الأولى من حكم الوما، History of the first Twelve Years of the Reign of Mai Idris Alooma وتمثل مادة هذه الكتب معرفة تاريخية ضرورية لا غنى عنها للباحث في بلاد السودان الأوسط وبالأخص مملكة الكانم برنو خلال حكم الماي ادريس الوما، حيث استفدت من كتاباته في اغلب فصول القسم الثاني واعني بذلك الفصلين الثالث والرابع، برغم من ان مادة الكتاب للجانب السياسي والعسكري اهم من غيرها في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية.

الدراسات السابقـــــــــــة:

تناول بعض الباحثين المتخصصين جوانب من التأثير الإسلامي العربي والمغاربي في بلاد السودان الغربي والاوسط، كانت لي منطلقا وسندا في كتابة ثنايا هذا البحث بقسميه سواءً ما تعلق منه ببلاد سونغاي او ببلاد الكانم-برنو، ومن هذه الدراسات تمثيلا لا حصرا في القسم الأول أطروحة الدكتوراه او دبلوم الدراسات المعمقة لمؤرخنا ومرجعنا في الدراسات الافريقية المرحوم عبدالقادر زبادية بعنوان مملكة سنغاي في عهد الاسقيين، ركزت الدراسة على مختلف جوانب مناحي الحياة في سنغاي خلال الفترة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، بالإضافة الى أطروحة دكتوراه منشورة سنة 2005م لدار المدار الإسلامي بعنوان الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي للدكتور مطير سعد غيث احمد، ولنفس المؤلف كتاب بعنوان التأثير العربي في بلاد السودان الغربي وهي في الأصل رسالة ماجستير للمؤلف، وكتاب المجتمع والدين والسلطة في افريقيا الغربية ما بين القرنين 5و10هـ/11و16م، من جزأين تأليف الدكتورة المغربية زوليخة بنرمضان وهي في الأصل أطروحة دكتوراه نشرتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية سنة2015/1436م هذا بالإضافة الى بعض الرسائل المتعلقة بمملكة سونغاي خاصة في فترة حكم الاسكيا محمد الكبير احداها للباحثة جميلة امحمد التكتيك بعنوان مملكة سنغاي في عهد الاسكيا محمد الكبير (1493-1528م) وهي أطروحة دكتوراه للباحثة.

اما في القسم الثاني من الاطروحة والمتعلق بمملكة البرنو فقد اعتمدت على مجموعة من الدراسات السابقة الا انها كانت عامة في اغلبيتها ولم تتناول جوانب خاصة من التأثير ويأتي في مقدمتها كتاب

الثقافة الإسلامية في تشاد في العهد الذهبي لإمبراطورية الكانم للباحث فضل كلود الدكو، والدراسة التي أعدها الباحث المغربي يونس الرباصي العلاقة بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو(07-10هـ/13-16م)، ورسالة الماجستير بجامعة القاهرة من معهد الدراسات الافريقية ل عبدالفتاح حسنين مقلد بكر، ورسالة ماجستير اخرى ل مصطفى علي بسيوني ابوشعيشع بعنوان برنو في عهد الاسرة الكانمية سنة 1976م، ورسالة ماجستير بعنوان الصلات التجارية بين إقليم فزان وبلاد السودان الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع والخامس عشر الميلاديين من معهد البحوث والدراسات العربية سنة 2013م، من اعداد الطالب محمد علي فرج الغواري، ورسالة دكتوراه الفلسفة في الدراسات الافريقية من معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة سنة 2016م، بعنوان الحياة الاجتماعية في مملكة الكانم من اعداد حسن حلمي أبو الفضل علي العسيري إضافة الى مجموعة كبيرة من الرسائل الأخرى التي لا يسعنا المجال لذكرها.

الصعوبات:

لا يخلو عمل ذو جهد من عقبات تعترض طريقه، بعضها قد يكون في مقدور الباحث التغلب عليها، والبعض الاخر تبقى عقبة كؤود تجعل من البحث ذو نقص يفتح للباحثين آفاقا جديدة فيه يمكن الوصول اليها من خلال التغلب على تلك العقبات، وفي مقدمة هذه العراقيل عدم تمكن الباحث من الوقوف ولو جزئيا على تلك الاثار التي خلفها العرب والمسلمون في تلك المنطقة و الإنتهال من مصادرها وعلى وجه الخصوص مركزي احمد بابا التمبكتي في تمبكتو، ومركز الوثائق في النيجر وأيضا مركز نجامينا في تشاد، وتعوز الباحث في ذلك جوانب مادية كانت او امنية بفعل ما

تشهده المنطقة من توترات ولفترة طويلة، وتأتي في المرتبة الثانية من الصعوبات اتساع المجال الجغرافي دون الزمني لهذه الدراسة وانقسامها بين مملكتين تتفقان في جوانب كثيرة من التأثير الإسلامي والمغاربي، لكن يقابل ذلك وفرة في المادة التاريخية المصدرية للأولى وشح كبير في الثانية، ضف الى ذلك تركيز جل الدراسات التي بحوزتنا وقمنا بجمعها على الجوانب الثقافية دون الجوانب الأخرى الاجتماعية والاقتصادية، وقد حاولت التغلب على هذه العقبات بالتوجه في رحلات علمية الى بلدان التماس التي أسهمت بشكل كبير ومباشر من التأثير في هذه الممالك، واقصد بذلك على وجه الخصوص الانتقال الى المغرب الأقصى بزيارة معهد البحوث والدراسات الافريقية الذي اقتنيت منه مادة علمية ذات قيمة علمية ومعرفية كبيرة ضف الى ذلك لقائي ببعض أعمدة الدراسات الافريقية هناك واقصد بالذكر الدكتور احمد الشكري الذي افادني ببعض الكتب والتوجيهات، ونفس الأمر ينطبق على معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة الذي نهلت من مكتبته الخاصة الثرية بالرسائل والاطروحات المتخصصة ناهيك عن باقي المكتبات والمراكز البحثية والوثائقية الأخرى، وقد وُفقتُ أيضا للقاء بعض المتخصصين في الدراسات الافريقية بالمعهد من امثلة الدكتور صلاح مراد حسين وماهر عطية شعبان، وانتقلت الى البيت الشخصي للدكتور عبدالله عبدالرازق اطال الله في عمره وبارك في علمه، وجميع من ذكرنا استفدنا منهم علميا ومنهجيا والحمد لله.

هذا وما وصلنا اليه في ثنايا هذا البحث وانجازه الذي كان بفضل الله تعالى أولا، ثم بفضل جهود المشرف على العمل الأستاذ الدكتور خالد صابر شريف الذي لم يبخل على بتوجيهاته ونصائحه القيمة ومتابعته لأطوار البحث بمختلف مراحله جزاه الله عنا كل خير.

.

الفصل التمهيدي

البيئة الجغرافية وانتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي والأوسط.

1- البيئة الجغرافيـــــــــة.

2- التركيبة السكانيـــــــة.

3- انتشار الإسلام في بلاد السودان.

1 البيئـــــــــــــة الجغرافية:

دراسة المجال الجغرافي والاحاطة به زمانيا يسهمان في تفسير كثير من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية وحتى الثقافية للمجتمعات محل الدراسة، وباعتبار دراستنا هذه تتناول جانب التأثير الإسلامي المغاربي في بلاد السودان الغربي والاوسط كان لزاما علينا ان ننطلق من التعريف بهذا الفضاء الجغرافي ومعرفة مختلف اشكال سطحه ومناخه وعلاقة الفرد بتلك البيئة التي يعيش بها، وذلك من خلال التعريف والوقوف على مختلف الشعوب والسلالات التي قطنت المنطقة ولا تزال، سواءً كانت اصلية او مهاجرة، كما نود الإشارة الى ان المجال الآخر المؤثر والمقصود به بلاد المغارب هو في غنى عن التعريف والاحاطة بالخصوص في هذه الفترة التي فصلت فيها كثير من كتب الجغرافيا والرحلات والكشف وغيرها.

1-1 الحدود الجغرافية: (بلاد السودان):

اطلق الجغرافيون العرب من رحالة ومؤرخين في القرون الأولى لانتشار الاسلام مصطلح بلاد السودان على الرقعة الجغرافية المنحصرة جنوب الصحراء الكبرى وشمال خط الاستواء والممتدة من البحر الأحمر شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا اسم بلاد السودان او (بلاد السود)،وصفها الجغرافي الأصطخري[1] الذي عاش خلال القرن 04 هـ العاشر للميلاد بقوله " ..انه ليس في اقاليم السودان من الحبشة

1-الأصطخري (ت.346هـ/957م) هو إبراهيم بن محمد الفارسي أبو إسحاق الأصطخري ويقال له الكرخي عالم رحالة وجغرافي من أصطخر بإيران قام بسياحة طاف بها بلاد العرب وبعض بلاد الهند، وبلغ الاقيانوس الاتلانتيكي ألف كتابي (صور الأقاليم، ومسالك الممالك)، انظر الزركلي خير الدين: **الاعلام قاموس تراجم**، ج1، دار العلم للملايين، ط15، 2002، ص61.

والنوبة والبجة وغيرهم اقليم اوسع منه ويمتدون الى قرب المحيط مما يلي الجنوب ومما يلي الشمال على مفازة تنتهي الى مفازة مصر من وراء الواحات ..."[1]ويقول عنها الجغرافي المقدسي [2]" واما ارض السودان فإنها تتاخم هذا الاقليم ومصر من قبل الجنوب وهي بلدان مقفرة واسعة شاقة وهم اجناس كثيرة "[3] ،وذكر الجغرافي الاندلسي ابو عبيد الله بن عبد العزيز البكري (1030م/1094) " اول بلاد السودان جبال ورمال عظيمة متصلة من الغرب الى الشرق"[4] كما حددها القلقشندي (1355م/1418م) بنفس الحدود تقريبا[5].

ولو عدنا الى نص القلقشندي، فيفهم منه ان العرب كان في اعتقادهم ان خط الاستواء ينهي بلاد السودان، وان لا وجود للعمران او الساكنة بعده، وهو اعتقاد خاطئ ولربما مرد ذلك ان العرب لم يوغلوا في ارض السودان اتجاه الجنوب بل اقتصر نشاطهم شمال نطاق الغابات الاستوائية بفعل الموانع الطبيعية والبيئية المعروفة التي حدت من تنقلهم وتواصلهم مع هذه المناطق.

1-الأصطخري: **المسالك والممالك،** دار صادر، بيروت، د ت، ص 40.

2-المقدسي: هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري المعروف ب المقدسي من جغرافيي القرن 4هـ/10م، رحالة مسلم ولد في القدس سنة 336هـ/947م، احترف التجارة وكثرت اسفاره حتى صار رحالة جغرافيا وصنف في ذلك كتابا اسماه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) توفي سنة 380هـ/990م.انظر الزركلي: المرجع السابق، ص 130.

3-المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، بريل، لندن، 1909م، ص230.

4-البكري ابو عبيد الله: **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب جزء من موسوعة المسالك والممالك،** تح حماه الله ولد السالم، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، ص 191.

5-القلقشندي أبو العباس احمد: **صبح الاعشى في صناعة الانشا،** المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ج5، ص274. انظر أيضا مطير غيث: **الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد،** دار المدار الإسلامي، بنغازي ط1، 2003، ص28.

ويقول عنها القزويني " هي بلاد كثيرة وارض واسعة ينتهي شمالها الى ارض البربر وجنوبها الى البراري وشرقها الى الحبشة وغربها الى البحر المحيط، ارضها محترقة لتأثير الشمس فيها والحرارة بها شديدة جدا لان الشمس لاتزال مسامتة لرؤوسهم واهلها عراة لا يلبسون من شدة الحر منهم مسلمون ومنهم كفار "[1].

ويروي الأصطخري "...ولم نذكر بلد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في اعراضهم من الامم، لان انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة وهؤلاء مهملون لهذه الخصال ..."[2]. وعن حدود بلاد السودان دائما يقول "...واما جنوبي الارض من بلاد السودان فان بلد السودان الذي في اقصى المغرب على البحر المحيط بلد مكنف، ليس بينه وبين شيء من الممالك اتصال غير ان حدا له ينتهي الى الحر المحيط وحدا له الى برية بينه وبين ارض مصر على ظهر الواحات، وحدا له ينتهي الى البرية التي قلنا انه لا يثبت فيها عمارة لشدة الحر " وعن ابعاد بلاد السودان يقول دائما "...وبلغني ان طول ارضهم نحو من سبعمائة فرسخ في نحوها غير انها من البحر الى ظهر الواحات اطول من عرضها "[3]. ويقول عنها ابن خلدون (732-809هـ/1322-1406م) "والسودان أصناف شعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج والنوبة يليهم الزغاوة ويليهم الكانم، ويليهم من غربهم كوكو ويتصلون بالبحر المحيط الى غانية"[4]

1- القزويني: **اثار البلاد واخبار العباد**، دار الصناعة والنشر، بيروت ،1969م، ص24.

2-الأصطخري: المصدر السابق، ص 41.

3-نفســـــه، ص 42.

4-ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في اخبار العرب والعجم والبربر ومن ارهم من ذوي السلطان الأكبر**، مؤسسة جمال للنشر، ج5، 1979م، ص234.

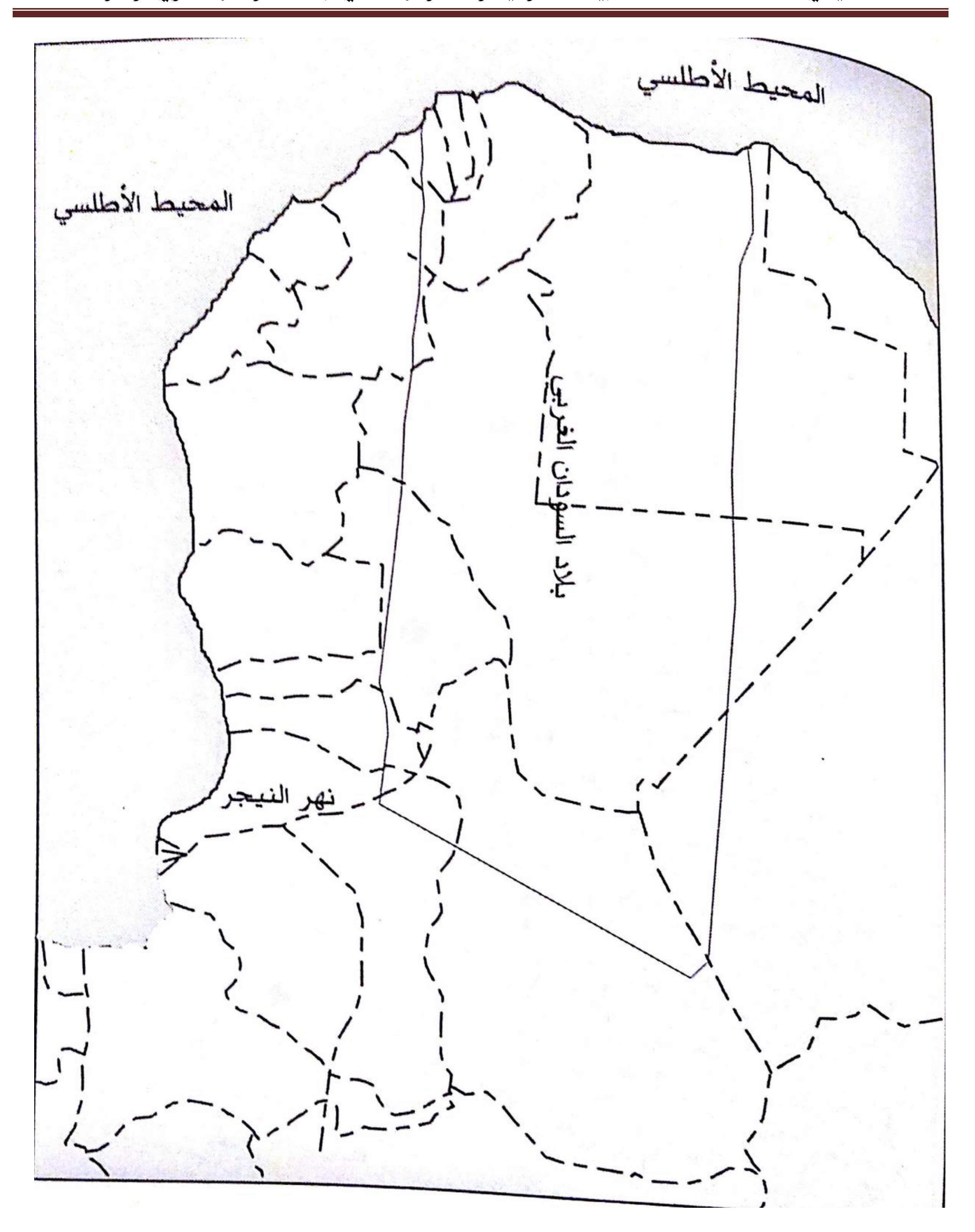
ومما يجدر الاشارة اليه ان بلاد السودان في عرف الجغرافيين المغاربة هي بلاد السودان الغربي، فقد كان مفهوم السودان عاما ثم تحددت الاجزاء الشرقية منه بأسماء مميزة مثل الحبشة والزنج وبذلك اصبح السودان يمثل الجناح الغربي من دولة الاسلام ويشير بن حوقل الى بعض من ذلك في قوله " ..فأما مملكة الاسلام فان شرقيها ارض الهند وبحر فارس ،وغربيها مملكة السودان السكان على البحر المحيط المتصلين ببراري ودغشت وصحاريها اتجاه اوليل"[1] .وبناءً على ما تقدم ذكره فان كان مدلول كلمة السودان يمثل الجناح الغربي لدولة الاسلام فان الاقاليم البعيدة منه سميت ب "سودان العرب" لأنها تسامت المغرب ابتداءً من فزان شرقا الى البحر المحيط غربا[2].(انظر الخريطة الصفحة الموالية).

وبالرغم من صعوبة وضع حدود دقيقة لهذا المجال الجغرافي الواسع، فان هناك اتفاق شبه عام بين هذه المصادر على ان حدوده الشمالية هي سواحل الصحراء الكبرى وجنوبا حدود نطاق الغابات الاستوائية، وامتداده الشرقي من المحيط الى المحيط[3]. واستحدث الأوربيون الغربيون في الفترة الحديثة تقسيمات جديدة لبلاد السودان في امتدادها من الشرق الى الغرب، ويأتي على راس هؤلاء المؤرخين دولافوسDelafosse وترمنغهام Triminghamهذا الأخير قسمها الى:

1- بن حوقل: **صورة الارض**، نشر كريمر، طبع لندن، ج1 ،1938، ص10.

2- نبيلة حسن محمد: **تاريخ افريقيا الاسلامية**، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ،2013م، ص 72.

3-زباديه عبد القادر: **الحضارة العربية** والتأثير **الأوروبي في افريقيا الغربية جنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989، ص11.



خريطة توضح موقع بلاد السودان الغربي[1]

1 – مطير غيث: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، المرجع السابق، ص 413.

-**السودان الشرقي**: ويمتد من البحر الأحمر شرقا حتى إقليم دارفور غربا ويضم الحوض الأعلى والاوسط لنهر النيل. وكان قد غلب على عرف المؤرخين العرب مسمى بلاد الزنج الا ان كلمة السودان كانت تشمله ايضا[1].

-**السودان الأوسط**: ويشمل حوض تشاد والمناطق المحيطة بها. والذي ضم ممالك الكانم-برنو وبلاد الهوسا[2].

السودان الغربي: ويشمل المناطق الواقعة بين حوض النيجر وحوض السنغال حتى المحيط الأطلسي[3]

وبذلك فان القسمين الأخيرين (الأوسط والغربي) سيدخلان ضمن نطاق الدراسة التي نحن بصدد البحث فيها. فما الملامح الجغرافية التي تميز ذلك الحيز الجغرافي؟

1-2 أصل التسمية:

بلاد السودان: تعني بلاد السود (أي الجنس الأسود) والنسبة هنا بالسمات والجهة، وذلك في مقابلة بلاد البيضان ويقصد بها شمال افريقية (المغرب والصحراء)، والسودان صيغة جمع اسود والمقصود الرجال ذوي البشرة السوداء الذين يعرفون أيضا ب الاساود، وعلى نفس الوزن استخدم العرب كلمة

1-التونسي محمد بن عمر: **تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان**، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة،1965 م، ص132.

2-TRIMINGHAM J .S: History of Islam in west africa-london-1962-p 125.

3-زباديه: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، المرجع السابق، ص12، انظر أيضا، مطير غيث: الثقافة العربية الاسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، المرجع السابق، ص32. انظر أيضا فيج دي جي: **تاريخ غرب افريقيا**، تر يوسف نصر، دار المعارف، مصر، ط1، 1982، ص03.

البيضان أي الرجال ذوو البشرة البيضاء[1]، وبلاد السودان اسم او مصطلح أطلقه العرب على الاقوام التي تقطن جنوب الصحراء الكبرى، اما أصل هذه التسمية لديهم، فقد استوحوا فيه لون البشرة عند سكان تلك المنطقة[2].

ويذكر بن خلدون " والسودان أصناف وشعوب وقبائل، أشهرهم بالمشرق الزنج، والنوبة ويليهم الزغاوة، ويليهم الكانم، ويليهم من غربهم كوكو ويتصلون بالبحر المحيط الى غانة "[3].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعضا من الكتاب والجغرافيين العرب في العصور الوسطى كانوا يخلطون بين مصطلحي بلاد السودان الغربي وبلاد التكرور[4]، كما أن البعض الآخر منهم يعني بلفظ التكرور بلاد السودان الغربي عموما[5].ويشير الى المعنى نفسه تقريبا محمد بلو بن عثمان فودي (1837/1781م) بقوله "واعلم أن هذا الاسم الذي هو التكرور على الاقليم الغربي من الجنوب السوداني على ما فيهما من تعبيرهم في التواريخ والنقول "[6]

1- في القاموس" السواد نقيض البياض سود وساد واسود اسودادا واسود اسودادا ويجوز في الشعر اسواد تحرك الالف لئلا يجمع بين ساكنين وهو اسود والجمع سود وسودان " انظر ابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، د.ت، ج4، ص209. وجاء في القاموس البياض ضد السواد يكون ذلك في الحيوان والنبات وغير ذلك مما يقابله غيره، والبيضان من الناس خلاف السودان، نفسه، ص319.

2- زبادية: المرجع السابق، ص11.

3- بن خلدون: المصدر السابق، ص234.

4-غيث مطير سعد: الثقافة الاسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، المرجع السابق، ص30.

5- القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص282.

6-محمد بللو: **إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، تحقيق بهجة الشاذلي، الرباط،1996، ص47.

ولفظ تكرور يعني في لسان العرب الحاجز، وربما جاء ذلك من كون المملكة التي سميت باسم تكرور كانت هي اول الممالك السودانية التي أسلم اهلها وصارت بذلك حاجزا بين بلاد صنهاجة الصحراوية المسلمة وبلاد الغابة الوثنية، ويمكن القول ان هذا المجال الجغرافي والبشري الواسع هو ما عرفته المصادر العربية باسم تكرور، التكرور، بلاد التكرور، او بلاد تكرور بدون تعريف، وهي كلها صيغ مختلفة لنفس الاسم الذي يقصد به بلاد الصحراء الكبرى والبلاد السودانية من البحر الاحمر الى بلاد السودان المتاخمة للأطلسي[1].

و التكرور اقليم من اقاليم مملكة مالي، وفي ذلك يقول العمري عند حديثه عن مملكة مالي وما بعدها "وصاحب هذه المملكة المعروف عند اهل مصر بملك التكرور ولو سمع هذا انف منه، لان التكرور انما هو اقليم من اقاليم مملكته ،والاحب اليه ان يقال صاحب مالي، لأنه الاقليم الاكبر وهو به اشهر"[2]،هذا ويفهم من نص العمري ان المشارقة كانوا الاكثر استعمالا لمصطلح التكرور منه الى المغاربة ،نظرا لبعدهم عن المنطقة وعدم احتكاكهم بها، خصوصا اذا علمنا ان مصطلح التكرور كثيرا ما استعمل في مواسم الحج للدلالة على ركب حجيج بلاد السودان الغربي، ومن هنا صار الاسم اصطلاحا جغرافيا وحضاريا وليست له بالقطع اية دلالة عرقية او لغوية ،لأنه يطلق على أقوام من ارومات شتى من الزنوج والعرب و الطوارق وغيرهم[3]. لكن اسم تكرور والتكارير والتكارنة سيكون

1-حماه الله ولد السالم: **صحراء الملثمين وبلاد السودان، دار الكتب العلمية**، بيروت، ط1، 2011، ص04.

2-العمري: **مسالك الابصار في ممالك الامصار**، تح حمزة احمد، منشورات المجمع الثقافي، ابوظبي، ط4، 2002م، ص ص 107-108.انظرايضا عبد الله سالم: **انتشار الاسلام في افريقيا جنوب الصحراء**، منشورات جامعة 07اكتوبر، ط1، 2010م، ص22.

3- حماه الله ولد السالم: المرجع السابق، ص05.

مقصورا من أواخر القرن التاسع عشر تقريبا على شعب التوكلور، وهو جزء من قومية الهالوبولار البولارية الفولانية، ومن هنا نشأ الخلط بين المدلول العام التاريخي لبلاد التكرور وأهل تكرور، وبين التكارنة والتكولور[1]، على ان هذا المصطلح يرجعه البعض الى المستعمر الأوربي لغرب القارة والذي أطلق على شعوبها اسم التوكلور كتعبير عن تعدد ألوان ساكنة المنطقة.

كما حمل السودان الغربي اسم "نجريتا"Negrita ومعناه نهر الاجناس السوداء، وهو مصطلح أطلقه المؤرخ الجغرافي الروماني "بليني" حوالي 115م[2]. وفي الفترة الحديثة استعمل الانجليز كلمة "السودان" للدلالة على السودان المصري، اما الفرنسيون فأطلقوا اسم "السودان الفرنسي"[3] رسميا على مستعمرة من مستعمراتهم لا تنطبق في الواقع الا على قسم صغير من المنطقة السودانية الكبيرة التي يحتلونها[4].

وبالعودة الى كتابات المؤرخين العرب في القرون الوسطى نجد انها لم تحتوي اشارات الى تقسيم معين للمنطقة فقد كان مدلول مصطلح السودان يشمل افريقيا جنوب الصحراء من البحر الاحمر

1- حماه الله ولد السالم: المرجع السابق، ص06.

2- خالدي مسعود: **الجاليات السودانية والبربرية في السودان الأوسط والغربي من القرن الحادي عشر الى السادس عشر الميلادي**، المكتبة المصرية للنشر والتوزيع،2014م، ص29.انظر ايضا مسعود عمر: تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي، منشورات جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا،2003، ص22.

3- السودان الفرنسي: اسم كان يطلقه الفرنسيون على جزء كانوا يحتلونه من افريقيا الغربية، وهي دولة مالي الحالية.

4- خالدي مسعود: المرجع السابق، ص29.

شرقا الى المحيط الاطلسي غربا على وجه التقريب، ولعل هذا التعريف المطلق والجغرافيا الواسعة هو ما دفع المؤرخين المعاصرين، الى وضع تقسيمات جديدة للمنطقة[1].

وعلى ضوء ما سبق ذكره يمكن تحديد السودان الاوسط والغربي في المنطقة الممتدة من بحيرة تشاد وحوض نهر النيجر حتى سواحل المحيط الاطلسي غربا بين خطي عرض تسعة درجات وسبعة عشر درجة شمال خط الاستواء وبين خطي طول عشرين درجة شرقا وعشرين درجة غربا. [2] وتشمل منطقة السودان الاوسط والغربي، في وقتنا الراهن دولا عديدة منها، النيجر وموريتانيا ومالي ونيجيريا والكاميرون ووسط افريقيا، وتشاد ودارفور وغامبيا وسيراليون الطوغو والسنغال والغابون وليبيريا وكوت ديفوار، وغانا، وبوركينافاسو[3].

وتعرف معظم الدول السالفة الذكر في يومنا هذا باسم (دول الساحل) او (دول الساحل الصحراوي) والمصنفة ضمن الدول الاكثر فقرا في العالم، بسبب زحف الرمال على اغلب اراضيها الخصبة، ويعود استعمال هذا المدلول الجغرافي الى الادارة الاستعمارية الفرنسية التي كانت تسيطر على كثير من دول السودان الغربي[4].

1-جميلة امحمد التكيتك: **مملكة سنغاي الاسلامية في عهد الاسكيا محمد الكبير (1493م/1528)**، ليبيا ،1998، ص28.

2- خالدي مسعود: المرجع السابق، ص30. انظر ايضا، ابراهيم علي طرخان: **دولة مالي الاسلامية**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر،1973م، ص 05.

3- مطير سعد غيث: المرجع السابق، ص33.

4- نفســــــــه، ص 34.

1-3 الملامح الجغرافية لبلاد السودان:

يتميز موقع بلاد السودان الغربي بمجموعة من الخصائص جعلت منه محل جذب لعديد الهجرات المتعددة من الشمال والشرق خلال أزمنة مختلفة، وبالرغم من وقوع اغلب المنطقة في الإقليم الشبه الجاف (الشبه المداري) الا ان ذلك لم يحل دون إقامة هذه القبائل خاصة في ظل توفر مجوعة من الأنهار الهامة يأتي على راسها نهر السنغال[1]، والنيجر[2]، وغامبيا، ونهر الفولتا، بالإضافة الى بحيرة تشاد[3]، والانهار المتصلة بها ومنها نهر أوبانجي شاري.

يغلب على سطح بلاد السودان الاوسط والغربي البساطة والسهولة والامتداد والاتساع، مع وجود بعض المرتفعات في الجنوب الغربي (جبال فوتا جالون) والشمال الشرقي (جبال أبشة) ولم تكن الصحاري او الانهار (النيجر والسنغال) في يوم من الايام حاجزا امام التواصل بين الشمال والجنوب بقدر ما كانت حلقة وصل وتكامل برغم قسوتها ووعورتها وكلما تقدمنا شمال او غرب هذا الاقليم لا

1- **نهر السنغال**: من اطول الانهار الافريقية، يبلغ طوله 1.020 ميل، وعرف عند العرب المسلمين بنهر صنهاجة والنهر يحتل وادي السنغال كاملا ويرتفع في مرتفعات فوتاجالون في غينيا وتمثل المرتفعات مصدر جزء كبير من مياه النهر ويتميز مجراه بالانحدار التدريجي في المنطقة الساحلية المستوية في مجرى مائي قليل العمق. انظر عبد القادر مصطفى المحيشي وآخرون: **جغرافية القارة الافريقية وجزرها**، الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط1، 2000م، ليبيا، ص64.

2- **نهر النيجر**: سماه العرب قديما نيل السودان و(نهر الانهر) وهو النهر الرئيسي في غرب افريقيا طوله 4180كلم، ويمر عبر غينيا ومالي والنيجر وبنين ونيجيريا، يتخذ النهر شكلا قوسيا او هلاليا ليصب في دلتا النيجر في خليج غينيا على المحيط الأطلسي بمعدل تصريف5700م/ثا. انظر محمد توفيق سماق: **الموسوعة الدولية العالم أواخر القرن العشرين**، مطبعة الآداب والعلوم، دمشق، 1998، مج21، ص233. **انظر الملحق رقم2، ص**

3- **بحيرة تشاد**: تعد بحيرة تشاد أحد أكبر احواض الصرف الداخلي في الصحراء الكبرى وهي تقع على منسوب 234 مترا، بحيرة ضيقة تمتد حولها مساحات واسعة من الأراضي المنبسطة لا يزيد ارتفاعها عن 800م تمثل بقايا بحيرة مقفلة أكثر اتساعا اخذت تجف مع الزمن. انظر محمد مرسي الحريري: **جغرافية القارة الافريقية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م، ص117.

حظنا ان هناك تغيرا جغرافيا يطرا اثناء هذا التحول، سواءً تعلق ذلك بشكل المناخ او تنوع التضاريس والامر نفسه ينطبق على شرق ووسط القارة.

أما بلاد السودان الأوسط والتي تشتمل على العديد من الأقاليم الإفريقية التي تقع أواسط وجنوب غرب افريقيا، فان بها مجموعات تضاريسية متنوعة من جبال واحواض وبحيرات واودية، ورغم ان سطح هذا الأخير يتميز بقلة المرتفعات الالتوائية الا ان به قمما جبلية عالية مثل كتلة تبستي التي يصل علوها الى 3395م[1]، وهي في الأصل عبارة عن مخروط بركاني لازالت تظهر به علامات النشاط وتكسوه الثلوج في بعض الأحيان[2].اما اقليم غرب افريقيا به مرتفعات و هضاب يزيد ارتفاعها عن 600م، وبعض الجبال منها جبل (بينتما) في سيراليون يصل ارتفاعه الى 2190م،وهضبة (جوس) في نيجيريا والتي ترتفع الى 1830م[3].

وبصورة عامة تتميز بلاد السودان الغربي والأوسط بالمظاهر التضاريسية التالية:

أ-المرتفعات (الجبال والهضاب)

_ منطقة الفوتاجالون: في غرب افريقيا وتمتد هذه المنطقة من شمال غينيا عبر سيراليون الى قرب حدود كوت ديفوار الساحلية[4]، وهي منطقة مدارية جوها حار مشبع بالرطوبة ونباتها أكثر غزارة

1 - جميلة امحمد: **مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الاسكيا محمد الكبير (1493-1528م)** ليبيا، ط1، 1998، ص28.

2-جودت حسين: **جغرافية افريقيا الاقليمية**، دار النهضة الغربي، بيروت ،1981، ص ص49-50.

3- نفســــــــه: ص54. انظر ايضا خالدي مسعود: المرجع السابق، ص32.

4- جودت حسين: المرجع السابق، ص50.

وضخامة وحيواناتها مدارية، منها الجاموس البري، تنبع منها ثلاث انهار كبيرة: نهر السنغال، النيجر والفولتا.

_ منطقة هضاب كاميرون: وهي هضاب مدارية تنحدر منها انهار كبيرة تصب في نهر النيجر والمحيط الاطلسي[1].

_ جبال تبستي والاندي: جبال متوسطة الارتفاع في الحدود الليبية التشادية (2000م)، واقصى ارتفاع لها هو(3415م)[2]. وهناك مجموعات جبلية اخرى منها جبال السرفو والجيراب، والسرور وجبال العير الواقعة الى الحدود الجنوبية للصحراء[3].

_ جبال مرة: وهي كتلة جبلية يبلغ اعلى ارتفاعها (3088م) وتقع بإقليم دارفور وتليها هضبة كردفان.

_ هضبة جوس: تقع في شمال نيجيريا وهي هضبة واسعة قليلة الارتفاع تشبه السهول المرتفعة وتعرف بسهول اراضي الهوسا[4].

ب-السهـــــول:

السهول المحيطة بهذه الجبال تبلغ اقصى اتساع لها الى الغرب من هضبة جوس او سهول الهوسا العليا في نيجيريا وفي القسم الاوسط من النيجر والسنغال وفي الجنوب يوجد السهل الساحلي

1- خالدي: المرجع السابق، ص32.

2- عبد الجليل شاطر البصيلي: **حضارات السودان الشرقي والاوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،1972، ص407.

3- نفســـــه: ص408.

4- خالدي: المرجع السابق، ص33.

(بلاجوناتة) واشرطته الرملية ممتدة من جزيرة (شيربيرو) في سيراليون الى مصب نهر النيجر ويبلغ هذا السهل اقصى ضيق له في ليبيريا وجنوب شرق غانا الحالية، أما في الشمال من (فوتاجالون) فيمتد سهل ساحلي عريض في سنغامبيا، يشكل الحد الغربي لمنخفضي السنغال والنيجر.

وسواحل غرب إفريقيا تتميز بالشطوط الرملية الضخمة التي تتصل نهايتها أحيانا باليابس وأحيانا تكون تحت عمق ثلاثة أمتار تحت سطح الماء[1].

ج-الأحواض والبحيرات:

تتميز منطقة بلاد السودان الغربي والأوسط بمنخفضات كثيرة تشكلت منها مجموعة من البحيرات كان لها كبير الأثر على مجرى حياة السكان، ومن أهمها:

_ بحيرة تشاد: بحيرة واسعة المساحة غزيرة المياه، بدأت تجف وتتآكل حتى أصبح شكلها عبارة عن مستنقعات تتخللها جزر صغيرة وعمقها لا يتعدى ثلاثة أمتار. مساحتها تتراوح بين مائة ألف وخمسة عشر ألف كيلومتر مربع، يفيض ماؤها احيانا ويغمر ما يحيط بها من البلاد[2]. وبرغم انها مقفلة الا ان نسبة الملوحة فيها قليلة جدا[3]، وللبحيرة موقع استراتيجي يتوسط السودان الاوسط وتعيش حولها كثير من القبائل وتحولت منذ قرون الى ملتقى للقوافل التجارية القادمة من الشمال ومن الشرق

1- محمد عبد الغني سعودي: **افريقيا، دراسة في شخصية القارة وشخصية الاقليم**، القاهرة، 2007م، ص ص164،154.

2- عبد الجليل شاطر البصيلي: المرجع السابق، ص410.

3- عنايات الطحاوي: **الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، مج1، افريقيا الإسلامية**، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية العراق، 1970، ص40.

والغرب[1]. وتعد هذه البحيرة مصدر رزق لكثير من القبائل والممالك التي اقيمت حولها نظرا لخصوبة اراضيها وسهولة سقيها، ومن اهم المحاصيل التي كانت تزرع فيها نجد الارز[2].

_ حوض سوكوتو: ويشمل شمال نيجيريا يتعرض لعملية التعرية الجوية وتربته خصبة، ولذلك اقيمت فيه زراعات ذات مردود ضعيف منها الذرة والفول السوداني[3].

د-الأنهار:

لعبت انهار بلاد السودان الغربي الأوسط دورا هاما في بعث الحياة في المنطقة، وكانت أحد العوامل الرئيسية في قيام تلك الممالك الإسلامية على احوازها وبالقرب منها ومن أهم تلك الأنهار:

_ نهر النيجر: من اطول انهار القارة الافريقية بعد النيل والكونغو، حيث يبلغ طوله 4160 كلم، ويمتد في غرب افريقيا على شكل قوس يتجه من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي وينتهي عند المصب بدلتا كثيرة الفروع، ويتصل به نهر بنوي، وأطلق المستعمرون الأوربيون الاوائل على مجموعة الانهار المتصلة بالنيجر اسم انهار الزيت OIL Rivers لاشتهار المنطقة بتصدير أجود انواع الزيوت[4].

ينبع نهر النيجر من المنحدرات الداخلية لهضبة فوتاجالون، ويتكون عند بدايته في جنوب باماكو من عدد من المجاري التي تنتشر في مساحات واسعة من الارض مكونة ما سميت بالدلتا الداخلية

1- خالدي: المرجع السابق، ص34.

2- عبد الجليل شاطر البصيلي: المرجع السابق ص410.

3- جودت حسين: المرجع السابق، ص230.

4-شوقي الجمل: **تاريخ كشف افريقيا واستعمارها**، القاهرة، ط1، 1971، ص92، 93.

للنيجر حيث تتحول هذه الدلتا الى بحيرة عظيمة في موسم الفيضان، ويسير النهر بعد ذلك على هذه الصورة حتى يصل الى تنبكت وبعدها تتحد مجاريه نحو الجنوب ليصب في المحيط الاطلسي[1].

وصفه الرحالة ديبوا Felix Dubois في كتابه (تنبكت العجيبة) على انه شبيه بالمحيطات من حيث شواطئه وأمواجه يعيش بجانبه خلق كثير يبحرون فيه ويصطادون السمك، وعلى ضفافه قرى تشبه الأكواخ المقامة على سواحل اوروبا، ولهم قوارب خاصة للتنقل فيه ومما جاء في ذلك قوله " ان نهر النيجر يقدم لنا مهرجانا من العظمة والتنوع لا يستطيع اغنى تجار السكر تقديمه، ومياه النهر الزرقاء مثل مياه البحر المتوسط قد تحولت الى لون رمادي مثل بحر الشمال ثم تتحول الى مياه خضراء مثل المحيط العظيم"[2].

ـ نهر السنغال: ينبع من منطقة الفوتاجالون ويتجه شمالا ثم غربا نحو المحيط الاطلسي، ويتميز بانحدار مجراه التدريجي في المنطقة المستوية الساحلية، وهو قليل العمق اذ لا يتجاوز عمقه ثلاثة أمتار لمسافة تبلغ ثلاثمائة وخمسون كيلومتر من المصب[3].

ـ نهر غامبيا: يمثل طريقا مهما للمواصلات وهو صالح للملاحة في جزء كبير منه تتجاوز مسافة اربعمائة وواحد وستون كيلومتر، وتقع القرى بعيدا عن مجرى النهر، وذلك بسبب المستنقعات الضحلة والغابات الكثيفة على ضفافه[4]، وهو مدخل للسودان الغربي ويخترق منطقة السافانا وهي أكثر مناطق

1- احمد نجم الدين: **افريقيا-دراسة عامة واقليمية** -الاسكندرية، 1988، ص ص144، 145.

2- فليكيس ديبوا: **تمبكتو العجيبة**، تر عبدالله عبدالرزاق ابراهيم، مراجعة شوقي عطاالله، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، ص31.

3- خالدي مسعود: المرجع السابق، ص36.

4- الهام محمد علي ذهني: **جهاد الممالك الإسلامية في غرب افريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850-1914م)**، المريخ للنشر، الرياض، ط1، 1988، ص20.

افريقيا ارتيادا وتكونت على طول الجزء الصالح للملاحة مستعمرة غامبيا، لتنشطر بعد ذلك الى قسمين (كازامنس)في جنوب النهر والسنغال في شماله[1].

هـ-الصحراء الكبرى:

تشكل الصحراء الكبرى الإفريقية جزءا هاما من صحاري العالم إن لم تكن الأكبر على وجه الإطلاق ، وتشغل بلاد السودان الغربي و الأوسط جزءا هاما من هذه الصحراء خاصة في ساحلها الجنوبي لذا أطلق على هذه المنطقة في الفترة المعاصرة مسمى بلاد الساحل او بلدان الساحل ، وإذا عدنا الى حدود هذه الصحراء، في الشرق يمثل نهر النيل الحد الطبيعي لهذه الصحراء وفي الغرب المحيط الأطلسي، وفي الشمال تمتد الصحراء الى الهضبة الليبية وصحراء سرت وجبل نفوسة وشط الجريد وشط ملغيغ وجبال الأطلس الصحراوية ووادي درعة[2]، فتضم بذلك المراكز التجارية في شمال الصحراء ، مثل فزان وغدامس ووادي ريغ ورقلة وسجلماسة التي ازدهرت بفضل التجارة مع بلاد السودان ، اما الحدود الجنوبية للصحراء فتمر تقريبا بمصب نهر السنغال وأعلى منعطف نهر النيجر وتشاد (هضبة اندي) لتصل ثانية الى النيل عند خط عرض 16 درجة شمالا [3].

والصحراء الكبرى في شكلها عبارة عن هضبة ممتدة لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثمائة متر الا نادرا، حيث تقطعها كتل الهقار والطاسيلي وتيشي من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي[4].هذا وقد ميز

1- خالدي: المرجع السابق ص36.

2- جودت حسين: المرجع السابق، ص53.

3- تاديورلفنسكي: **دور الصحراء الكبرى واهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب** (موسوعة تاريخ افريقيا العام – اليونيسكو_ج3)، المرجع السابق، ص309.

4- جودت حسين: المرجع السابق، ص54.

الجغرافيون المحدثون خصوصا بين الصحراء الشرقية، اي الصحراء الليبية والصحراء الوسطى والصحراء الغربية[1].

وتعد الصحراء الكبرى الاساس لفهم تاريخ غربي افريقية، فصلات هذه المنطقة بالعالم الخارجي كانت في الغالب عن طريقها، وكانت تلك الصلات قليلة في الجهات الساحلية الاطلسية، وتشير الدراسات التاريخية انه تيسر للإنسان التنقل عبر الصحراء منذ القرن الثاني الميلادي 2م، حينما أصبح الجمل وسيلة التنقل في شمال افريقيا، اما في جنوبي الصحراء اي بين الصحراء ومنطقة الغابات الاستوائية باستثناء فصل الامطار، فكان لا يعرقل انتقال الأهالي والحيوان من مكان لأخر أي عائق، وذلك على طول امتداد الإقليم من الغرب الى الشرق[2].

وقد تغير تفكير المؤرخين حول الصحراء بعد سلسلة جديدة من الآثار التي اكتشفها الرحالة الفرنسي لوط H.Lhote عام 1928م، والمتمثلة في النقوش الصخرية، حيث أشارت الى تطور الحضارة منذ العصر الحجري المبكر حتى القرن السادس عشر قبل الميلاد ويحتوي على صور لخيول وعجلات حربية للهجمات الوحشية لحروب الصحراء[3].

و-المناخ والنبات:

تقع معظم بلاد السودان ضمن المناخ المداري حيث لا ينخفض المتوسط الشهري للحرارة عن 18 درجة مئوية، ويقل المطر ويقصر موسمه بالاتجاه شمالا، ويعتبر خط عشرة درجات شمالا حدا فاصلا

1-نبيلة حسن: المرجع السابق، ص54.

2- عبد الرحمان زكي: **تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية**، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1981، ص05.

3-مادهو بانيكار: **الوثنية والاسلام**، تر وتع احمد فؤاد بلبع، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة،1995، ص13.

بين اقليمين، اقليم غانا الذي يتميز بتساقط الامطار طول العام (استوائي) والاقليم الثاني الى الشمال من خط عشرة درجات حيث يظهر الاقليم المداري المطير صيفا[1]. ويختلف تساقط الامطار من منطقة لأخرى، حيث تقل كمية الامطار في السودان الغربي كلما اتجهنا شمالا خاصة المناطق البعيدة الداخلية عن الساحل لتتراوح بين 100و300ملم[2].

في حين ان الاقليم الصحراوي يتميز بالجفاف وندرة الامطار، وترتفع به درجة الحرارة حيث تتجاوز 44درجة مئوية احيانا[3].

وتنعكس طبيعة المناخ على تحديد نوع النبات السائد في المنطقة، فتغلب الغابات والمستنقعات في دلتا النيجر والشريط الساحلي، ونجد الغابات الاستوائية ذات الاشجار الكثيفة الباسقة والنباتات المتسلقة الطويلة في الاجزاء الجنوبية، بينما تسود حشائش السافانا في منطقة واسعة بين خطي عرض 8و11 درجة شمالا تقريبا، ومن الشمال تغلب النباتات الشوكية القصيرة المتناثرة والمتباعدة هنا وهناك.

أما السودان الأوسط فيغلب عليه المناخ المداري القاري، والذي يتميز بفصل شتاء جاف نتيجة سيطرة الرياح التجارية الجافة، وفصل صيف ممطر، وتتباين كمية الأمطار من منطقة الى أخرى، فهي غزيرة قرب خط الاستواء وقليلة عند حواف الصحراء الكبرى، وترتفع درجة الحرارة في فصل الصيف الذي تتجاوز فيه احيانا 40 درجة ويصل متوسط حرارتها الشهري صيفا الى 30 درجة مئوية،

1-سعودي محمد عبد الغني: المرجع السابق، ص104.

2- جودت حسين: المرجع السابق، ص318.

3 -خالدي مسعود: المرجع السابق، ص40.

وتنتشر في هذا الاقليم حشائش السافانا في الجنوب والاعشاب والشجيرات الصغيرة حول بحيرة تشاد والحشائش القصيرة والسافانا الشوكية على أطراف الصحراء[1].

2-التركيبة البشرية لبلاد السودان الغربي والاوسط:

تتعدد القبائل والاجناس وتختلف اصول سكان بلاد السودان، وقد وصل اغلبها عن طريق الهجرات المتعددة تبعا للظروف الطبيعية والمناخية، فاستقرت بهذه المناطق واندمجت مع بعضها عن طريق المصاهرة والانتصار للقبيلة في بعض الاحيان.

وبمرور الزمن تغيرت الملامح والأوصاف الرئيسية لهذه الاجناس، حتى انه في الوقت الحالي لا نستطيع ان نميز بعضها عن بعض او نستطيع ارجاعها الى اصولها الاولى، ولا يمكننا الحصول على مجموعات لا زالت تحتفظ بمميزاتها وثقافتها وعاداتها فضلا عن أصولها السلالية.

ونظرا للموقع الهام والثراء الثقافي الكبير الذي شهدته المنطقة فقد عرفت خليطا من الأجناس البشرية من فصائل عرقية واثنيه متعددة، منها القبائل السودانية المحلية والقبائل البربرية الصنهاجية، والتي دخلت المنطقة من الشمال الافريقي منذ زمن بعيد وقبل الفتح الاسلامي، لا يعرف أولها كما اشار الى ذلك بن خلدون "والسودان اصناف شعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج، والنوبة ويليهم الزغاوة، ويليهم الكانم، ويليهم من غربهم كوكو ويتصلون بالبحر المحيط الى غانة "[2]. هذا بالإضافة الى الهجرات العربية والبربرية التي عرفتها المنطقة خاصة مع بداية القرن السابع للميلاد.

1-مسعود خالدي: المرجع السابق، ص40. انظر ايضا علي موسى: **جغرافية العالم الاقليمية، دار الفكر، دمشق**، 1981م، ص199.

2- ابن خلدون: المرجع السابق ج5، ص234.

وبرغم مشاق السفر والجفاف الذي تعرفه المنطقة إلا أن ذلك لم يكن حاجزا أمام حركة التنقل والتواصل[1]بين الشمال والجنوب، ومن أشهر القبائل التي لعبت دورا هاما في تاريخ بلاد السودان الغربي والاوسط نجد:

_ القبائل السودانية: السوننك، الولوف، البمبارا، السنغاي، التكرور، الفلاتة، الموشي، الماندنجو، الكنمبو والكانوري، والهوسا.

_ القبائل البربرية: وتشمل القبائل الصنهاجية ومنها، لمتونه، ومسوفة، وجدالة، وجزولة، ولمطة.

_ القبائل العربية: وتشمل قبائل بني حسان وبني معقل.

2-1 القبائل السودانية:

_ **الفولاني**:[2]، الفولاني او الفلاني او الفولا او الفول او الفولب او الفلاتة، جميعها اسماء تدل على المسمى نفسه، والفلان هم الشعب الوحيد الذي هو من اصل ابيض (احمر)في بلاد السودان، وهم رعاة (بقر)يتجولون في اكبر اجزاء افريقية اتساعا منذ اكثر من الف عام، وهم يكونون بذلك احد المجتمعات البدوية النادرة في افريقيا السوداء وتنتشر هذه القبائل في النيجر والسنغال وغينيا ونيجيريا

1- مطير سعد غيث: المرجع السابق، ص37.

2- كلمة (بول-فلان)، كما يقول بارث تعني اسمر واضح، احمر مناقضا للولوف (الجلف) وتعني اسود، ويطلق عليهم السعدي صاحب تاريخ السودان اسم فلان، والنسبة اليها فلاني وفلانية، ويقول التونسي صاحب كتاب تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب وبلاد السودان " واهل دارفور يسمونهم الفلاتة وفلاتا في الاخر اصح" التونسي: تشحيذ الاذهان ...،تحقيق خليل عساكر ،القاهرة،1965م،63.ويسمونFulaفي جامبيا وسيراليون ، والتسمية الشائعة في الفرنسية **peuls**وفي الانجليزية **Fulani**وهو نفس ما يطلقه عليهم الهوصا والمور، انظر، مطير سعد: المرجع السابق، ص 38.

والكمرون وموريتانيا[1]، وقد دخلت هذه القبائل الاسلام منذ عهد مبكر، وكثيرون منهم يتكلمون اللغة العربية مع لغتهم –لغة الفولي– ،وعرف عنها انها قبائل مسالمة نشطة ذات مزاج معتدل واخلاق طيبة، واليها يعود الفضل في ادخال قبائل الهوسا للإسلام ، ومن اشهر زعمائهم (عثمان دان فوديو) الذي استطاع ان يسيطر على ولايات الهوسا السبع سنة 1804م[2].

اختلفت الآراء في أصل الفولاني، وغالب هذه الروايات والنظريات هي من قبيل القصص وترجع أصل الفلان اما الى اصول افريقية، واما الى اصول عربية. فالمؤرخ فليكس ديبوا، يرى ان الفلان قد يكونون احفاد الهنيهن الذين ذكر البكري "انهم من ذرية الجيش الذي كان بنو امية انفذوه الى غانة في صدر الاسلام ...فهم بيض الالوان حسان الوجوه"[3].

ويرى البعض الاخر انهم من الجنس السامي، وصلوا الى افريقيا عن طريق هجرات من بلاد اليمن والجزيرة العربية عن طريق باب المندب حتى وصولهم الى السودان الغربي[4].ويبدو ان الاصل النوبي الاثيوبي اكثر جدية وقد ايده في الواقع عدد كبير من المؤلفين ، من بينهم (مولان) في رحلته داخل افريقيا الى منابع السنغال وجامبيا سنة 1818م، حيث يرى اوجه الشبه في الملامح والطبائع والعادات بين الفلان وبرابرة النوبة، اما بارث Barth سنة 1855م، ابدى استعداداه للقبول بان الفلان قد سكنوا افريقيا الشمالية قبل توسع الشعوب البربرية وهو يشببهم بالأثيوبيين الاحباش

1 – حسن احمد محمود: **الإسلام والثقافة العربية في افريقيا**، دار الفكر العربي، القاهرة، 2009م، ص173.

2–الشلبي: المرجع السابق، ص69.

3–البكري: المصدر السابق، ص179.

4–بول مارتي: **كنتة الشرقيون**، تر محمد محمود ولد دادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1983، ص14.

اصحاب اللون الاحمر النحاسي ، وان الفلان الذين اتوا من الشرق الافريقي قد مروا عن طريق جنوب مراكش حوالي (150 ق.م) ، ثم تحت ضغط العرب ابتداءً من (732-750م) وصلوا السنغال حيث سكنوا منطقة فوتا تورو[1].

ورغم عجز المؤرخين عن تحديد أصل الفلان الا ان الفولانيين أنفسهم يرون انهم من الجنس العربي، ومن نسل الفاتح المشهور لبلاد المغرب عقبة بن نافع[2].

_ **قبائل الماندنجو** او الماندي: وهي من جماعات الونجارة وقد ذكرهم البكري تحت اسم قنقارة (جنجارة)[3] ويسميهم بن بطوطة ونجراته[4]، وونجارة يبدو انه تحريف لاسم الاقليم الاصلي الجنجران، وجونجران او جينجران، واول هذه المسميات جنجران، يحتفظ به المور والسراكلة والثاني جونجران يحتفظ به السنغي والفلان في ماسنة والهوسا.

وكلمة ماندي تعني عند السيد او في مركز اقامة السيد، وبمعنى اخر العاصمة عند السوننك، وفي تفسير اخر تعني ابن الام (ما: الام، دنج: الطفل)، وهو ما يدل على اهمية النسب الى الام عند قبائل غربي افريقيا[5]، وفي تفسير اخر ايضا تعني كلمة مالنك او مالنكا، فرس النهر او اصحاب فرس النهر وهي لفظة مشتقة من كلمة مالي، وتعني كلمة ماندي عند الفولاني رعاة مالي او سكان مالي[6].

1-نبيلة حسن: المرجع السابق، ص 106.

2-محمد بلو: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، المرجع السابق، ص223.

3-البكري: المرجع السابق، ص164.

4-ابن بطوطة: المرجع السابق، ص196.

5- Delafosse M, les Noirs de L'Afrique, Payote, Paris, 1922, p39.

6-خالدي: المرجع السابق، ص47.

وينتشر الماندنجو ما بين المحيط الاطلسي غربا الى منحني نهر النيجر شرقا، ويمتد جنوبا الى خط عرض 9 درجات جنوبا، تشاركه بعض القبائل الاخرى في هذا المجال الجغرافي، الا انها تمثل النصيب الاوفر منها، بين الدول التي ظهرت حديثا ومنها السنغال ومالي وغامبيا وفي الشمال حتى الصحراء المغربية، ونستطيع ان نميز بين ثلاث فروع رئيسية لقبائل الماندنجو، وهي بدورها تنقسم الى مجموعة من الفروع (الملنكي، البمبارة، الديولا) ويعود الفضل الى الماندنجو في قيام مملكة مالي[1].

_ **السوننك**: وهي احدى فروع الماندنجو، اي من الشعوب المتكلمة بلغة الماندي، وتتفرد هذه المجموعة عن بقية فروع الماندي الاخرى بصفات خاصة وتقاليد اجتماعية معينة، وتتفرع قبائل السوننك الى اقسام عدة نجد منها الديالي، الساخو، الكابا، الدوكوري، النياخاتي .Bakriال بكر Sissé السيسون، وينتشر السوننك في اجزاء واسعة من السودان الغربي ، بحيث امتدت مضاربهم من تنبكت شرقا حتى السنغال غربا، واعتنق السوننك الاسلام في وقت مبكر نتيجة امتزاجهم مع الهجرات الوافدة من الشمال الافريقي واسهموا بشكل كبير في نشر الاسلام بين القبائل والجماعات المحيطة بهم ، حتى اصبحت كلمة سوننكي مرادفة لكلمة داعية إسلامي[2].

يرتبط السوننك بزراعة الأرض كما يشتغلون بالتجارة ونتيجة لامتزاجهم بالأجناس الأخرى، عرفوا بأسماء مختلفة، فأطلق عليهم اسم سيركول او سيراكول عند الولوف، واسم ماركا عند البمبارا،

1-نبيلة حسن: المرجع السابق، ص109. انظر ايضا خالدي: المرجع السابق، ص46.

2- TRIMINGHAM, op. cit, p31.

واسوانك عند المغاربة، ونونو في مدينة جني، وال زيد في الصحراء، واسم ونجارة عند قبائل الفلاني والهوسا والسنغاي، والى السوننك يعود الفضل في قيام مملكة غانا الإسلامية[1].

ـــ قبائل التكرور: تقول رواية البكري عن التكرور انهم سودان، والتكرور من ابناء كوش بن حام بن نوح، وتكرور اسم للأرض التي يسكنونها، وقد سمي الجنس باسم البلد، ويقول الدمشقي، "ان اسم تكرور يطلق على طائفة يسكنون بلد يسمى بهذا الاسم وكلهم يرجعون الى مغراوة وسفارة"[2]. اي ان أصلهم بربر، والرواية قد تحمل شيئا من الحقيقة فهي تعبر عن الترابط والاتصال الوثيق بين البربر وبلاد السودان، وهذا الامر تؤكده الابحاث الحديثة التي تشير الى ان التكرور من أصل سوداني مختلط بالدم الابيض، واهل التكرور جميعهم مسلمون، بل انهم من اسبق الشعوب السودانية التي دخلت الاسلام[3].

والتكرور يجتمعون اساسا في فوتا السنغالية، ويسكنون على جانبي نهر السنغال[4]، وتنتشر منازلهم ايضا في انحاء من افريقيا الغربية، في مناطق كايس على السنغال الاعلى، وفي نيورو في ساحل السودان، وفي سيجو على النيجر، وفي بنجاكرة في ماسنة الشرقية، وفي دنكراي الى الشرق من فوتاجالون[5].

1-ابراهيم علي طرخان: **امبراطورية غانة الاسلامية**، القاهرة، ط1، 1970، ص 60. انظر ايضا خالدي: المرجع السابق، ص45.

2-الدمشقي شمس الدين: **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، مطبعة الاكاديمية الإمبراطورية، 1865م، ص ص267، 268.

3-نبيلة حسن: المرجع السابق، ص107.

4 -TRIMINGHAM, op. cite, p13.

5-نبيلة حسن: المرجع السابق، ص107.

وتعيش معظم قبائل التكرور اليوم في جمهورية السنغال، يقومون على الزراعة في معيشتهم ويميلون الى القتال والشدة والعنف حيث أسهموا في ثورة الحاج عمر الفوتي ضد الاستعمار الفرنسي[1].

_ قبائل الهوسا: يقع الحيز الذي يشغله الهوسا عادة، في المنطقة الممتدة من جبال العير شمالا حتى السفح الجنوبي لهضبة جوس جنوبا، ومن حدود مملكة البرنو شرقا حتى وادي النيجر غربا. والهوسا هنا هي اللغة المحلية الوحيدة المعروفة منذ زمن بعيد، ولم يكن لهذه الأرض اسم محدد، وإنما كانت تسمى كازار (قصر) هوسا فحسب، أي بلاد لغة الهوسا، كما لو كان الأمر يتعلق بإبراز أهمية هذه اللغة. لكن المنطقة التي كانت لغة الهوسا مستعملة بها باعتبارها لغة أساسية للاتصال، امتدت نحو الغرب والجنوب بفضل موجات من الهجرة.

والهوسا حاليا هي اللغة السائدة في حزام السافانا بالسودان الأوسط، وبتكلمها عدة مجموعات بشرية امتزج بعضها ببعض عبر القرون حتى انتهى بها الأمر الى اكتساب نفس الذاتية الثقافية[2].

ولكلمة (هوسا) ومشتقاتها اللغوية معان عديدة، منها (الهوس)الطوفان بالليل والطلب بجرأة، ورجل هواس وهواسة، شجاع مجرب، ومنها الهوس، الإسناد وهوس الناس هوسا وقعوا في انحلال وفساد، وفي اللغة الدارجة تعني الدوخة، فالاختلاط والاضطراب واحد من مدلولات الكلمة في اللغة العربية، وفي لغة الطوارق تعني المستقرين في البلاد شمال وشرق نهر النيجر، وقيل إن أصلها غير معروف[3].

1-خالدي: المرجع السابق، ص48.

2-م.ادامو: **تاريخ افريقيا العام، مج4**، اليونيسكو، لبنان، 1988م، ص273.

3-حسن عبد الظاهر: **الدعوة الاسلامية في غرب افريقيا**، الزهراء للأعلام، ط1، القاهرة،1991، ص60.

ويرى البعض الآخر أن كلمة هوسا مركبة من (هو) وتعني (اركب) و (سا) وتعني (ثور) اي يعني اركبوا الثيران[1]، ويطلق شعوب الهوسا هذا الاسم على بلادهم فيقولون (هوسا باكواي) وتعني في لغتهم سبعة، والمراد بها ممالك الهوسا السبع وهي: دورا، زمفرة، ورنو، كانو، كاتسينا، وزوز، وغوبير، واسم الهوسا يقصد به عندهم كل شعوب السودان الأوسط والغربي التي تتكلم لغتهم، ولذلك فهذه الكلمة تعطي مدلولا على اللغة والناس المتحدثين بها والولايات التي يتركزون بها[2].

وبذلك فالهوسا مصطلح جغرافي أكثر منه مدلول قبلي، يقصد به في لغتهم الضفة اليسرى لنهر النيجر ثم صارت هذه الكلمة ذا دلالة لغوية أكثر منها جغرافية[3].

وينتشر الهوسا حاليا في نيجيريا بوجه خاص وفي النيجر والكمرون، وتوجو وغانا وجمهورية افريقيا الوسطى ويتجاوز عددهم اثنتي عشرة مليون نسمة، واشتهر الهوسا بالذكاء والمهارة الخارقة مما اكسبهم مكانة ونفوذا بين القبائل، وهم من أكثر القبائل حرصا على نشرا الاسلام وحمايته والزود عنه، وانضوى الكثير منهم تحت لواء الطريقة التيجانية التي عملت على نشر الاسلام ومحاربة الوثنية[4].

ـ قبائل السنغاي: أطلق اسم سنغاي على جزء من وادي النيجر وعلى الشعب الذي يسكن هذه المنطقة والذي اقام بها، ويرى ترمنجهام ان لفظ سنغاي كانت تطلق على البلاد والمنطقة التي تشغل جنوب دندي، ولا يشمل ذلك السكان الذين يطلق عليهم اسم سنغاي[5].

1- المقري التلمساني: **نفح الطيب في عصر الاندلس الرطيب**، ج1، القاهرة، 1960، ص222.
2- خالدي: المرجع السابق، ص49.
3- نفســــــه: ص49.
4- شلبي: المرجع السابق ص70.

5- TRIMINGHAM. Op.cit. p8.

سكنت قبائل السنغاي حدود الغابات الاستوائية ثم اخذت تنتقل الى الشمال من نهر النيجر في القرن الاول للهجرة السابع للميلاد، وامتهنت هذه القبائل صيد الاسماك وزراعة الدخن[1]. وعرفت قبائل السنغاي الإسلام عبر الامتزاج السكاني مع هجرات القبائل الصنهاجية الوافدة من الشمال الافريقي، وهو ما يظهر في اسلام ملكهم في وقت مبكر (زاكسي) من حوالي 400هـ/1004م[2].

_ قبائل الموسي (الموشي): يشكلون نسبة كبيرة من سكان بلاد السودان الغربي، يتمركزون حول (واجادوجو) في ساحل غانا، وهم خليط من تزاوج المهاجرين، بين قبائل (الداجومبا) القادمة من الجنوب مع سكان المنطقة من فلاحي (نيوسية، كييس، غودردسن)، وتعتمد قبائل الموسي في معيشتها على زراعة الذرة الرفيعة والدخن، ولا يقومون بتربية الحيوانات الا قليلا، مع اعتمادهم على الخيول والحمير، كما انهم يزاولون مهنة الصيد وقطع الخشب[3].

تشتهر قبائل الموسي بتقديسها للأسلاف وعبادة الشمس والقمر، ويذكر عبد الرحمن السعدي ان قبائل الموسي اقامت مملكة وثنية قوية في منحنى نهر النيجر، جاورت الممالك الاسلامية في بداية القرن 10هـ/16م[4] ولم ينتشر الاسلام بين هذه القبائل حتى اواخر القرن العاشر الهجري السادس عشر

1-زبادية: **مملكة سنغاي في عهد الاسقيين (1493-1593)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1971، ص25.

2-السعدي: **تاريخ السودان**، تحقيق حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2012، ص35.

3-خالدي: المرجع السابق، ص52.

4-السعدي: المصدر السابق، ص74.

الميلادي على يد التجار المسلمين، وتشكل قبائل الموسي اليوم الغالبية العظمى لسكان جمهورية بوركينافاسو[1].

_ قبائل الولوف: تنحدر قبائل الولوف من الاهالي الاصليين لسكان الفوتا السنغالية، وترجح اغلب الروايات التاريخية ان هذه القبائل من بقايا انسان (البوشمن) القديم الذي كان يقطن هذه الاماكن في العصر الحجري، وهم شديدو السمرة، ويعيشون جماعات في اكواخ متراصة، ويمتهنون الزراعة حيث يمثل الدخن غذاؤهم الرئيسي[2]. دخلت قبائل الولوف الاسلام مبكرا على يد القبائل العربية والفلاتة وجيرانهم التكرور، وكان لهم دور بارز في نشر الاسلام في اراضيهم، وتتكلم هذه القبائل لغة الولوف وتكتب بالحرف العربي وهم يشكلون الان اغلبية سكان جمهورية السنغال ومجموعات في جمهورية غامبيا وجمهورية الغابون[3].

_قبائل البمبارا: فرع من شعوب الماندي يشغلون المنطقة الممتدة من المحيط الاطلسي وحتى منحنى نهر النيجر، وهذه التسمية مرادفة للكلمة العربية كافر، وتعني الذي رفض حكم الرب، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم (بمتة) او (بمنكة) وتعني التمساح الذي اخذته هذه الشعوب طوطما لها للعبادة.[4]

تسكن قبائل البمبارا في قرى صغيرة وعادة ما تؤلف القرية وحدة واحدة، يحكمها شخص بيده السلطة الدينية والسياسية ولاتزال هذه القبائل محتفظة بنظام السلطة الابوية، حيث ان الاب هو

1-مسعود عمر: **تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي**، منشورات جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا، 2003، ص24.

2-عبد الرحمن زكي: المرجع السابق، ص102.

3-شلبي: المرجع السابق، ص70.

4-مسعود عمر: المرجع السابق، ص ص30، 31.

السيد وجميع الابناء بمثابة عبيد له، خضعت قبائل البمبارا لسلاطين مالي ردحا من الزمن، ليستقلوا في القرن السابع عشر الميلادي، ولاتزال قبائل البمبارا تتمسك بوثنيتها الى يومنا هذا، ويقطن اغلبها في جمهورية مالي الحالية[1].

ـــ قبائل اليوروبا: يعيشون في غربي نيجيريا وفي غانا، وهم الاعلى ثقافة وتعلما بين كل القبائل الزنجية الوثنية، ويتركز اغلبها على الساحل الجنوبي لنيجيريا ويتمتع الفرد في سلوكه بقسط كبير من الحرية، يشتغلون في الزراعة والتجارة والمهن اليدوية[2].

ـــ قبائل الكانمبو او الكانوري: تسكن هذه القبائل شرق بحيرة تشاد بالسودان الاوسط اختلطوا بقبائل التيبو او التيدا وايضا بالقبائل العربية، وهم بذلك خليط من الاجناس، واشتق اسمهم من مكان اقامتهم كانم، فنقول رجل من كانم او رجل كانمي والجمع الكانميون او كانم_بو ن ويدل المقطع "**ما** "على معنى الملكية والتبعية او النسبة في صيغة المفرد والجمع "**بو**" بلغة كانم ويدعى الكانمبون او الكانمبو انهم من اصول عربية[3].

واشتهر الكانمبو او الكانوري بالنشاط الزراعي، استطاعوا بسط نفوذهم على من عداهم من العناصر الأخرى في منطقة تشاد، وهم أعظم السود نشاطا وحيوية وعملا، ويرجع لهم الفضل في الإكثار من استخدام الخيول والعناية بخيولهم حتى صاروا أشهر الفرسان في تلك المنطقة، ويشكلون

1-مسعود عمر: المرجع السابق، ص 31.

2- محمد عوض: **الشعوب والسلالات الافريقية**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965م، ص65.

3- ابراهيم علي طرخان: **امبراطورية البرنو الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب**، القاهرة، 1975، ص24.

القوة الرئيسية لمايات كانم_برنو. يشتهرون باحتقار زعمائهم ونبلائهم للأعمال اليدوية، وتحتل المرأة عندهم مكانة سامية وتتمتع بالحرية منذ طفولتها.

ومن تقاليدهم تدخل نساء الطبقة الحاكمة في شؤون الحكم والسياسة، لاسيما ام السلطان وزوجته الاولى ولذلك نجد الامراء ينتسبون الى امهاتهم، وظهر الكانوري او الكانمبو، على مسرح الاحداث التاريخية في مطلع القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي بتأسيس دولة كانم بقيادة الاسرة السيفية[1].

ونجد الى جانب الكانوري قبائل سودانية اخرى حول بحيرة تشاد منها "الكتكو" او "المكري" الذين يعيشون في جنوب برنو و"المتر" الذين يستقرون على الضفة اليسرى لنهر "ايبو" و "المنكة" الذين يستقرون شمال هذا النهر بالإضافة الى "البدة" و "الفيكة" و "المري" و"المندرة" و "السكو"[2].

_ البولالا: يتركزون في المنطقة الغربية من بحيرة فطري بالسودان الاوسط ، اصلهم من الكانمبو ،واختلط هؤلاء مع بعض القبائل الاخرى [3]، ونجد العديد من الافتراضات حول اصل البولالا ،نظرا للاختلاط والتزاوج والانصهار بين قبائل عديدة ،فمن ينظر الى ان اصلهم من الطوارق ،فكلمة "بولالا" مكونة من لفظين "بو" و "لالا" ومعناها احرار الطوارق او نبلاء الطوارق، اي انهم من الاسرة الماغومية التي حكمت مملكة كانم، وقد يكون اصلهم من العناصر التي نتجت عن مصاهرة عرب "الشوا" مع الزنوج المقيمين في المنطقة ،وهو ما قد يفسر الاصول العربية لقبائل البولالا[4].

1- طرخان ابراهيم: المرجع السابق، ص25.

2 خالدي: المرجع السابق، ص57.

3 البصيلي: حضارات السودان الشرقي والاوسط، مرجع سابق، ص435.

4- عبد الفتاح الغنيمي: **الاسلام وحضارته في وسط افريقيا _سلطنة البولالا_** مكتبة مديولي، القاهرة، 1996.ص19.

ونستخلص من ذلك ان البولالا مزيج بين قبائل الشوا العربية والقبائل الزنجية الوثنية، غلبت عليهم الصبغة الزنجية بفعل المصاهرة والاختلاط. (انظر الخريطة الصفحة الموالية)

2-2 القبائل العربية:

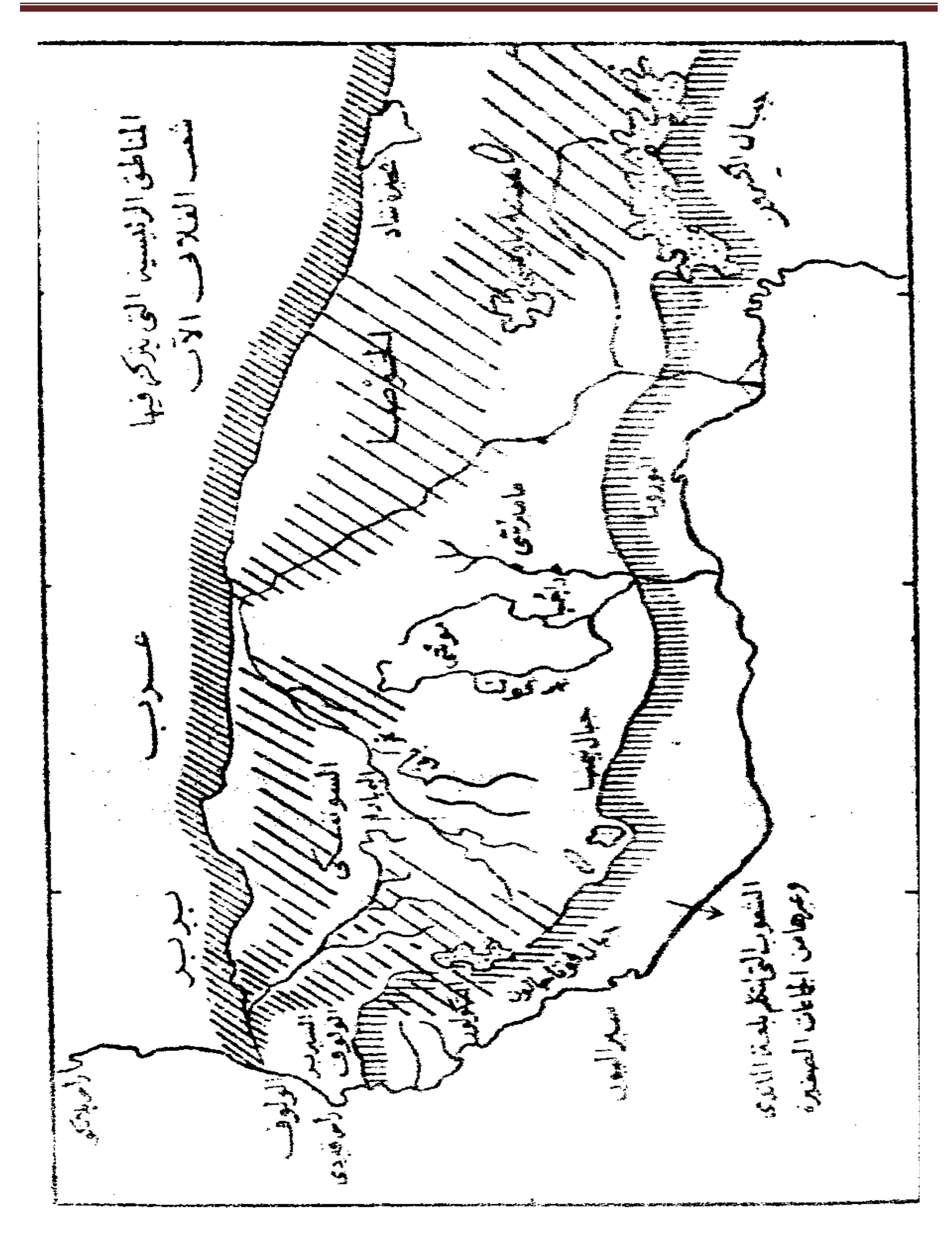
ان الصحراء الكبرى الافريقية بالمفهوم الحديث، لم تشكل يوما عائقا طبيعيا في التواصل بين ضفتيها الشمالية والجنوبية، حيث وصل العرب الى بلاد السودان الغربي والاوسط في هجرات متتالية على فترات زمنية مختلفة، وتداخلوا مع اهل هذه المناطق بالتجارة والمصاهرة، وبانتشار الاسلام ازداد عدد القبائل العربية في بلاد السودان، وتقلدوا المناصب الرفيعة والعالية في اغلب الممالك التي ظهرت الاسلامية منها والوثنية، ومن أكثر هذه القبائل تواجدا:

ـ قبائل بني حسان: بنو حسان من قبائل بني معقل، الذين دخلوا بلاد المغرب الاسلامي في إطار الهجرات الهلالية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري /الحادي عشر للميلاد، وخلال القرن الثامن للهجرة /الرابع عشر للميلاد، انتقلت مجموعات منهم الى المغرب الاقصى، كما ذكر ذلك بن خلدون، ومن هناك انتقلت الى بلاد السودان[1].

2-3 القبائل الصنهاجية:

من بين القبائل البربرية الصنهاجية التي لعبت دورا بارزا في تاريخ افريقيا جنوب الصحراء صنهاجة الجنوب او الملثمون، وهم الذين صاقبوا منطقة السودان الغربي وانتشروا في تلك الربوع، ولا يستبعد ان تكون هذه القبائل هي المسؤولة عن إزاحة السكان الأصليين، وقد انساحت هذه القبائل الصنهاجية

1-ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6، مرجع سابق، ص55.



خريطة توضح توطن بعض القبائل في بلاد السودان الغربي والاوسط.[1]

---

1 – حسن إبراهيم حسن: **انتشار الإسلام في القارة الافريقية**، مكتب الانجلو مصرية، القاهرة، ط2، 1963م، ص31.

من مواطنها في الشمال الافريقي متجهة صوب الجنوب ووصلت الى الأطراف الشمالية لموريتانيا حوالي القرن الثالث للميلاد ومنها انتشرت في الصحراء الكبرى وبلاد السودان[1].

وتوزعت هذه القبائل في الصحراء الكبرى، حيث استوطنت لمتونة شمال الصحراء، ومسوفة في الجنوب الشرقي ثم جدالة بالقرب من نهر السنغال، وقد احكمت هذه القبائل سيطرتها على هذه المنطقة متحكمة في طرق القوافل التجارية[2].

والطوارق برغم الاختلاف في تحديد نسبهم وصلتهم ببقية القبائل الصنهاجية الأخرى، فان مواقع تواجدهم وانماط عيشهم توحي بصلتهم بها، ومن الأدلة على تلك الصلة، ان الطوارق هم بقايا قبائل مسوفة الصنهاجية التي كانت تسكن تغازا[3]. ويظهر ان الطوارق ظلوا يعيشون على الأطراف الشمالية لبلاد السودان، واختلطوا بجموع القبائل الحسانية التي وفدت هجراتها المتلاحقة على المنطقة منذ القرن الثامن للهجرة، الرابع عشر للميلاد[4].

1- مطير غيث: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، المرجع السابق، ص47.

2- البكري: المصدر السابق، ص164.

3- الفشتالي عبدالعزيز: **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء**، تح عبدالكريم كريم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط1، 1977م، ص55.

4- مطير غيث: المرجع السابق، ص49.

3- وسائل انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي والاوسط.

يمثل انتشار الإسلام[1] في افريقيا جنوب الصحراء أهمية في ابراز ذلك التحول الذي عرفته المنطقة في شتى ميادينها الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية ، ونجد ان عملية نشر الإسلام وما احدث من تغييرات جوهرية كانت محل اهتمام ونقاش حاد بين الكتاب والمؤرخين وكذا المهتمين بالدراسات الافريقية ، فمنها من تحاملت على الإسلام وسبل نشره، وترى ان اغلبه كان بالسيف والاكراه ، ومنها من كان على النقيض منها والتي ابرزت سهولة ويسر انتشاره وانسيابه كنتيجة طبيعية لسماحته وعدله ،وهناك فريق آخر من المؤرخين الأوربيين المعاصرين ، والذين حاولوا إضفاء بعض الموضوعية على اراء من سبقوهم ، فانصفوا الإسلام وطرق انتشاره في جانب وشككوا في بعض الجوانب الأخرى، ولنتمكن من استجلاء هذا اللبس ومناقشة هذه الآراء والمواقف، لابد من تسليط الضوء بشكل خاص على العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام[2] .

افريقيا وبلاد السودان بشكل أخص بجميع اجزائه (الشرق، الوسط، الغرب) عرف وصول الإسلام في وقت مبكر جدا، ولعل الهجرة الأولى للمسلمين كانت باتجاه افريقيا في السنة الثانية للهجرة بعد

---

1 – دلت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة على ان الإسلام سينتشر على وجه الخليقة ولن يبقى موضع موطأ حجر او شجر الا وصله الإسلام بعز عزيز او بذل ذليل، يقول عليه الصلاة والسلام" ليبلغن هذا الامر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر الا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز او بذل ذليل عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر"[1]. ويقول تبارك وتعالى في سورة البقرة "لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي..." الآية.

2- عطية الفيتوري: **دراسات في تاريخ شرق افريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)**، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط1 ،1998، ص ص،93،94.

اشتداد وطأة كفار قريش على المسلمين بقوله عليه الصلاة والسلام (اذهبوا الى ارض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد) وبذلك تكون ارض السودان ثاني المناطق التي تذوقت طعم الإسلام بعد مكة المكرمة.

وبعد ان مكن المولى تبارك وتعالى لدينه من الانتشار في شبه الجزيرة العربية، تمكن عمرو بن العاص رضي الله عنه من فتح مصر، وفي خلافة عثمان بن عفان اذن هذا الأخير لعبد الله بن ابي سرح ان يفتح افريقية لتكون مقدمة لفتح بلاد المغرب كاملة، ولارتباط بلاد المغرب ببلاد السودان وحتى قبل وصول الإسلام كان لابد ان تتأثر هذه الأخيرة بالمؤثرات التي عرفتها بلاد المغرب، فكيف انتشر الإسلام في بلاد السودان، وماهي الطرق والوسائل التي كانت كفيلة بهذا الانتشار؟

تعددت طرق ووسائل نشر الإسلام في بلاد السودان حسب الفترة الزمنية والوسيلة المستعملة، من التجار الى الدعاة والطرق الصوفية، وحتى مساهمة اهل السودان أنفسهم في نشر الإسلام، هذا دون نسيان الدور الكبير الذي لعبه المرابطون في هذا الشأن في اقصى غرب بلاد السودان (أعالي السنغال الحالي).

3-1 الفتوحات: وصل الإسلام بلاد السودان في وقت مبكر جدا حسب اغلب الدراسات التي تناولت ذلك[1]، ولدى المؤرخين العرب المسلمين من أمثال المسعودي وابن حوقل والأصطخري وغيرهم، ولئن اجمع اغلبهم على انتشاره بالسلم فان هناك بعضا من الإشارات الى ما قام به الفاتح عقبة بن نافع الفهري فاتح افريقية، في انه ارسل حامية عسكرية الى إقليم السوس الأقصى، واخضع

1-المسعودي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1982، ج1، ص339.

المصامدة وأسلم على يده الصنهاجيون البرابرة، ووصل الى مدينة مامسة (تامسنا)، ونفيس قرب اغمات، واخضع المسوفيين، وبنى مسجدا في بلدة نفيس، وقيل انه وصل الى بلاد التكرور، الا ان هذه الرواية تحمل نوعا من المبالغة، والذي لاشك فيه ان عقبة فتح للإسلام والتجارة الطريق الى مدينة وداغشت على حدود بلاد السودان[1].

وبعد قيام دولة المرابطين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حمل الملثمون على عاتقهم مهمة نشر الإسلام في معظم مناطق أقاليم السودان الغربي خاصة بعد ان أصاب الوهن مملكة غانا، وقد تزعم الحركة الإسلامية في السودان الغربي الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي، وعبد الله بن ياسين الجزولي، الذي اتخذ له رباطا في جزيرة صغيرة في أعالي منحنى نهر النيجر، وجمع حوله حوالي ألف طالب ومعلم، ادبهم وفقههم وطعمهم برسالة الإسلام النقية، ليشرع بعد ذلك في نشر الإسلام في ربوع المنطقة[2].

3-2 الدعاة: لقد كان وصول الدعاة والمعلمين الى مناطق افريقيا جنوب الصحراء مبكرا، وقد سار هؤلاء الدعاة على الدروب نفسها التي خطتها سنابك خيول الفتح، بل وجاوزتها في كثير من المواطن ومن الإشارات التي حملت توغل الدعاة في بلاد السودان ما ذكره البكري في وصفه لمملكة غانا "وفيها فقهاء وحملة علم"[3]، وقد حظي هؤلاء الدعاة والمعلمون بكل اشكال التجلة والاحترام، نظرا

1-يحي بوعزيز: **تاريخ افريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر الى مطلع القرن العشرين**، دار البصائر، الجزائر،2008م، ص ص10،11.

2-نفســـه: ص13.

3-البكري: المصدر السابق، ص175.

للحاجة الماسة إليهم من طرف الحكام والأهالي على حد سواء[1]، وبتمكن الإسلام من عقول اهل السودان وملوكهم كوّن هؤلاء العلماء فئة خاصة حظيت برعاية الملوك الذين قدموا الهبات والعطايا الوفيرة لهؤلاء الدعاة من العقارات والأراضي والرقيق، فمن علماء السودان القاضي محمود كعت الذي وصل الى منصب المستشار الخاص للاسكيا محمد التوري، ونجد علامة بلاد المغرب والسودان الامام محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني، وغيرهم[2].

ومن هنا نجد ان الدعوة الإسلامية كانت دعوة روحية بحتة، وكان الداعي المسلم يتعقب الفاتح ليكمل النقص في تحويل الناس الى الإسلام، وقد نجح هؤلاء الرواد الأوائل في تحويل الناس الى دين الله افواجا، مما أسهم في تغيير نسيجهم الاجتماعي والسياسي وأثمر ذلك قيام مجموعة من الممالك على أساس ديني اسلامي[3].ومما ساعد أكثر على اقبال السودانيين على هذا الدين وتقبله ان هؤلاء الدعاة امتزجوا بأبناء السودان واختلطوا بهم عن طريق المصاهرة والتزاوج فانعكس ذلك على انتشاره أكثر بين غيرهم من هل السودان[4].

كان الداعية المسلم يمد القبائل الزنجية غير المسلمة بكثير من العلوم الشرعية منها والعلمية وحتى الطبية، بل يستطيع منحهم ترخيصا بالدخول في وحدة اجتماعية سياسية تتيح لهم حق الحماية

1-مطير سعد: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، المرجع السابق، ص151.

2- زبادية: **دراسة عن افريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2010م، ص130.

3-عبدالله عبدالرازق: **انتشار الإسلام في غرب افريقيا**، موسوعة الثقافة التاريخية والاثرية والحضارية، دار الفكر العربي، القاهرة،2006م، ص10.

4-جلال يحي: **تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر**، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة،2010م، ص38.

والمساعدة في البلاد الإسلامية قاطبة من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها[1]. وبالنظر للمكانة الهامة التي حظي بها هؤلاء الدعاة والفقهاء في مجتمع بلاد السودان الغربي فقد تميزوا عن غيرهم من حيث الهيئة واللباس، وهو ما يصوره لنا أحد الرحالة الجغرافيين بقوله" ان الفقهاء في بلاد السودان كانوا يتلثمون بلثام ابيض خلافا لبقية الأهالي الذين كانوا يتلثمون بلثام اسود او ازرق"[2].

3-3 التجار: ان الدور الكبير الذي لعبه التجار في نشر الإسلام ببلاد السودان لا يقل أهمية عن الدور الذي قام به الدعاة والمعلمون، حيث كان التاجر المسلم يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته، فكان هذا التاجر سرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه ونظافة ثيابه ودماثة اخلاقه فضلا عن سماحته وامانته، هذا مع الانتظام في أوقات الصلاة والعبادة التي يؤديها بانتظام، وهي كلها صفات حميدة تستميل القلوب وتفرض الاحترام لهذا التاجر الذي لا يدخر جهدا في مساعدتهم على اعتناق هذا الدين وتعلم اهم مبادئه[3].وترصد لنا المصادر التاريخية حركة التجار والقوافل التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي ودورها في نشر الإسلام فيما يلخصه ترمنجهام عن هذه الصلة الهامة بقوله "ان الإسلام والتجارة يرتبطان الى حد كبير"[4].

ويحضرنا في هذا المجال ما نقل الينا عن الظروف التي اسلم فيها برمندانا كيتا اول ملوك مملكة مالي، فيذكر البكري كيف انتابت المنطقة حالة قحط شديد وجفاف كاد يؤدي الى الهلاك التام، الا

1-حسن إبراهيم حسن: **انتشار الإسلام في القارة الافريقية**، مكتب الانجلو مصرية، القاهرة، ط2، 1963م، ص53. انظر أيضا عطية الفيتوري: المرجع السابق، ص106.

2-حسن الوزان: **وصف افريقيا**، تر محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983م، ص163.

3-عبدالله عبدالرزاق: المرجع السابق، ص11.

4-Trimingham,S, op.cit, p31.

ان احد التجار المسلمين من البربر اللمتونيين طلب من الملك برمندانا كيتا ان يلجأ الى الله داعيا بإخلاص هطول الامطار لتخليص الدولة من الجفاف (صلاة الاستسقاء)، وفي جو من الياس تبع الملك التاجر الى احد التلال القريبة وقد توضأ مثله وحاكاه في الصلاة طوال الليل والدعاء، وفي الصباح هطلت الامطار مما كان له الأثر البالغ في اسلام هذا الملك على الفور وتبعه في ذلك رعاياه من مملكته[1].

وبذلك اخذ الإسلام ينتشر بين القبائل الافريقية في منطقة الصحراء الكبرى والمراعي، ليصل في بعض الاحيان حتى سواحل المحيط الأطلسي وساحل غينيا[2]، وينقل الينا الادريسي عند كلامه عن مملكة غانا "ومدينة ملال الى غانة الكبرى نحو من اثنتي عشرة مرحلة في رمال ودماس لا ماء بها وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو (يقصد نهر النيجر) وهي اكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا واوسعها متجرا واليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها، ومن سائر بلاد المغرب الأقصى، وأهلها مسلمون"[3].

وقد ذكر الناصري السلاوي نقلا عن ابي العباس احمد الشريشي صاحب كتاب شرح المقامات الحريرية ان تجار المغرب كانوا يجتمعون في سجلماسة حاضرة بني مدرار، ثم يسيرون في قوافلهم الى غانة، فيقطعون المسافة في ثلاثة اشهر ذهابا وشهر ونصف ايابا[4]، وبذلك نتبين من هذه النصوص ان

1-حورية توفيق: **الإسلام في افريقيا وواقع المسيحية والديانة التقليدية**، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة،2002م، ص213.

2-حسن إبراهيم: المرجع السابق، ص74.

3-الادريسي: المصدر السابق، ص106.

4-حسن إبراهيم: المرجع السابق، ص75.

حجم التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي كان كبيرا جدا ومستمرا طوال الموسم مما يدل على الأهمية الاقتصادية لهذه التجارة من جهة، ومن جهة أخرى الأهمية الدينية البالغة حيث حمل هؤلاء التجار على عاتقهم نشر الإسلام في ربوع الصحراء الكبرى وبلاد السودان.

3-4 الطرق الصوفية: لعبت الطرق الصوفية دورا بارزا في نشر الإسلام في افريقيا جنوب الصحراء، ولا يقل أهمية عن سابقيه من الوسائل والعوامل، ولئن كان دور هذه الطرق متأخر ضمنيا مقارنة بمن سبقها، الا ان دورها ظل مستمرا الى فترة متأخرة في نشر الإسلام ومحاربة الوثنية من جهة ومقاومة طلائع الاستعمار من جهة أخرى. فماهي اهم هذه الطرق وأين يظهر دورها في نشر الإسلام؟

أ-الطريقة القادرية: نسبة الى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني، تأسست في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، ثاني أوسع الطرق الصوفية انتشار في غرب افريقيا، ودخلت تعاليم الطريقة الى بلاد السودان منذ القرن الخامس عشر الميلادي على يد مهاجرين من توات، واتخذوا من ولاتة مركزا اوليا للطريقة ثم توسعوا في نشر اسلوبهم وصولا الى تمبكتو، وفي مرحلة ثانية لانتشار الطريقة تمكن الشيخ محمد بن عبدالكريم المغيلي من نشر تعاليم الطريقة على نطاق أوسع في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي دائما[1].

وازدهرت الطريقة بشكل أكبر، وبأسلوب أكثر إيجابية في القرن التاسع عشر حيث انتشرت مواطنهم في أماكن كثيرة من غرب القارة في جبال الفوتاجالون وبلاد الماندنجو وعلى طول نهر جامبيا

1-يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص16. انظر أيضا، عبدالله عبدالرزاق: المرجع السابق، ص06.

وحتى في بلاد الهوسا، اين ظهرت أول حركة إصلاحية في غرب افريقيا على يد عثمان بن فودي القادري، والذي أسس دولة إسلامية ساعدت على نشر الإسلام الصحيح بين القبائل الوثنية.

وقد اعتمد دعاة القادرية على الوعظ والإرشاد، ونشر التعليم والثقافة الإسلامية بفضل مؤلفات القادريين من أمثال المغيلي والاسرة الفودية، بالإضافة الى جهودهم الكبيرة في محاربة الوثنيين، والتصدي للغزاة الأوربيين، وعليه فان الدور الصوفي لجماعات القادرية، من النماذج الإسلامية التي جعلت من الصوفية سمة حضارية وثقافية في غرب القارة، وصار دعاتها من اهم ركائز الدعوة، كما كانت الدول التي شيدوها والمدارس التي اسسوها خير شاهد على الجهد التي بذلته الطريقة القادرية في سبيل نشر الإسلام والمحافظة عليه.

ب–الطريقة التيجانية: من الفرق الصوفية التي كان لها شأن كبير في نشر الإسلام في افريقيا الغربية الطريقة التيجانية، التي انشاها أبو العباس احمد بن محمد المختار بن سلم التيجاني(1737–1815) من قرية عين ماضي بالجنوب الجزائري، الذي تنقل قبل تأسيسه لهذه الطريقة في مختلف البلاد الإسلامية حيث زار مكة والمدينة والقاهرة وتتلمذ على شيوخ الصوفية.

ج–الطريقة السنوسية: من الطرق الصوفية والحركات الجهادية التي لعبت دورا بارزا في نشر الإسلام في افريقيا جنوب الصحراء الحركة السنوسية التي اتخذت من واحة جغبوب في الصحراء الليبية مقرا لها[1]، والتي تأسست على يد العالم الجزائري محمد بن علي السنوسي[2]، امتد نطاق اتساعها من شمال

---

1 – محمد فؤاد شكري: **السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي**، القاهرة، 1948، ص99.

2 – محمد صدقي الدجاني: **الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر**، القاهرة، 1967، ص40.

افريقيا الى جنوب الصحراء حتى الكانم وبورنو ووداي، وغيرها من الممالك الإسلامية في وسط افريقيا وغربها[1].

ونجد ان انتشار الإسلام في افريقيا عامة وبلاد السودان بأقاليمه الثلاث على وجه الخصوص عرف امتدادا مستمرا لهذا الدين حتى بعد نهاية فترة هذا البحث، ولا ادل على ذلك من الحركات الجهادية التي قادها زعماء الطرق الصوفية ان ضد الاستعمار وبداياته، او لتوسيع رقعة الإسلام في هذا الفضاء ومن هؤلاء الدعاة والقادة نجد عثمان بن فودي، ساموري توري، الحاج عمر طال، وغيرهم الكثير.

حاولت في هذا الفصل تقديم صورة للبيئة الجغرافية واهم الشعوب التي قطنت المجال الجغرافي محل الدراسة والكيفية التي وصل بها الإسلام الى بلاد السودان، وبرغم كل العوائق والصعوبات طبيعية كانت ام بشرية فان الإسلام عرف انتشارا كبيرا وواسعا بين مختلف القبائل الافريقية تجسده تلك المظاهر الإسلامية المغاربية وبالأخص في مملكة سونغاي، ذلك ما سنحاول مناقشته في مباحث الفصل القادم.

---

[1] –عبدالله عبدالرازق: **التاريخ الثقافي الافريقي**، الافريقية الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2016م، ص95.

الفصل الأول

مظاهر التأثير الإسلامي والمغاربي في الحياة السياسية والاقتصادية لمملكة سونغاي ما بين 1750/1493م.

أولا: تطور الحياة السياسية في مملكة سونغاي حتى 1493م.

1-مملكة سونغاي قبل حكم الاسقيين.

2_ مملكة سونغاي في عهد الاسقيين 1493م/1591م.

ثانيا: مظاهر التأثير في الحياة السياسية.

1-نظام الحكم

2-النظم الحربية

3-القضاء

ثالثا: مظاهر التأثير في الحياة الاقتصادية.

1-الزراعة

2-الحرف

3-التجارة

أولاً: تطور الحياة السياسية في مملكة سنغاي حتى 1493:

مرت مملكة سنغاي بمراحل عدة قبل الوصول إلى قمة ازدهارها وتطورها في العقد الأخير من القرن 15 الميلادي وطوال القرن 16 حيث وحدت جزءاً كبيراً من السودان الغربي وضمت أراض واقاليم لم تشملها الممالك التي سبقتها مثل مملكتي غانا ومالي، ولزيادة الوقوف على هذا التطور سوف نتتبع تطور هذه المملكة من خلال فترتي حكم سني علي والأسكيا محمد الكبير. اعتماداً على المصادر المحلية الإفريقية والعربية وحتى الأوروبية المترجمة منها وكذا الروايات التاريخية عن سنغاي. فما هي أبرز ملامح هذا التطور؟

1-مملكة سنغاي قبل حكم الاسقيين.

1-1 مملكة سنغاي في ق 12م.

إن تاريخ سنغاي قبل عهد سني علي بر (1464-1492) غير معروف تماماً والمصادر العربية القليلة التي تحدثت عن هذه الفترة تطرح الكثير من التساؤلات أكثر مما تقدم من معلومات عن المملكة، أما الروايات المنقولة فهي توضح بعض الحقائق المنقوصة عن هذه العصور، ومن ثم فإن دراسة هذه الفترة ستكون دراسة نقدية تثير الكثير من القضايا عكس ما تقدم من حلول، وإن وجدت هذه الحلول فلا تتعدى أن تكون مجموعة فرضيات عن هذه المرحلة.[1]

1-سيتكي سودي سوكو: الصونغاي في ق12 إلى 16هـ. تاريخ إفريقيا العام ج4، المرجع السابق، ص ص199-200.

اصبحت مدينة غاو بحكم موقعها الجغرافي على نهر النيجر عاصمة دولة سنغاي الناشئة، ويقال إنها قامت على أنقاض مدينة كوكيا أو كوغا القديمة كما يسميها المؤلفون العرب[1]، وبفضل تجارة الملح، والسلع الآتية من ليبيا ومصر وإفريقية عبوراً بتادمكة، وقوافل توات والمغرب الأقصى اصبحت غاو سوقاً كبيرة مختلطة[2].

كانت المملكة الممتدة على ضفتي النيجر من دندي إلى غاو[3] تحت سيطرة "الجع" jaa أو " الزع" وهما حسب الروايات التاريخية المحلية قبيلتان من عشائر السنغاي اختلطتا بالبربر[4]. وعلى كل فالضيا Dia كان يلقب بلقب السنغاي " كنتا أو كندا" في القرن 11هـ، وكان الحديث الأكبر في ذلك الحين هو اعتناق "جع كوسوي" Kosoy Jaa الإسلام 1019م، ولا يبدو أن بقية السنغاي حذو حذوه بل ظلوا لمدة طويلة متمسكين بمعتقداتهم وممارساتهم الدينية التقليدية. وتحمل شواهد القبور التي عثر عليها في جاو أسماء إسلامية تختلف عن تلك الواردة في المصادر التاريخية، ولذلك فهي تحمل على الظن انها أسماء مستوردة من المنطقة العربية والإسلامية[5].

1- الادريسي: المصدر السابق، ص ص 12-14.

2 - زبادية: **مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين 1493-1591م**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1970، ص25.

3 - انظر الملحق رقم 01

4- السعدي: المصدر السابق، ص04.

5-سيتكي سودي سوكو: المرجع السابق، ص200.

وخلاصة القول حول أصل السنغاي هو أنهم إما من اليمن بحسب هنويك[1]Hunwick ودولافوس والسعدي أو من طرابلس الغرب حسب القرائن التي قدمها المؤرخ عبد القادر زبادية[2]، أومن فزان حسب اليعقوبي وترمنغهام[3].

1-2 حكم الماندينغ وأسرة سني (من ق13 إلى ق 15):

تذكر بعض المصادر التاريخية ان جيوش الماندينغ غزت مملكة غاو ما بين (1285-1300). وحوالي 1324م أقام المنسى كانكان موسى مسجداً في غاو عقب عودته من الحج حيث نظمت جماعات الماندينغ المنطقة الواقعة على منحى النيجر، تحت قيادة الفارين او الحكام وعملوا على تنميتها اقتصاديا، فأصبحت غاو موقفا تجاريا كبيراً وواحدة من أجل المدن السودانية[4].

كان جع غاو تابعاً لمملكة مالي، فلم يستمر حكم الماندينغ طويلاً فعمل على التحرر من مالي نظير الصعوبات التي كانت تواجهها. وعلى كل حال يبدو أن نهاية ق14 كانت هي أيضاً نهاية حكم الماندينغ في غاو وحلت محلهم أسرة جديدة هي أسرة "Sonni"، ويذكر بوبوحما Boubou Hama أن هذه الأسرة –التي لا يزال أصلها مثارا لمشكلات لم تحل-قد جاءت على حسب الروايات من كوكيه وطردت جماعات الماندينغ من غاو، وكانت جماعة السني أو السيعي أو الشبعي جماعات محاربة، وقد خرج الثلاثة الآخرون من غاو ونقلوا الحرب إلى الغرب اتجاه اقليم مسينا الغني

---

1 -Hunwick, J,O, Religion and state in the Songhay Empire, Islam in tropical Africa, Oxford, 1966, P29.

2- زبادية: المرجع السابق، ص21.

3- مطير سعد: المرجع السابق ص73.

4- نفســـه: ص 38.

من إمبراطورية مالي. وقام السني "ماداوو" أبو "السني علي" وخليفته " السني سليمان دعمه" على توسيع أراضي المملكة، وبلغت الأسرة ذروتها عام 1464م بتولي "السني علي " الحكم[1].

1-3 إمبراطورية سنغاي تحت حكم "سني على بر" (1464-1492م):

غيّر " سني على بر" نهج اسلافه في الغزو والنهب وقام بفتوحات إقليمية[2]، وجند لذلك جيشاً منظما محكما بقيادة عدد من القادة المقتدين، واشتهر بين معاصريه بأنه المحارب الذي لا يقهر، وعرف عنه أنه الساحر الكبير، وكان ينظر إليه كشخص ذو قوة خارقة وجاذبية سحرية وأطلق عليه الشعب لقب "دعالي".[3]

وسع سني مملكته خاصة باتجاه الاقليم الغربي ذو الثروة الكبرى وبالمدن النيجيرية وصولا إلى الجزء الأوسط من دلتا النيجر. مارس التقتيل والترهيب في غزواته حيث فتك بعدد كبير من الفولانيين وهاجم الطوارق واستولى على تمبكتو (سنة 1468)، ليشرع بعد ذلك في السيطرة على المناطق الخصبة الواقعة في أعالي نهر النيجر[4]، كما قام بالعديد من الحملات باتجاه المناطق الجنوبية ضد الجماعات الوثنية (الدجون والموسي والباريا)[5].

1-سيتيكي مودي سيسيكو: المرجع السابق ص203.

2- بن بطوطة: المصدر السابق، ص72.

3- دعالي: ترخيم عبارة "دعالي باسم العلي" ويظن أنها صفة يجب أن تطلق على الله. دولافوس وآخرون، المرجع السابق، ص 84.

4-باري محمد وسعيد إبراهيم: **المسلمون في غرب افريقيا**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م، ص114. انظر أيضا جميلة التكتيك: **مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير (1493-1528)**، الجماهيرية الليبية، 1998، ص44.

5-حسن علي: **تأثير الإسلام وثقافته في السودان الغربي منذ القرن الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي**، (أطروحة دكتوراه، غ م)، جامعة ام درمان الإسلامية، 2009، ص399.

وعند مصرعه سنة 1492، كان سلطانه يمتد من دندي حتى مسينا، وبذلك نظم مملكته على نمط سابقتها إمبراطورية الماندينغ واستحدث مجموعة من الأقاليم اسند زعامتها الى ملوك يحملون لقب فاري أو فارما، وعين على تمبكتو قاضيا نظير مكانتها الثقافية والدينية، وكان جميع ولاة الدولة هؤلاء يتبعون السني مباشرة.

اهتم السني علي بالجانب الاقتصادي للملكة بفعل الإصلاحات التي باشرها، وإن كان لم يفلح في محاولته حفر قناة من النيجر حتى ولاته، فقد نجح في بناء السدود بمحاذاة نهر النيجر وشجع الزراعة وقام بدعم المزارعين ماديا بهدف تشجيعهم على الانتاج.

أما من الناحية الدينية والتي أخذت حيّزاً كبيراً من الجدل لدى المؤرخين فقد واجه سني علي صعوبات كبيرة من جانب الأرستقراطية المسلمة ولا سيما في تمبكتو التي صور علماؤها على غرار السعيدي في كتاب السودان وكعت في تاريخ الفتاش في صورة ملك قاس وطاغية فاسق، فيصفه كعت بقوله"...ثم خلّف سليمان نار الظالم الفاجر والملعون المسلط سني عال وهو آخرهم ملكاً الذي سارت الرفاق بقبح سيره وكان منصوراً وما قابل أرضاً قصده إلا خربه وما كبر له جيش كان فيه قط غالباً غير مغلوب.... وهو سلطان جبار قاسي القلب"[1]، وعبد الرحمن السعدي بقوله: " وأما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سني علي ...فإنه كان ذا قوة عظيمة ومثبتة جسيمة ظالماً فاسقاً متعدياً متسلطاً سفاكاً للدماء، قتل من الخلق ما لا يحصيه إلاّ الله تعالى وتسلط على العلماء والصالحين

1- كعت محمود: **تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس**، طبع هوداس ودولافوس، باريس، 1964م، ص 43.

بالقتل والإهانة والإذلال"[1]، ووصفه المغيلي بقوله: " ... إن سني علي وجميع اعوانه وأتباعه وأنصاره لا شك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض"[2]، كما وصفه البرتلي قائلاً " بالظالم الفاجر الذي عمل في تنبكت فساداً عظيماً حيث حرقها وكسرها وقتل فيها خلقاً كثيراً"[3].

ولم تقف الأمور عند ذلك الحد بل وصفت بعض المصادر التاريخية إيمانه بأنه خليط من المفاهيم الإسلامية والموروثات الوثنية يقول محمد بلو: " ... كان من صفته أن ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين ويصوم رمضان ويتصدق كثيراً بالذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها ومع ذلك يعظم بعض الأشجار والأحجار بالذبح عندها والصدقة والنذر والتضرع وطلب قضاء حوائجه منها."[4]

إلاّ أن العديد من الدراسات التاريخية المعاصرة مثل سيسيكو مودي وكي زربو فندت هذه الآراء، وما ورد بها من وصف لشخص سني على فأنصفته من حيث تمكنه من جمع امبراطورية مترامية الأطراف، وقضى مدة حكمه فاتحاً ومحتلاً للأمصار، ولا شك أن سطوته وشجاعته بالإضافة إلى تجميعه لمختلف السلطات جعله هدفاً لمن يرفض ذلك ولا سيما الفقهاء والعلماء[5]، وبالرغم من هذا

---

1 – السعدي: المصدر السابق، ص64.

2– المغيلي محمد بن عبد الكريم: **أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي**، تح عبد القادر زيادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص39.

3– البرتلي: **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تح محمد الكتابي ومحمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981م، ص177.

4– محمد بلو: المصدر السابق، ص 275.

5– الهادي مبروك الدالي: **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1999م، ص 98.

النقد الذي تعرض له، فإن المصادر التاريخية لم تجزم بعدم إسلامه بقول السعدي: " ... ومع هذه الإساءة التي يفعل بالعلماء يقر بفضلهم ويقول: " لولا العلماء لا تحلة الدنيا ولا تطيب" ويفعل الإحسان في الآخرين..."[1] وبدوره يقر محمود كعت بأن سني علي كان ينطق بالشهادتين ويؤدي فريضة الصوم ويصلي صلاة العيد[2].

وبالعودة للنصوص التاريخية التي كتبت بحق سني على وخصوصاً من المعاصرين أن سني علي يكون قد تعرض لتشويه متعمد من قبل مؤرخي تنبكت، ومن مؤرخي سلاطين سنغاي حيث كان من مصلحتهم تشويه سمعته وتبييض صورة من جاء بعده، خاصة إذا علمنا أن مهمة كتابة ذلك التاريخ وقعت على كاهل طبقة الفقهاء نفسها التي تعرضت لجبروت سني علي، وهذا ما يفسر تحاملهم عليه وكيل المدح لخلفائه[3].

ويبرر ترمنجهام عداوة سني علي لعلماء تنبكت بسبب المكانة والحظوة التي يتمتعون بها من التقدير والتبجيل فعمد على أن يكسر شوكتهم حتى لا ينازعونه السلطة في مملكته[4]، غير ان اعتباره قد رد إليه اليوم. بما لا يترك مجالا للشك، فقد كانت أسباب معارضته للعلماء من رجال الدين دوافع سياسية، إذ كان سني علي بحكم تربيته في بلده الأم (سوكوتو) مسلماً لم يحسن إسلامه، حيث لم يهجر العبادات التقليدية لسنغاي يوماً، أما العلماء ورجال الدين فكانوا لا يكفون عن انتقاده وحتى

1 – السعدي: المصدر السابق. ص67.

2- كعت: المصدر السابق. ص 43.

3- مطير غيث: المرجع السابق. ص76.

4 - Trimingham, op.cit, P94.

تكفيره في أغلب الأوقات إلا أنه في نظر كثير من أهل سنغاي فإن سني علي يمثل رمزاً للثقافة السنغائية التقليدية أمام القوى الجديدة المتمثلة في الإسلام والتمدّن[1].

توفي سني على 1492م وخلفه في حكم سنغاي نجله المدعو أبي بكر داعو، والذي لم يكن في مستوى والده بسبب الضغوط التي مورست عليه من طرف قادة الجيوش وعلى رأسهم محمد الطوري الطامح لحكم سنغي، والتقى الاثنين في موقعة حربية قرب جاو انتهت بموت أبي بكر داعو سنة 1493م.[2] وبموته ينتهي حكم سلالة آل سني من حكم سنغي وبداية عهد جديد لأسرة حملت لقب " أسكيا "[3].

2-مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين:

انتهز "محمد الكبير التوري" عدم التزام أبو بكر داعو بالتعاليم الإسلامية فجعل من ذلك مبرراً لإقصائه، لذلك أرسل له كبار العلماء والأعيان لإشهار إسلامه أمامهم، وإعلان ولائه للإسلام ديناً ودولة[4]، وبرفض أبو بكر الاستجابة لدعوة محمد التوري، التقى به الأخير في معركة حاسمة أطاحت بحكمه وبحكم سلالته الذي استمر زهاء التسعة قرون[5]، وعلى الرغم من أن عائلة الأسكيا السوننكي لم تحكم سونغاي أكثر من قرن واحد (1493-1591) إلا أنهم وصلوا بالمملكة من حيث القوة

1- سيتيكي مودي سيسكو: المرجع السابق، ص204.

2- السعدي: المصدر السابق، ص72.

3 - جميلة التكتيك: المرجع السابق، ص46.

4- كعت: المصدر السابق، ص 53-54.

5- جميلة التكتيك: المرجع السابق، ص47.

والتوسع إلى الحد الذي لم تصله أي عائلة حاكمة أخرى لا قبلهم ولا من بعدهم وقد توالى على كرسي الإمبراطورية في هذه الفترة تسعة ملوك[1].

2-1-استيلاء الأسكيا محمد الكبير على الحكم:

أشرنا سلفا الى ان ابوبكر داعو خليفة سني على لم يرق الى مكانة والده في الحكم، لا من حيث الحنكة السياسية ولا الإدارية، مما أدى الى سقوط حكمه تحت ضربات خصمه الاسكيا التوري، ويصور لنا السعدي كيفية وصول هذا الاخير الى الحكم بقوله" وكان محمد بن ابي بكر الطوري وقيل السننكي من كبار قادة سني علي، فلما بلغه ذلك الخبر أضمر في نفسه الخلافة وتحيل في ذلك بأمور كثيرة فلما فرغ من ابرام حبل تلك الحيل توجه اليه فيمن كان معه من خواصه فغار عليه في البلد المذكور. فانهزم جيشه وولى هاربا حتى وصل قرية أنكع وهي بقرب كاغ[جاو] فوقف هنالك حتى جمع عليه جيشه ثم التقى معه فيها يوم الاثنين رابع عشر من جمادى الأخرى فجرى بينهما حرب شديد وقتال عنيف ومعركة هائلة حتى كادوا يتفانون ثم نصر الله تعالى ...محمد بن ابي بكر وهرب سني أبو بكر داعو الى أين فبقي هنالك الى ان توفي..."[2].

اتخذ القائد محمد التوري لنفسه لقب الاسكيا ليكون صفة مميزة لحكمه وحكم سلالته، ويشير السعدي دائما الى سبب هذه التسمية بقوله "ولما بلغ الخبر بنات سني علي قالت أسكيا معناه في كلامهم لا يكون إياه، فلما سمعه امر ان لا يلقب الا به فقالوا أسكيا..."[3]، ومن هنا جاءت لفظة

1- زبادية عبد القادر: سنغاي في عهد الاسيقيين 1493-1591، المرجع السابق، ص 31.

2- السعدي: المصدر السابق، ص ص71،72.

3- نفســــه: ص72.

الاسكيا التي تعني المغتصب، لاغتصابه السلطة من ابي بكر داعو، وبذلك اشتهرت اسرته الحاكمة بهذا اللقب[1]، اما عن اصل الاسكيا محمد الكبير، فقد اختلفت الروايات في ذلك فيذكر الوفراني" إن آل اسكية اصلهم من صنهاجة وملكوا كثيرا من بلاد السودان، وأول ملوكها الحاج محمد سكية"[2]، في حين يرجح كعت وزاهر رياض أصله الى السوننك[3]، ومن طريق آخر ذهب المغيلي الى ان الاسكيا محمد الكبير سوداني الأصل من قبيلة سراكوليا هاجر اجداده من الجنوب الموريتاني الحالي، حينما اضطربت الأمور في مملكة غانا الوثنية عند نهاية القرن الحادي عشر الميلادي واستقروا حول نهر النيجر الأوسط، حيث تصاهروا وانصهروا في قبيلة سنغاي[4].

ويرى عبدالقادر زبادية ان السبب في الترحاب الذي حظي به محمد التوري للسلطة يرجع الى كونه من أصول سودانية، بينما كانت اسرة سني علي من أصول امازيغية طرابلسية، الا انه وبالرغم من أهمية هذا الأصل التاريخي فان أصول اسرة سني علي تمتد جذورها الى تسعة قرون أي منذ القرن السابع الميلادي وحتى نهاية القرن الخامس عشر وهي فترة كافية لتجعل منها اسرة سودانية تبعا لعاملي البيئة والزمن[5].

1-رياض زاهر: **الممالك الإسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى**، القاهرة، مكتبة الانجلو مصرية، ط1، 1968م، ص137.

2-الوفراني: **نزهة الحادي في اخبار ملوك القرن الحادي**، ط2، الرباط، مكتبة الطالب، 1988م، ص89.

3-رياض زاهر: المرجع السابق، ص137.

4-المغيلي: المصدر السابق، ص10.

5-جميلة التكتيك: المرجع السابق، ص49.

اشتهر الاسكيا محمد الكبير بالورع والتقوى وحبه للعلماء، مع سعيه لنشر الإسلام فاحدث وصوله للسلطة صدىً واسعا في أوساط العناصر المسلمة في كامل السودان الغربي، وفي هذا الصدد يذكر صاحب كتاب الفتاش "... ومنّ الله علينا بأن اظهر لنا في زماننا هذا الإمام الصالح الخليفة العادل والسلطان الغالب والمنصور القائم أسكيا الحاج محمد بن ابي بكر التوري أصلا الكوكوي داراً ومسكناً فأنار لنا الهدى بعد ظلم الدجى واماط عنا بعد الجبن والردى فانفسح له بحمد الله البلدان شرقا وغربا وتداعت له الوفود فردا وجمعا فأذعنت له الملوك كرها وطوعا فصرنا من بركاته بخير ونعمى بعد ما كنا في ضيق بوسا فبدل الله تعالى ذلك بفضله.."[1].

حين تولى الاسكيا محمد الكبير الحكم كان يتجاوز الخمسين سنة من العمر، وكان ولده يلقب ب "اورلوم" ينحدر من منطقة فوتا تورو، ومن المحتمل اشتقاق لقب تورى الذي حمله الاسكيا من تلك المنطقة التي انتمى اليها والده، غير ان ترمنجهام يورد ان توري في لغة السوننكي تعني "الفيل"[2].

ومما تجدر الإشارة اليه ان الاسكيا محمد الكبير لم تستتب له الأمور ولم يوطد اركان حكمه الا بعد عودته من رحلته الحجية المشهورة والتي قام بها عام 1496م[3]، وقد شهد عهد الاسكيا محد الكبير 1493-1528م، اقصى اتساع لمملكة سونغاي وأرقى فترات ازدهارها، ويعود ذلك بالدرجة

1- كعت: المصدر السابق، ص ص10،11.

2- Trimingham, op cit, p95.

3- جميلة التكتيك: المرجع السابق، ص50.

الأولى الى القدرات الإدارية والكفاءات العسكرية والسياسية، ناهيك عن الالتزام الروحي والديني الذي عرف به الاسكيا محمد التوري مقارنة بأسلافه ومعاصريه من ملوك بلاد السودان[1].

قضى الاسكيا محمد الكبير سبعة وثلاثين سنة في الحكم، وبعد مرضه وفقدان بصره لم يعد مؤهلا لإدارة شؤون المملكة، ففوض الامر في الانابة عنه لخادمه "على فلن" وهو الاجراء الذي لم يرق لأبنائه واثار حفيظتهم وحنقهم عليه وبالأخص ابنه الأكبر موسى الذي أقدم على عزل والده وأجبره على التنازل عن العرش وقام بنفيه الى جزيرة نائية في نهر النيجر وبذلك تمكن الاسكيا موسى من اعتلاء عرش سونغاي[2].

2-2 خلفاء الاسكيا محمد التوري:

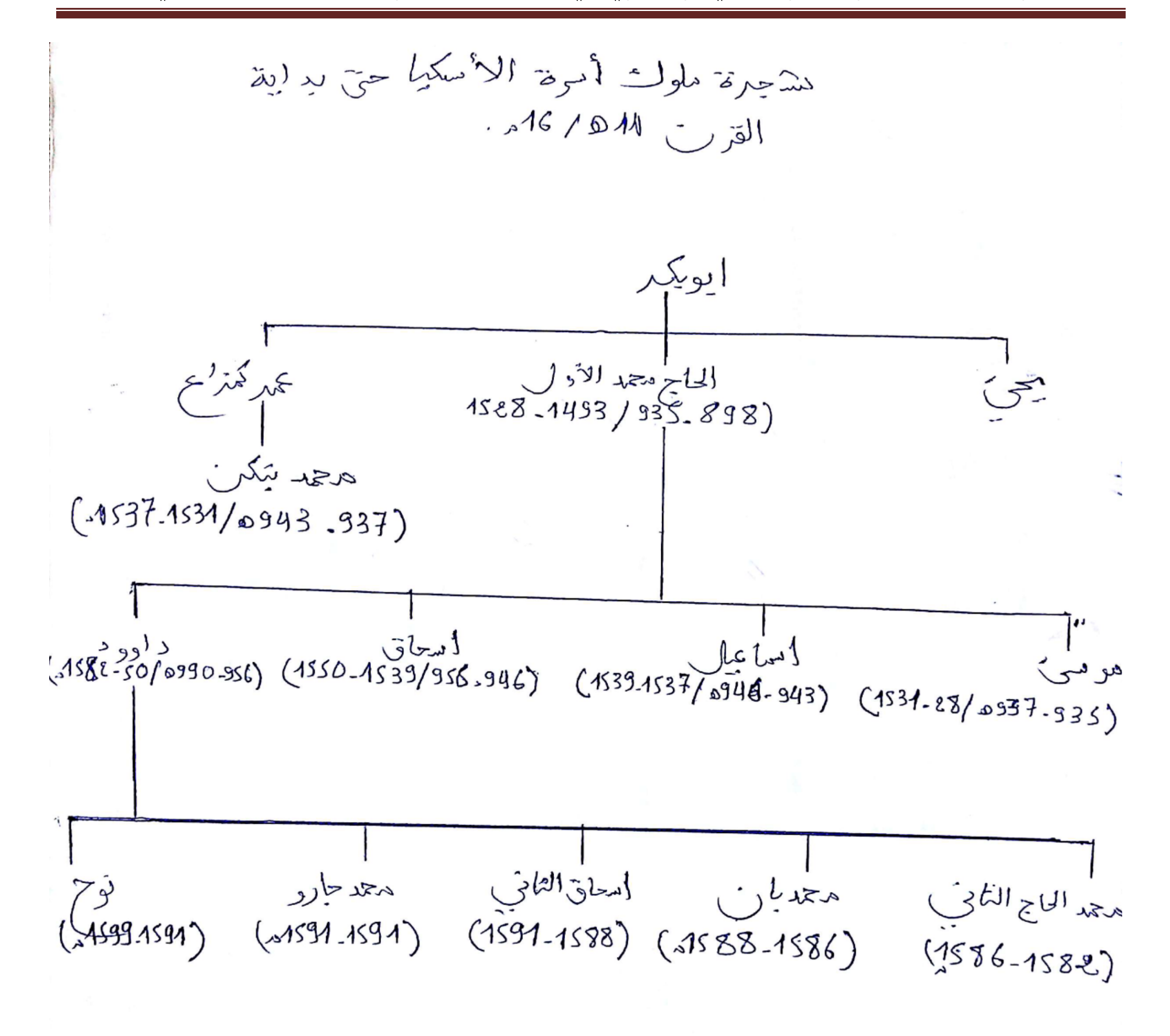
تولى الحكم بعد الاسكيا محمد الكبير تسعة من الملوك ما بين (1528-1591م) (انظر الشكل الصفحة الموالية)، دخلت المملكة خلالها في عصر من المؤامرات الخارجية والصراعات الداخلية بين خلفاء الاسكيا الأوائل، حتى مجيء الاسكيا إسحاق الأول(1593-1549م) الذي عرف بشجاعته العسكرية وبقوة جيوشه بالإضافة لتنظيمه الكبير لأقاليم المملكة، مع اهتمامه بالقضاء مقارنة مع غيره من الاساكي[3].

---

1 -الأمين عوض الله: **العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطتين الاسلاميتين مالي وسنغي**، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة القاهرة، دار المجمع العلمي بجدة، ط1، 1979، ص69.

2-أسماء احمد الأحمر: **الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية(1464-1591م)**، الجامعة المغاربية، طرابلس، ط1 2008م، ص174.

3-كعت: المصدر السابق، ص ص89،90.



الشكل يمثل ملوك سنغاي في عهد الاسيقيين[1]

1 – من انجاز الباحث اعتمادا على، بنرمضان زوليخة: المرجع السابق، ص133.

وبعد وفاته تولى مقاليد الحكم اخيه الاسكيا داوود (1549-1582م) الذي يأتي في الترتيب الثاني بعد الاسكيا التوري من حيث الكفاءة الإدارية والحنكة السياسية والقوة العسكرية، والذي أعاد للمملكة الكثير من بريقها وازدهارها الذي عرفته في فترة حكم محمد التوري، حيث عُني بتنظيم الإدارة وحسن التدبير ويعدُ اول من انشأ خزينة للأموال في بلاد سنغاي[1]، ويذكر كعت ان الاسكيا داوود كان حريصا على الانفاق بسخاء على المحتاجين والفقراء، كما كان حريصا على توفير الامن لرعيته[2]، وتمكن من ربط علاقات طيبة مع جيرانه من الطوارق شمال تمبكتو، ومهادنة الدولة السعدية برغم استيلاء الأخيرة على ممالح عدوة تغازة[3].

بعد وفاة الاسكيا داوود تولى الحكم بعده ثلاثة من الملوك حتى سقوط سنغاي في يد السعديين وهم على التوالي الاسكيا محمد بن داوود (1582-1586م)، الاسكيا محمد بان(1586-1588م) الاسكيا إسحاق الثاني (1588-1591م). هذا الأخير سقطت المملكة في عهده تحت الغزو المراكشي الذي أنهي عهد الاساكي[4].

ولعل ما يهمنا من استعراض هذا السرد التاريخي الموجز لسلاطين المملكة هو الوقوف على مدى التأثير الإسلامي والمغاربي في مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية للمملكة ذلك ما سنحاول ابرازه في باقي مباحث هذا الفصل.

1-أسماء احمد الأحمر: المرجع السابق، ص181.

2-كعت: المصدر السابق، ص108.

3-زبادية: المرجع السابق، ص46.

4-أسماء احمد الأحمر: المرجع السابق، 190.

ثانيا: ملامح التأثير في الحياة السياسية:

إن دخول الاسلام واللغة العربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء حمل معه كل مظاهر التطور والحداثة التي عرفها المغاربة والمسلمون في العصور الوسطى وبداية الفترة الحديثة، فلا نكاد نقف عند مظهر من المظاهر السياسية الا ونلمس فيه وصفة عربية قريبة كانت او بعيدة مباشرة او غير مباشرة من نظم الحكم المعتمدة في بلاد المغرب ومصر، وما يعضد ذلك أكثر ويؤكده تلك الاتفاقيات والمعاهدات التي كانت تربط بين البلاد العربية وإفريقيا جنوب الصحراء، بل الأكثر من ذلك ان تم اعتماد وثيقة المغيلي وفتواه في أمور السياسة منهجاً اتخذه العديد من ملوك بلاد السودان خاصة الأسكيا محمد الكبير ومن جاء بعده. فاين تتجسد ملامح التأثير الأخرى السياسية؟

1- **نظام الحكم**: إن التأثير الإسلامي المغاربي على الحياة السياسية في بلاد السودان الغربي تعود إلى البدايات الأولى لدخول الإسلام وقد بدا ذلك واضحاً فيما سجله البكري منذ القرن 05هـ/11م، حيث لاحظ أن معظم مترجمي ملوك السودان وموظفيهم في بيت المال والوزراء كانوا من المغاربة المسلمين[1]، ولا شك أن مصاهرة المغاربة للقبائل السودانية من جهة وما اتصفوا به من صدق الأمانة وحسن المعاشرة من جهة أخرى بالإضافة إلى رفضهم لنظام الوراثة عن طريق الأم الذي كان سائداً لدى السودانيين آنذاك، كل ذلك اكسبهم ثقة ملوك بلاد السودان مما انعكس على علو كعبهم ومكانتهم، الأمر الذي سمح لهم بتقلد مناصب عليا كالفتوى والقضاء والديوان والاستشارة[2].

1- البكري: المصدر السابق، ص 175.

2- مطير سعد: المرجع السابق، ص 308.

لقد عرفت بلاد السودان الغربي انماط حكم متعددة امتزج فيها النمط الإفريقي بالأنماط العربية والمغاربية الإسلامية، وكان نظام الحكم في سنغاي على الأغلب وراثياً، وفي احيان قليلة جداً لا يسير اختبار الملك وفق القواعد المعروفة، مثلما حدث في فترة حكم اسحاق الذي قام بتولية نجله ولياً لعهده، إلا أن أهالي سنغاي رفضوا ذلك ونصبوا الأسكيا داوود بديلاً عنه[1]، وقد اعتاد ملوك سنغاي بتكليف من ينوب عنهم في رحلاتهم وسفرياتهم الطويلة خاصة ما فعله الأسكيا محمد الأول الذي عهد إلى أخيه عمر كمزاغ بتولي مقاليد الأمور في المملكة أثناء غيابه في رحلته المشهورة إلى الحج[2].

ومن المظاهر الإسلامية السائدة التي عمل حكام سنغاي على تطبيقها مبدأ الشورى استناداً لقوله تعالى: " وأمرهم شورى بينهم"[3]، حيث أنشأ الأسقيا محمد الكبير مجلساً للشورى يضم الوزراء وحكام الأقاليم لمناقشة أمور مملكته[4]. وتبعه في ذلك الأسقيا داوود الذي اتخذ بدوره مجلساً للشورى ضم كبار العلماء وحكام الأقاليم، وكان من عادته سؤال حاشيته ومستشاريه –حسب كعت–عما ينبغي فعله في الأمور المشكلة ويلتزم بما يشيرون عليه به وكان أكثر جوابه معهم " سمعنا وأطعنا"[5].

لقد حرص حكام السودان الغربي عموماً والسنغاي خصوصاً على التشبه بالملوك والأمراء في تصميم قصورهم وقاعات الاستقبال التي عادة ما كان يلحق بها قاعة كبيرة يجلس فيها الملك الى

1- كعت: المرجع السابق، 93.

2-زبادية: سونغاي في عهد الأسيقيين، المرجع السابق، ص38.

3- الشورى: الآية 38.

4- السعدي: المرجع السابق، 139.

5- كعت: المرجع السابق، ص11.

جانب ضيوفه وكانوا يطلقون عليها "المشور"[1]، والمشور لفظة عربية مأخوذة من المشورة أو الشورى، وعن مراسيم تنصيب الملك فقد كان يخضع لطقوس معقدة بعضها من الأساطير الإفريقية وأخرى من عادات العرب والمسلمين[2].

تبدأ مراسيم الاحتفال باستقبال ولاة الأقاليم وكبار الموظفين وقادة الجيوش في قصر الملك ثم يجلس السلطان عل سرير العرش حيث تطلق أصوات الطبول، وتقدم إليه شارات السلطنة المكونة من قميص مزركش ولباس على الرأس شبيه بالتاج بالإضافة الى العمامة الخضراء والسيف والبردة، ليقوم السلطان بعد ذلك بمصافحة اغضاء جهازه الإداري وقائد جيشه ويصلي في المسجد، ليتلقى بعد ذلك يمين الطاعة والولاء من قبل كبار الموظفين وأفراد العائلة الحاكمة، ويتم ذلك القسم أمام القاضي والعلماء ويضع الذي يقسم باليمين يده على المصحف الشريف[3].

عادة ما يتم تنصيب الملك في القصر بحضور ضاربي الطبول، ويبدو أن هذا التقليد حسب كعت أخذه ملوك سنغاي عن نظرائهم من ملوك البلاد الاسلامية حيث قُلّد الأسكيا محمد الكبير من الخليفة العباسي أثناء رحلته إلى الحج 902هـ/1496م[4].

يحتفل سكان سونغاي بحفلات الطرب الساهرة في يوم تنصيب الملك الجديد وفي اليوم الموالي يباشر الملك الجديد مهامه، ويبدأها بتوزيع الصدقات عل الفقراء والمساكين[5].

1- المشور: فناء خارج القصر ولا بد للداخل للقصر أن يمر به. انظر: مطير سعد غيث: المرجع السابق، ص311.

2 – زبادية: المرجع السابق، ص62.

3- نفســـــــه، ص63.

4- كعت: المصدر السابق، ص 01

5-مطير سعد: الثقافة العربية الاسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، المرجع السابق، ص313.

1-1 الديوان: عمل ملوك السودان الغربي على تسجيل سيرهم حتى تكون خلفاً لمنهج يتبعه من يعقبهم أو يخلفهم من ابنائهم وذويهم وأيضاً تماشيا واقتداء بما عرفه ملوك العرب والمسلمين قبل حيث ان نجد الأسقيا محمد الأول قد ندب القاضي محمود كعت للقيام بمهمة تسجيل حياته وجهاده في سبيل نشر الإسلام والمعرفة، وقد ضمن كعت ذلك في مؤلفه "تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ووقائع التكرور وعظائم الأمور وتعريف انساب العبيد من الأحرار"[1].

إن كعت لم يكن الوحيد الذي ارّخ لتاريخ سنغاي وملوكها بل اعقبه في ذلك السعدي والذي حمل عنوان مؤلّفه "تاريخ السودان" دوّن فيه مشاهداته وما عايشه في بلاط الاساكي وكتب عن حملاتهم الجهادية ضد القرى الوثنية، وبالأخص فترة ملازمته للباشوات اللارما في رحلاتهم المختلفة[2].

لم يتغير الوضع السياسي لنظام الأساكي كثيراً بقدوم الباشوات المغاربة، حيث حافظ هؤلاء على نفس عادات وتقاليد مملكة سونغاي السياسية، والتي من بينها استمرار تنصيب الأسقيا برغم عدم فاعليته كونه تحول إلى منصب شرفي، كمن يملك ولا يحكم. وقد حرص الباشوات المغاربة منذ دخولهم لبلاد السودان 1591م على استمرار الأساكي في مناصبهم، وهو ما يظهر في تنصيب الباشا محمود بن زرقون للأسكيا هارون بن داود[3].

1- كعت: المصدر السابق. ص 01.

2- السعدي: المرجع السابق. ص 286.

3- مجهول: **تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان**، نشر هوداس، 1966م، ص 181. انظر أيضاً الأرواني: **السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية**، تح الهادي مبروك الدالي، تق عبدالله الهرامة، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط1، 2001م ص10.

ولقد استمر الأساكي في تنبكت يزاولون مهامهم كملوك لسنغاي، وقد ذكر منهم صاحب تذكرة النسيان 16 ملكاً حتى 1161هـ/1748م، واستمرت معهم مظاهر البلاط في القصر فمنزل الأسقيا يحظى بمكانة هامة ولا يدخله الزوار إلا بإذن الملك ويحتوي هذا الأخير على قاعة للمؤتمرات وأخرى للضيوف والحفلات[1]. لقد بدا التأثير واضحاً بعد سنة 1591م، فملابس الأسقيا تغيرت وأصبحت قريبة إلى اللباس المغربي وأصبح القفطان والمنصورية (نسبة إلى المنصور السعدي)، عادة لباس الأساكي ويصنعها خياط تمبكتو، أما لباس أبناء الأسكيا فهي شبيهة جداً بلباس ضباط الجيش المغربي[2].

وبذلك نتوصل إلى أنه وبرغم محافظة الأساكي على نظامهم السياسي وهيكلتهم الادارية إلا أننا نلمس التأثير المغربي واضحا جداً في عديد المجالات وخاصة منها السياسية حتى وإن كان الأسكيا مجرد شخص أو رمز للنظام البائد، فالأسكيا يملك ولا يحكم فهو مجرد أداة في أيدي الباشوات المغاربة حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي.

1-2 الإدارة:

عرف التنظيم الإداري لسنغاي تطورا هاما، بوصول الأسكيا محمد الكبير لمقاليد الحكم، وكان من المعروف في السابق عن عادة ملوك السودان –قبل الأسكيا محمد الكبير–أن يحتفظوا بأبناء الأقاليم التي يستولون عليها كرهائن، إلا أنه وبتولي الحكم هذا الاخير قام بإلغاء طريقة الرهن هذه وأنشأ نيابة

1- مطير غيث: لمرجع السابق. ص 315.

2- أحمد فتوح عابدين: **الحواضر الإسلامية في غرب افريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، تاريخها السياسي والحضاري والاقتصادي**، رسالة دكتوراه، غ م، معهد الدراسات الافريقية، جامعة القاهرة، 1989، ص 189.

للملك في تندرم[1]، عهد بها إلى أخيه "كمزاغ"، وربما يعود ذلك لدواع استراتيجية حيث أن العاصمة جاو تقع في الطرف الشرقي من المملكة أما تندرم فتقع في مكان استراتيجي يمكنها من الإشراف عل جميع أقاليم المملكة[2].

ولعل ذلك ما تبناه في مختلف الأقاليم الأخرى القريبة والبعيدة في المملكة، حيث سعى إلى وضع مشرف على شؤون كل قبيلة لقبه "كوري فاريما"، إضافة إلى حاكم عام للمدينة مهمته التعامل مع الأهالي والقضاة عل حل مشاكل المدينة ومراقبة الأسواق[3]، ويظهر من خلال النظم التي اعتمدها الأسكيا الأول أنه تأثر كثيراً بالنظم السياسية الإسلامية في المشرق عل عهد الفترة المزدهرة للعالم الإسلامي خاصة بعد عودته من رحلة الحج[4].

لقد نقلت الينا العديد من المصادر التاريخية السودانية قوة التنظيم الإداري الذي أقامه الأسكيا الأول وهو ما انعكس بدوره على الاستقرار السياسي للملكة وحب الرعية له، يذكر كعت في هذا الصدد " وله من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده..."[5]، ويقول أيضاً: " أن الأسكيا محمد يصلح حتى لحكم دولة بني العباس وكل

1- تندرم: أو تندرمة أو تندرما، تندريما، وكتبها صاحب تاريخ الفتاش تندرم أو تندرمة، وهي إلى الغرب من نهر النيجر عاصمة إقليم كورما. انظر كعت: المصدر السابق، ص ص62-64.

2- الدالي مبروك: التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1999م ص114، انظر أيضاً أحمد فتوح عابدين: المرجع السابق، ص 166.

3- مطير سعد غيث: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي، المرجع السابق، ص 329. انظر أيضاً أحمد عابدين: المرجع السابق، ص 166.

4- كعت: المصدر السابق، صص11-12. انظر أيضاً السعدي: المصدر السابق، ص07.

5- كعت: المصدر السابق، ص11.

دولة أخرى غيرها"[1]، لا شك ان هذا الوصف يحمل من المبالغة ما لا يمكن لباحث في تاريخ المنطقة ان يأخذ به ، الا انه يمكننا الاستفادة منه في المكانة التي حظي بها الاسكيا محمد الكبير مقارنة بمن كان قبله، ويذكر الوفراني واصفاً الأسكيا محمد الكبير:" ..فرجع إلى السودان فنصر السنة وأحيا طريق العدل وجرى على منهاج الخليفة العباسي في مقعده وملبسه، ومال للسيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الأحوال"[2].

إن التنظيم الإداري الذي أقامه الأسكيا محمد الكبير ومن خلفه من بعده من ملوك سونغاي قضى ضمنيا على السلطة القبلية وقضى على كل دعوة إلى الانفصال والتجزئة والتقسيم وحافظ على الوحدة الجغرافية للمملكة في أقصى اتساع لها خلال القرن السادس عشر الميلادي.

1-3 أقاليم المملكة:

قسم الأساكي مملكتهم إلى ولايات تخضع للإشراف المباشر إلى السلطة المركزية في عاصمة المملكة جاو، وعين على رأس كل ولاية والياً أو حاكماً اختارهم الأسكيا محمد الأول من اقربائه وصحبه المخلصين، وقد تبنى الأساكي نفس النهج في اختيار الولاة بعد وفاة الأسكيا محمد الكبير[3]، ومن الولايات المعتمدة نجد:

أ- ولاية كورما غربي نهر النيجر

ب- ولاية يالاما في الجنوب الغربي من المملكة على حدود بلاد الموسي

1- كعت: المصدر السابق، ص22.

2- الافراني: المصدر السابق، ص90.

3- زبادية: سونغاي في عهد الأسيقيين، المرجع السابق، ص134.

ت- ولاية دندي إلى الجنوب من كوكبا وقاعدتها جوجيا

ث- ولاية بادجو وتقع حول بحيرة دبو

ج- ولاية هاريباندا وتقع على ضفة نهر النيجر اليمنى إلى الشرق من جاو وقاعدتها كوكبا

ح- ولاية النهر وقاعدتها جاو وكان يشرف عليها قائد الأسطول وتسمى وظيفته اداري كوى.[1]

خ- ولاية قندام وتقع إلى الغرب من مدينة تنبكت.[2]

د- ولاية فر كان حاكمها كسور بن موسى وهو أحد أعيان الأسكيا الأكبر.[3]

ذ- ولاية تنبكت مركزها مدينة تنبكت الشهيرة ويميزها موقعها على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى فيما يعرف بمنحى نهر النيجر. لذا أصبحت مركزا إدارياً وتجارياً هاماً.

ر- ولاية أقادس على الحدود الشمالية الشرقية من سونغاي.

ز- جنـــي تقع إلى الجنوب الغربي من تنبكت وكان مركزها الإداري مدينة جني.[4]

مع سقوط الأساكي ومجيء الباشوات المغاربة واتخاذهم من تنبكت عاصمة اقتصادية وسياسية لهم قاموا بإعادة هيكلة التنظيم الإداري للملكة، ولعل اتخاذ الباشوات المغاربة من تنبكت عاصمة لهم يعود لإبعاد العاصمة عن الحروب الدائرة ضد الممالك الوثنية القريبة من جاو في الجنوب، إضافة الى التعامل الاقتصادي والثقافي الذي جعل من تنبكتو شارة للعلم ومهوى للتجار من مختلف الأقطار،

1- كعت: المصدر السابق، ص100. انظر أيضاً زبادية: المرجع السابق، ص 31.

2- الدالي مبروك: التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص117.

3- كعت: المصدر السابق، ص65.

4 -زبادية: المرجع السابق، ص31.

وقسم الباشوات السودان الغربي إلى عدة أقاليم اهمها:

- إقليم تنبكت: ويشمل الأقاليم القريبة من تنبكت والمحيطة بها وتمتد حدود الأقاليم الى الضفة اليسرى لنهر النيجر، ويتولى المسؤولية فيه حاكم أو عامل مهمته إقرار الأمن وجمع الخراج.[1]

- إقليم جني: يقع الى الجنوب من إقليم تنبكت، ويعد من أكبر الأقاليم مساحة ويمتد من بحيرة ديو في الشمال الى أرض المحمدية في الجنوب.[2]

- إقليم رأس الماء: يقع بين تنبكت وجيني باتجاه الشمال الغربي وقاعدته قرية رأس الماء وقد بنى أول عامل للإقليم ابن داوود قصبة في القرية. وأقام الحركة في المدن المجاورة التابعة له.[3]

- إقليم ديرما: جنوب رأس الماء وحدوده الشرقية الضيقة لنهر النيجر.[4]

- إقليم يامبا: إلى الشرق من إقليم تنبكت. وللإقليم أهمية عسكرية وسياسية لإشرافه على الطريق البحري والنهري المتجهين نحو الشرق. وقد بنى بها الباشا محمود بن زرقون القصبة المشهورة.[5]

- إقليم جاو: يشمل مدينة جاو وضواحيها. كانت العاصمة السياسية في فترة حكم الأساكي فقدت أهميتها بعد سقوط سونغاي.

- إقليم كورما: على الضفة اليمنى لنهر النيجر الى القرب من جاو، وهو من أهم الولايات في فترة حكم الأساكي واحتفظ بأهميته العسكرية والسياسية[1].

1- مجهول: تذكرة النسيان، ص 143.

2- مطير غيث: المرجع السابق، ص 333.

3- السعدي: المصدر السابق، ص165.

4- مطير سعد: المرجع السابق، ص333.

5- نفسه، ص 133.

2-النظـــــــــم الحربيـــــــــة:

عرفت بلاد السودان الغربي ومملكة سونغاي على الخصوص تطوراً هاماً في تنظيم الجيش وتكوينه لتواكب بذلك التطور الذي عرفته الجيوش الإسلامية في شمال القارة وبلاد المغرب، هذا بالإضافة إلى الضرورة التي تفرضها حدود المملكة وامتدادها إلى نطاق الغابات الاستوائية حيث لا تزال الوثنية ضاربة في اطناب تلك الشعوب والممالك.

2-1الجيــــــــــش:

شهد النظام الحربي في مملكة سونغاي منذ تولي الأسكيا محمد الكبير الحكم أوائل القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد تغييراً جذرياً، فلم تكن تعرف المملكة قبل ذلك جيشا نظامياً فانتقل بذلك جيش المتطوعين إلى جيش دائم، وتم تقسيمه إلى أقسام حسب الأسلحة التي كان يستعملها ووضع لكل فرقة نظامها الخاص فالمشاة[2]، كانوا يتقدمون الصفوف في حين يكوّن الفرسان الصف الثاني، أما الخيالة فموقعهم في مؤخرة الجيش دوماً، أما المساعدون والمتطوعون فيتمركزون على الجوانب.

جمع الأسقيا محمد الكبير بين السلطة المدنية والعسكرية، فقد اخضع الجيش بعد تنظيمه إلى اشرافه المباشر، وجعل الإشراف على فصائل الجيش في الأقاليم تحت سلطة الولاة أما ضباط تلك الفصائل فهم خاضعون لتوجيهات الوالي وملزمون بتنفيذ أوامره[3].

1- احمد عابدين: المرجع السابق، ص177.

2- زبادية: سنغاي في عهد الأسيقيين، ص66.

3- زبادية: المرجع السابق، ص66.

استمر جيش سنغاي على الصورة التي نظمه بمقتضاها الحاج محمد الكبير، وازداد اكثر تنظيماً وتأثراً بالجيوش المغاربية على عهد الأسقيا موسى، وقد يتساءل البعض كيف لهذا الجيش القوي المنظم أن ينهزم ويتراجع عند أول حملة مغربية على بلاد السودان، فإن المؤرخ زبادية يرجع ذلك في الأساس إلى ضعف الملوك الاساقي المتأخرين وعدم اهتمامهم في تقوية نفوذ بلدهم[1]، ناهيك عن الهوة الكبيرة بين الجيشين من حيث الأسلحة المستعملة فجيش المنصور استخدم الأسلحة النارية وهي التي لم يعهدها جيش سونغاي وجيوش ممالك بلاد السودان من ذي قبل.

2-2 وحدات الجيش وأسلحته:

حتى وإن لم يصل جيش سنغاي إلى مكانة جاره الشرقي في البرنو من حيث نوع الأسلحة المستوردة، إلا أننا نلمس في تلك التقسيمات والوحدات وكذا الأسلحة المستعملة ذلك الأثر المغاربي والا سلامي من حيث التنظيم، فكان لكل قسم من الاقسام نوعية محددة من الأسلحة فهناك:

- سلاح الخيالة: ويأتي على هرم الترتيب من حيث الاهمية، ويقتصر الانضمام فيه غالباً على الميسورين لأن تجهيزه كان يتطلب الكثير من الأموال، ويحصل المنخرط في هذا السلاح على القاب النبل والشرف والأبهة، بل يتيح له ذلك الدخول في صفوف العمرة الملكية[2]، وهذه الفرقة من أصغر الفرق ومشاركتها في الحروب كانت رمزية أكثر منها عملية، ومن لوازم الجندي في هذه الفرقة الحصان الذي يركبه إضافة الى الدرع الذي يرتديه وكان هذا الأخير غالي الثمن باهظ التكاليف وكان يتم

1- الأمين عوض الله: المرجع السابق، ص75.

2-زبادية: المرجع السابق، ص67.

استيرادها من المشرق أو المغرب أو من البلدان الأوروبية، وبالإضافة إلى الفرس والدرع يحمل الجندي حربة طويلة برمحها أما السيوف قليلة الاستعمال.

– فرقة الفرسان: تأتي في الترتيب الثاني من حيث الأهمية بعد سلاح الخيالة وتتمثل اسلحتها في الخوذة وصدرية الفرس الحديدية، ويحمل الجنود الحراب في أيديهم وعلى اكتافهم النشاب[1].

– فرقة المشاة: تعد هذه الفرقة عماد القتال في جيش سنغاي، يكون أفرادها أكثر من ثلثي 3/2 الجيش، يعود لها الفضل في الانتصارات التي حققها جيش سنغاي لتميزها بالشجاعة ولتركيبتها المختلفة من المزارعين والعبيد...الخ، وهي التي تتصدر القتال منذ بداية المعارك[2]، وتشكلت اسلحة هذه الفرقة من الحراب والسهام بالدرجة الأولى وبعض افرادها يحملون الفؤوس الحادة أحياناً.

– الحرس الملكي: وهي فرقة دائمة الحضور في مختلف المعارك التي يحضرها الملك مهمتها حمايته وحاشيته مع الضرب على الطبول والنفخ في الأبواق لذلك كان تموقعها في مؤخرة الجيش تقريبا، كما ان مشاركتها في المعارك كانت ثانوية، أما أسلحتها فكانت في الغالب للزينة[3].

ومما يلاحظ على هذه التشكيلات العسكرية بالرغم من تنوعها وتعدد اسلحتها، نجدها في الغالب ببسيطة العتاد الحربي، خاصة إذا ما قورنت بمملكة البورنو في الشرق خلال نفس الفترة ضف إلى ذلك أن استعمال السيف يبدو نادراً إن لم نقل منعدماً بين فرق جيش سنغاي ولربما يرجع ذلك في الأساس إلى غلاء ثمن السيوف المستقدمة من بلدان الشرق والمغرب العربيين.

1 – مطير غيث: المرجع السابق، 325.

2– زبادية: المرجع السابق، ص67.

3–نفســــــــــه: ص69.

3-2 **الأسطـــــول:** حرص الأساكي منذ وقت مبكر على إنشاء أسطول بحري لنقل الجنود والأسلحة والمؤن، ويقال إن سني على هو أول من وضع نواة هذا الأسطول ولعلنا نقف على ذلك في حصاره لمدينة جني بأربعمائة سفينة[1]، وكانت أبرز قواعد هذا الأسطول في مدينتي جاو وتنبكتو[2].

وبالعودة إلى مختلف المصادر التي أشارت إلى أسطول سنغاي فإن هذا الأخير كانت مهامه تجارية وتموينية أكثر منها عسكرية وحربية فقد تخصص في نقل المؤن والجنود بين مختلف المراكز والمرافق على أطراف نهر النيجر، وبقدر الأهمية الاقتصادية والعسكرية التي عرفت عن الأسطول إلا أنه وبسقوط سنغاي سنة 1591م، استغل الجيش المغربي سفن هذا الاسطول في تثبيت حكمه وتوسيع دائرة نفوذه[3].

4-2 **أساليب الحرب:**

تعددت أساليب الحرب لدى جيش سنغاي ويرجع ذلك بالدرجة الأولى تأثره بالنظم القتالية المغاربية، ومن هذه الأساليب نجد محاصرة المدن ودفعها للاستسلام، وإرسال السرايا بقصد الاستكشاف وبالأخص اتجاه الممالك الوثنية في الجنوب[4]، وخلال هذه الفترة كان جيش سونغاي قد تعرف على اشكال الهجوم المباغت والمواجهة المباشرة والغزو المفاجئ، يرافق ذلك بعض تقاليد

1- كعت: المصدر السابق، ص 80.

2- زبادية: المرجع السابق، ص70.

3- مطير سعد غيث: الثقافة العربية الإسلامية وازدهارها في مجتمع السودان الغربي، المرجع السابق، ص 326.

4- السعدي: المصدر السابق، ص18. انظر ايضا كعت: المصدر السابق، ص180.

الحروب من أصوات المنشدين وضربات الطبول وصيحات الجنود والأبواق وذلك لزيادة حماس الجيش ودفعه للمواجهة.

مما سبق نخلص إلى أن جيش سنغاي تدرّج من جيش تطوعي بدائي إلى جيش نظامي مدرب تدريباً جيداً بمقاييس ذلك العصر، مما مكنه التفوق على جيوش البلدان والممالك المجاورة فترة من الزمن، هذا بالرغم من بدائية اسلحته وبساطتها وعدم مواكبتها للتطور الذي عرفته اسلحة جيش الكانم–برنو.

3-القضـــــــــاء:

نظراً لأهمية القضاء في الإسلام وخطورته في نفس الوقت[1]، فإن ملوك السودان اعطوا لهذه الوظيفة عناية كبيرة وقاموا باختيار العلماء المناسبين لهذا المنصب، فاختاروا القضاة المسلمين بأحكام الشريعة المتضلعين فيها. المشهود لهم بالتقوى والورع وتحري العدل وغير ذلك من الصفات التي يجب توفرها فيمن يختار لهذا المنصب، كأن يكون ذكراً حراً بالغاً عدلاً عالماً بالأحكام الشريعة ورعاً[2].

وبالعودة إلى القضاء الإسلامي في عهد الأساكي خاصة الأسكيا محمد الكبير ركز هذا الأخير في توطيد حكمه وبناء دولته أساساً على بعض القضاة والفقهاء المالكية كالمغيلي فقيه توات، والسيوطي فقيه مصر، دون إغفال مجموعة كبيرة من فقهاء المالكية التي تكونت في جامعات تنبكتو وجني، فمن

1- الحديث الشريف " القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار.........على جهل فهو في النار" سنن ابو داوود: ج3. ص299. انظر ايضاً سنن ابن ماجه: ج2. ص 774.

2- محمد ميقا عبد الرحمن: **الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من ق08 إلى ق18م**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2011، ص218.

أولى الإجراءات التي أقدم عليها الأسكيا بمجرد وصوله إلى السلطة تكريسا للبعد الإسلامي الذي اختار لمؤسساته أن عيّن قضاة بجميع مدن السودان "من تنبكتو إلى سبردك"[1].

حيث منحهم سلطات واسعة وأطلق أيديهم في إدارة المناطق التي أوكلت إليهم[2]، وإذا بحثنا على حالة القضاء وكيفية تعيين القضاة في عهد الاساكي فإن الأسكيا اسحاق الأول سنة946هـ/1539م وعقب وفاة قاضي مدينة جني أرسل أحد موظفيه من أجل ارغام العالم المشهور "محمد بن أبي بكر بغيغ" لتولي هذا المنصب يقول كعت في ذلك ما مفاده " امر بتقديم القاضي محمود بغيغ وأرسل احد اعيانه من جيشه ليقدمه قاضياً أحب أم كره فأتى الرسول وجمع أهل البلد كله سلطان جني فمن دونه وفقهائها واحضروا محمد بغيغ وهو لا يشعر فأخذوه وأمسكوا به، وجعلوا قمصان أسكي في عنقه الذي أرسل إليه، وعمموه وهو يصرخ ويبكي بكاء الصبي، وقدموه جبراً وقرأوا عليه كتاب أسكي .....فلما دخل بيته واستقبلته زوجته[...] وقالت له لم رضيت القضاء، فقال لم أرض بذلك وإنما أجبروني بها، وكلفوني فقالت لو اخترت الموت لكان أحسن منه"[3].

ويذكر كعت عند شغور منصب قضاء جني أصدر الأسكيا داوود أوامر بأن يتولى المنصب أحد الفقيهين الأخوين أحمد أو محمد ابن القاضي محمود بغيغ " ولحّ عليهما وفي ذلك وتشفع فيهما

1- كعت: المصدر السابق، ص59.

2- بنرمضان زوليخة: **المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين ق5هـ و11/10-16م**، ج1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية –المملكة المغربية-، 2015م، ص257.

3- كعت: المصدر السابق، ص89-90.

الناس، وأبى وشددّ في ذلك حتى هربا ودخلا المسجد وأقاما بها شهوراً، ويأتيهم رسل أسكى كل يوم إلى أن عفا عنهما"[1].

وبالرجوع إلى المصادر والوثائق التاريخية والحوليات المتعلقة بالفترة خاصة ق10هـ/16م في مدينتي جني وتنبكتو نجد أن القضاء انحصر بشكل خاص في أسرة آل قيت التي قدمت أشهر علماء جامع السنكرى، ويعتبر الفقيهان محمود وابنه العاقب أكثر الأئمة والقضاة شهرة وأوفرهم حظوة ورفعة[2].

ومن بين من تولى القضاء في سنغاي الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحي الصنهاجي التنبكتي الشهير بابي الثناء، وأبي المحاسن سنة 904هـ/1499م، بتعيين من الأسقيا محمد وصفه السعدي ب: " عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع، كان من خيار الصالحين العارفين به ذا تثبت عظيم في الأمور وهدى تام وسكون ووقار وجلالة، اشتهر علمه وصلاحه في البلاد وطار صيته في الأقطار شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً وظهرت بركته على ديانة وصلاح وزهد ونزاهة لا يخاف في الله لومة لائم هابته الخلق كلهم السلطان فمن دونه"[3]، ولم يكن الفقيه محمود قاضياً وأستاذاً فحسب وإنما حاكماً حقيقياً على مدينة تنبكتو بترخيص من الأسكيا محمد الأول وظل في منصبه حتى وافته المنية 955هـ/1548م[4].

1-كعت: المصدر السابق، ص 113. انظر أيضاً بنرمضان زوليخة: المرجع السابق، ص 258.

2- بنرمضان: المرجع السابق، ص 258.

3- السعدي: المصدر السابق، ص 38.

4- بنرمضان زوليخة: المرجع السابق، ص 259.

خلف الفقيه محمود بن عمر أقيت ابناؤه الثلاثة وهم محمد (955هـ-573هـ/1548م-1565م) والعاقب (973هـ-991هـ/1565م-1583م) وأبو حفص عمر (993هـ-1002هـ/1583م-1592م)، وقد اعتبر ابنه العاقب أكثر هؤلاء الفقهاء الإخوة شهرة، وصفه السعدي بالفقيه الثابت المسدد في أحكامه والمتشدد في قول الحق " لا تأخذه في الله لومة لائم"[1].

وبالعودة إلى سيرة هذا الفقيه القاضي نجده قد تدرج في أخذ العلوم الدينية من تنبكتو وجني إلى بلاد الحجاز حيث أدى فريضة الحج وحصل على إجازات مختلفة من علماء كبار في المذهب المالكي، وبعودته إلى تنبكتو تفرغ للتدريس في مساجد المدينة، ولم يكتف بالتدريس فيها بل تعدى ذلك إلى قيامه بترميم بعض من مساجدها وعلى غرار ذلك مسجد السنكري الذي يقوم على إمامته، وبموته ظل منصب قضاء تنبكتو شاغراً حتى 393هـ/1585م، حيث عين الأسكيا الحاج أخاه أبا حفص عمر أقيت الذي يعتبر آخر قضاة أسرة آل قيت في عهد السنغاي إذ أنه في سنة 1002هـ/1592م ألقى المغاربة القبض عليه وسيق أسيراً إلى مراكش[2].

أما في مدينة جني فإن القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ يمثل أهم شخصية طبعت الجهاز القضائي خلال هذه الحقبة، إذ وصفه كعت بفريد عصره وزمانه في الجهر بالحق وقول الصدق لا يدانيه في ذلك حتى الفقيه العاقب الذي قيل عنه الكثير في مناقبه.

1- السعدي: المصدر السابق، ص40.

2- بنرمضان زوليخة: المرجع السابق، ص260.

وليس هناك من فقهاء السنغاي من وقف في وجه الاسكيا إسحاق، وصرخ في وجهه أمام عامة جني وخاضها كما فعل بغيغ متهما إياه بكونه الظالم المتسلط في البلاد، المغتصب لأموال الناس[1].

تتجسد مهام القاضي في الحفاظ على أمن البلاد عند انفجار أزمة ولاية العرش بعقد المصالحة بين الإخوة الأعداء أو نصرة المظلومين، كما يتدخل القاضي لحماية الأهالي من تسلط الحكام والجباة هذا بالإضافة إلى السهر على تطبيق شرائع الدين ومراقبة اخلاقيات السكان ومحاربة البدع وتعيين الأئمة في المساجد، كما كانت من بين أهم وظائف القاضي الإشراف على سير التعليم في البلاد، بتنظيم حلقات التدريس أو تعيين الأساتذة وإحصاء الطلبة ومساعدة المحتاجين فيهم، ويساعد القاضي في هذه المهام موظفون فقهاء من أصحاب الإفتاء، وكتاب عدول وغيرهم[2].

لذلك كله كان منزل القاضي ملجأ حرمة لا يجوز للسلطة الوصول إليه فإليه، يلتجأ الفارون من جور الملك وإليه يهرب الفارون من السجون وإليه يأتي الخائفون من التتبع ومن التجأ لبيته أصبح آمناً[3].

يعيش القاضي كباقي موظفي الدولة على راتب شهري، إلا أن الظاهر فإن بعض الفقهاء القضاة كانوا من كبار الأثرياء بمدنهم، ففضلا عن أعمالهم الخاصة كانت لهم مداخل أخرى تدرها عليهم

1- كعت: المصدر السابق، ص ص88-89.

2- زبادية: المرجع السابق، ص76.

3- نفســـــه، ص77.

وظيفتهم مثل حقوق التسجيل والغرامات بالإضافة إلى الهدايا التي كانت تصلهم من السلاطين وغيرهم[1].

مما سبق نستخلص أن القاضي في فترة حكم الأساكي بسنغاي تمتع بسلطات مدنية واسعة وأخرى سياسية، مما اكسبه ثقة العامة من جهة واحترام الملوك من جهة أخرى ليحقق بذلك نوعاً من التوازن بين السلطة التي تطمح إلى ضمان الاستقرار والأمن وبين المجتمع الذي يتوق الى إيجاد من يحمي حرياته ويصون ارواحه وممتلكاته.

ثالثاً: مظاهر التأثير في الحياة الاقتصـــــــــــادية

يرتبط قيام الممالك السودانية واستمرارها بالإمكانيات الاقتصادية التي تحوزها والمحاصيل التي توفرها عن طريق مختلف اشكال الاستغلال التي تستخدمها كان ذلك فطرة او اكتسابا، وما يهمنا في هذه المبحث الاقتصادي هو محاولة ابراز أثر المسلمين المغاربة الاقتصادي في مملكة سنغاي خلال فترة البحث، وبالرجوع إلى المصادر التاريخية الإفريقية منها والعربية نجد أن اقتصاد السنغاي كان يقف على ركائز ثلاث أساسية، وهي الرعي والزراعة والصيد وتجارة المعادن والعبيد والخيول، بالإضافة إلى المصادر المالية المترتبة عن الجباية وغنائم الحروب، ولا تخرج أياً من الثلاثة أو الأربعة عن التأثير الإسلامي المغاربي في كثير من جوانبها.

1- بنرمضان: المرجع السابق، ص262.

1- الزراعـــــــة:

تعتبر الزراعة أحد اهم الانشطة فيما الاقتصادية الممارسة في سنغاي بعد الرعي، ولربما يعود ذلك إلى عوامل مختلفة يأتي على رأسها نظام تمليك الأراضي وكيفية استغلالها والتي نجدها حكراً على الملوك الأساكي دون غيرهم.

1-1 الملكيـــــــات الزراعية:

كانت غالبية اراضي دولة سنغاي عبارة عن املاك خاصة للأساكي وبقية أفراد الجهاز الإداري للدولة، فقد كانت القاعدة هي عدم التميز بين أملاك الدولة وأملاك السلطان، كما أن القاعدة تقتضي أن فتح أي منطقة يحيل ابناؤها وأراضيها سياسياً للأسكيا يتصرف فيها كيفما يشاء،[1] وقد ترتب عن مصادرة الأراضي الواسعة الممتدة على ضفتي نهر النيجر، بروز مشكلة كبرى وهي نقص الأيدي العاملة، فلجأت الدولة بذلك الى استخدام العبيد فضلاً عن الفلاحين من الطبقة العامة، فنجد بالمزرعة الواحدة من عشرين إلى مائة عبد يعملون تحت رئاسة شخص يدعى "فنفا"[2]، ولذلك كان عمل الرقيق في المزارع ظاهرة بارزة في مجتمع سنغاي،[3] وقد ساعد هؤلاء الرقيق بعض الأحرار من العامة الذين عملوا كأجراء في معظم الاحيان.[4]

1- كعت: المصدر السابق، ص32.

2- نفســـــه، ص ص96-97.

3- عز الدين عمر موسى: دراسات إسلامية غرب إفريقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 2003م، ص95.

4- شعبان عرباني: العامة والنشاط الزراعي في دولة سنغاي (869-1000هـ/1464-1591م)، **مجلة الدراسات الإفريقية** مج33-القاهرة-، 2011م، ص66.

1-2 المزروعـــــــــات:

من بين المحاصيل الزراعية التي حرص أهالي السودان الغربي على زراعتها **"القطن"** حيث ساعدت الظروف الطبيعية من توفر مياه الأنهار وارتفاع معدل التساقط في بعض المناطق من زراعته، ومن المرجح أن بذرة القطن قد وصلت المنطقة من الشمال الإفريقي في نظر كثير من المؤرخين القدماء منهم والمعاصرين[1]، ولا شك أن الحاجة الماسة للباس وستر العورة حسب تعاليم الشرع دفعت أهالي السودان إلى الإكثار والتوسع في زراعة القطن[2].

لقد أسهم المغاربة في زيادة الانتاج وتحسين نوعه والاعتناء بحقوله، حتى أصبح من أكبر المنتوجات الزراعية في عهد الباشوات، حيث تعرف أهالي سونغاي على كيفية صباغته بألوان مختلفة وصناعتهم منه لألبسة متعددة خاصة في جني التي ازدهرت فيها هذه الزراعة[3].

أ-القمـــــــح: حسب الدراسات والكتابات التاريخية يتصدر القمح والشعير المواد الزراعية التي حاول المغاربة نشرها وتعميم زراعتها في بلاد السودان[4]، فحسب "أوسكارلانز" Oskar Lenz تعتمد الفئات الميسورة في تنبكتو على القمح والشعير في اغلب وجباتها بعد أن نقلها المغاربة إلى هذه

1- الوزان: المصدر السابق، ج2، ص163. انظر أيضاً الأمين عوض الله: المرجع السابق، ص177. زبادية: المرجع السابق، ص 17.

2- مطير سعد غيث: التأثير العربي في السودان الغربي، المرجع السابق، ص156.

3- آيت عدي مبارك: **مساهمة المغاربة في بناء حضارة بلاد السودان من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين**، أعمال مجموعة البحث حول المغرب وإفريقيا، كلية الأدب والعلوم الإنسانية-الرباط-، ط1، 2012م، ص 90-91.

4 - انظر الملحق رقم 14.

المدينة[1]، وبالأخص صناعة الخبز والكسكس، واشار أحد الرحالة الفرنسيين يدعى كراف (ق18م) إلى أن زراعة القمح اتسع نطاقها في جهات كثيرة بعد قدوم الرماة المغاربة، وبالأخص على ضفاف نهر النيجر وبعض المناطق الداخلية الأخرى التي تم استصلاحها بعد وصول المياه إليها بفضل القنوات التي تم شقها.

هذا وقد تضاربت المصادر التاريخية حول اقبال السودانيين على هذه المادة، ففي الوقت الذي يرى البعض إن هذا المحصول لم يعرف اقبالا كبيراً من طرف السكان المحليين نجد أن دوبوي يكوبا Dupuis-Yacouba، يذكر أن أهل تنبكتو يستهلكون القمح بكثرة ويصنعون منه مأكولات كثيرة شبيهة بالمأكولات المغربية[2].

وبحسب النقيب دولا كرو Le captain La croiseا، أن الرماة يصدرون القمح بكميات كبيرة إلى تنبكتو وإلى قبائل البمبارا، في حين أن أوسكار لانز خالف ما ذهب إليه لا كروا، إذ أورد أن حجم الإنتاج كان ضعيفاً، ولذلك لم يسد متطلبات السكان، كما أنه لم يكن في متناول الجميع لغلاء ثمنه[3]، وهو نفس ما ذهب اليه زبادية بقوله ان أكثر القمح كان يأتي من الخارج وتستهلكه الطبقة الثرية في حين كان حظ بقية السكان منه ضئيلا[4].

---

1 - Dupuis-Yacouba، industries et principals professions des habitants de la region de Tombouctou، Emil Larose، paris,1921, P120.

2 - Dupuis, Yacouba, op.cit, p120.

3- Lenz, O, Timbouctou voyage au Maroc au Sahara et au Sudan, Paris, 1886, T II, p322.

4- زبادية: مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين، المرجع السابق، ص174.

ب-الخضـــــــــــر: عرف أهالي سنغاي أنواعاً محدودة من الخضر المدارية التي كانت تزرع هناك لكن بقدوم العرب والمسلمين المغاربة منهم على وجه الخصوص عرفت المنطقة أنواعاً جديدة من الخضر منها البصل والثوم واللفت والفلفل وأنواعاً أخرى مثل القرع الصغير والمعدنوس والنعناع، إلا أن الإقبال عليها كان ضعيفاً من قبل السكان المحليين الذين يفضلون استهلاك مواد محلية من انتاجهم الذاتي[1].

لم يقتصر دور العرب المسلمين على ادخال مزروعات جديدة للمنطقة بل تعداه إلى تطوير الزراعات المحلية المشهورة لدى أهالي سونغاي ومن ذلك:

ج-الكــــــولا: تأتي في مقدمة المحاصيل التي عني المغاربة بتوسيع زراعتها، ويشير بوفيل إلى أن جيش اللارما المرابط بالسودان لا يخرج للحرب إلا بعد أن توزع عليه حبوب الكولا[2]، وتعد من أهم صادرات السودان إل المغرب وتتم مبادلتها بالمواد الزجاجية، وقد جرب المغاربة زراعتها في نواحي كاغ وفي بلاد الهوسا، ويذكر أوسكار لانز أن ثمنها في تنبكتو يقدر بمائة كوري للحبة الواحدة[3]، ويشير بوفيل إلى أن تجار السودان يشترطون مقابلها الزجاج والحديد[4].

1- الغربي محمد: **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، مؤسسة الفليج للطباعة والنشر، الكويت، 1982م، ص483.

2- بوفيل: **الممالك الإسلامية. في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى**، تر زاهر رياض، الانجلو مصرية، القاهرة، 1968م، ص310.

3-Lenz,O,op.cite, P155.

4- بوفيل: المرجع السابق، ص 310.

د-التبـــــــــغ: نجد أن التبغ من بين أبرز المزروعات التي عني بها المغاربة في بلاد السودان. وتأتي في مقدمة صادراتهم إلى بلاد المغرب، تركزت في مدينة بمبوكاغ وشرق تنبكت[1]، ورغم الحظر الشديد الذي تعرضت له زراعة التبغ خلال القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الميلادي، إلا أنها انتعشت في القرون الموالية حسب أوسكارلانز[2].

كما تعلم مزارعو السودان الغربي أساليب زراعية متقنة مثل سحب المياه للري الواسع واستعمال الأسمدة من بضعة فلاحين وفدوا إل المنطقة من توات الجزائرية للعمل في مجال الزراعة، دون أن ننسى بعض الأثر الذي تركه بعض الفلاحين الذين توافدوا على المنطقة من بلاد الأندلس[3].

وتظهر نتائج هذه الخبرات الوافدة عل السودان الغربي في نظام الاستغلال الجيد للأرض، ويؤكد بازل دافيدسون Basil Davidson هذا الأمر بقوله "أن أهالي الشمال الإفريقي نقلوا الخبرة الفنية، وأضافوا إليها ما برعوا فيه في الماضي وطوعوا كل هذا لتجربتهم الذاتية ثم اخترعوا ما احتاجوا إليه من أدوات وشؤون على خطى ما اقتبسوه من الشمال"[4].

1-3 الثروة الحيـــــــــوانية: تتفق جل المصادر العربية والأوروبية التي عنيت بدراسة الثروة الحيوانية على أن الإبل شكلت ولا تزال أحد مصادر عيش ساكنة الصحراء حيث

1- Dupuis-Y, op cite, P183.

2 - Lenz ,O,op.cite, P168.

3- مطير سعد: **التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي**، دار الرواد، بنغازي، ط1، 1996م، ص158.

4- بازل دافيدسون: **افريقيا تحت أضواء جديدة**، تر احمد جمال، بيروت، دار الثقافة، ج1، 1957، ص65.

يعتمدون في عيشهم على لحومها وألبانها ويصنعون من جلودها ووبرها جناحهم وعتادهم وألبستهم[1].

وتنتشر مجالات تربية الإبل في الصحراء الغربية من الجنوب المغربي إلى السنغال، كما تشمل جميع الشريط الساحلي الصحراوي، وقد أفاد بن عبد الحكم أن الغزوات العربية التي قادت عقبة بن نافع من طرابلس في اتجاه فزان والكوار تكونت من اربعمائة فرس ومثلها بعير[2].

ومن جانب آخر شكل الجمل بالإضافة إلى وظيفته العسكرية عنصراً أساسياً في الاقتصاد الصحراوي كأهم وسيلة للتنقل والترحال ما بين بلاد المغرب وورقلة وفزان وتوات وبلاد السودان، وفي هذا الصدد يذكر بن بطوطة أنه اشترى عند وصوله إلى مدينة سجلماسة خلال رحلته إلى بلاد السودان جمالاً وعلفها مدة أربعة أشهر[3].

لقد ازدادت الأهمية الاقتصادية للجمل في نقل الملح مع بداية استغلال ممالح تغازة إذ كان ينقل ألواح الملح الضخام إلى مختلف أسواق السودان حيث يحمل كل جمل أربع قطع من الملح[4].
وبالإضافة إلى استخدامه كوسيلة نقل استفيد منه كمصدر غذاء هام وخاصة لسكان الصحراء والواحات، ولم يستعمل الجمل في نقل السلع التجارية فحسب بل في نقل الثقافة والأفكار والعقائد

1- البكري: المصدر السابق، ص157.

2- بن عبد الحكم: المصدر السابق، ص51.

3- بن بطوطة: المصدر السابق، ص 773.

4- نفســـــه، ص773. انظر أيضاً بنرمضان: المرجع السابق، ص99.

إلى مناطق ما وراء الصحراء كونه وسيلة لنقل الكتب وركوب العلماء والمثقفين مما ساعد في القضاء على الوثنية وفتح دروب حياة اجتماعية وثقافية جديدة أمام ساكنة هذه المناطق[1].

واحتلت تربية الخيول أهم بالغة نظرا لتعدد مجالات استخدامها العسكرية والاجتماعية فلم تختلف الشعوب السودانية عن الحضارات القديمة في تقدير القيمة الرمزية للفرس كأنبل الحيوانات، ولعل هذا ما يفسر العلاقة الحميمية التي ربطت بينه وبين بعض القبائل السودانية، مما جعل منه محل تجارة كبرى[2]، فقد كانت اثمان الخيول جد مرتفعة مع صعوبة الحصول عليها إلا للعائلات الميسورة والملوك والنبلاء[3].

ففي العاصمة مالي كان يساوي الواحد منها زمن المنسى سليمان (منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) مائة مثقال[4]، ووصل ثمن الحصان في جاو إلى أربعين مثقالاً، في حين لا يتعدى ثمنه آنذاك العشرة مثاقيل في اسواق اوروبا وبلاد المغرب[5]، لقد كان ركوب الخيل دليل على جليل القدر والمكانة للشخص الذي يمتطيها، وكانت قوة الجيوش في ذلك الحين تقدر بكثرة ما يتوفر على جنودها من الخيول لأنها سريعة الحركة في الهجوم وفي الفرار[6].

وجدت في سونغاي نوعين من الخيول على عهد الاسقيين حسب مؤرخنا عبد القادر زبادية:

1- مطير غيث: التأثير العربي الاسلامي في السودان الغربي، المرجع السابق، ص160.

2- بنرمضان زوليخة: المرجع السابق، ج1، ص 103.

3-زيادية: مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، المرجع السابق، ص 185.

4- بن بطوطة: المصدر السابق، ص 792.

5- الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 170.

6- زبادية: المرجع السابق، ص 185.

أ) النوع الإفريقي: القصير القامة (بني اللون) وهو الأكثر تواجد وانتشاراً.

ب) النوع العربي: (بارب) وهو الأغلى ثمناً والأقل تواجداً، وتجلب في معظمها من البلاد العربية، والتي جنى منها التجار أرباحاً طائلة[1].

مما سبق يتضح أن تأثير المغاربة والمسلمين في المجال الفلاحي يجمع بين تلك المزروعات التي نقلوها إلى المنطقة والتي لم تكن معروفة من قبل لدى السنغائيين وتلك التي وجدوها وقاموا بتوسيع زراعتها وتطويرها من خلال الوسائل والنظم التي ادخلوها، يقابل تلك في مجال الرعي نقلهم للجمال والخيل واستعمالها على نطاق واسع في مختلف المجالات الاقتصادية والعسكرية والمعيشية وهو ما يعبر عن التعظيم الذي حظيت به من جهة وارتفاع أسعارها من جهة أخرى.

2 -الحـــــــرف:

كانت الحرف والصناعات في بلاد سنغاي خلال الفترة ما بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين تقليدية وبسيطة مارسها أصحابها في دكاكين صغيرة، ولم تعرف سونغاي آنذاك تنظيماً صناعياً تحكمه قوانين محددة مثل ما شهدته بلاد المغارب خلال نفس الفترة أو قبلها[2]، ويذكر حسن الوزان أن دكاكين الصناع والحرفيين كانت منتشرة بكثرة في المدن بل وحتى في القرى الصغيرة بسنغاي مما يدل على كثرة أصحاب الحرف ووفرة إنتاجهم[3].

1- زبادية: المرجع السابق، ص185.

2- نفســــــــه: ص187.

3- الوزان: المصدر السابق، ص246.

إن حديثنا عن الصناعة في سونغاي يدفعنا للبحث والوقوف على المواد الأولية والمعادن التي توفرت لتزويد هذه الصناعة. ويأتي على رأس هذه المواد الجلود التي توافرت بكثرة والتي قام على أساسها عدد من المصنوعات، فقد وجدت الجلود الخشنة الكبيرة الحجم مثل جلود الجمال والأبقار، كما وجدت الجلود المتوسطة الحجم والرقيقة الرطبة مثل جلود الأغنام[1].

ووجدت الأتربة بمختلف اشكالها في البلاد، سواءً تلك التي انحدرت من تحلل الصخور الكلسية أو التي نتجت عن تحلل الصخور المتحولة والبلورة، وكانت هذه الأتربة صالحة لاتخاذ كل انواع الخزف والطوب ونفس الأمر يمكن ملاحظته فيما يحمله نهر النيجر من الأتربة أثناء فيضانه والتي يلقي بها على الجوانب[2].

بالإضافة إلى ما تمّ الإشارة إليه وجد الذهب بكثرة في أسواق سنغاي على عهد الأسيقيين وتتركز مناطق استخراجه في مناجم بوري[3]وبامبوك[4]، وكان معظم ما يستخرج منه يستولي عليه الأمراء، ويذهب البكري إلى أن عادة الملوك في أيام مملكة غانا أنهم لا يتركون لغيرهم من العامة سوى التبر أما السبائك فيستأثرون بها لأنفسهم، للإبقاء على بعض مكانة الذهب بهدف الإقبال عليه[5].

1- زبادية: المرجع السابق، ص 188.

2- نفســه، ص188.

3- بوري: عند حافة النيجر العليا.

4- بامبوك: عند حافة السنغال.

5- البكري: المصدر السابق، ص84.

ولا يختلف اثنان على أن الذهب هو المعدن الأول الذي جعل بلاد السودان الغربي مقصداً لجموع التجار على مدى الأزمنة ومن مختلف الأمصار، وقد كان ذهب السودان الغربي يغذي حاجة عالم البحر الأبيض المتوسط بما يقارب النصف من حاجياته من الذهب.

الا انه وبوصول البرتغاليين الى شواطئ الأطلسي اصبح تصدير الذهب والعاج والعبيد من خليج غينيا الى اوروبا مباشرة دون المرور عبر شمال افريقيا، ومع النصف الثاني من القرن السادس عشر (16) الميلادي اخذت ترتسم معالم تراجع الذهب والذي نجم عنه أزمة عامة لأروبا لم تنتهي الا مع تقدم الهولنديين الى جنوب افريقيا بنهاية القرن السادس عشر الميلادي، ويعود هذا التراجع أساسا الى المنافسة الأوربية حول مصادر الذهب مع ارتفاع كلفة استخراج الذهب الافريقي ومزاحمة الذهب الأمريكي له، ففيما كانت أمريكا تصدر حوالي أربعة أطنان من الذهب سنويا ما بين (1551-1560) كانت افريقيا لا تصدر سوى 700 كيلوغرام سنويا[1].

أما النحاس فكان قليلاً في بلاد سنغاي على أيام الأساقي وكانت أقرب نقطة يستغل بها تقع في (اكجوجيت) إلى الجنوب الغربي من موريتانيا الحالية وفي منجم أزوليك ببلاد الأير، وكانت تغطي حاجياتها منها بوروده من بلاد المغارب ومصر ونظراً لندرته الكبيرة، ارتفع ثمنه وكثر الإقبال عليه فكان يستبدل في كثير من الأحيان بالذهب[2].

1-فرناند بروديل: **المتوسط والعالم المتوسطي**، تعر مروان ابي سمرا، دار المنتخب العربي، بيروت-لبنان، ط1، 1993، ص102.

2- الوزان: المصدر السابق، ص 18.

ووجد الحديد بكثرة في سنغاي على أيام الأسيقيين وفي جميع الجهات تقريباً كما يذكر زبادية، فقد قامت الصناعات وكثر محترفيها[1]، كما عرف سكان سنغاي استعمال القصدير والرصاص إلا أن محترفوها كانوا قلة، وفي غالب الأمر كان من يتولى صناعة الحديد بدورهم يتولون صناعة الرصاص والقصدير أيضاً.

بقي ان نشير الى انه وبرغم الاندماج السريع للمغاربة في الوسط السوداني فإنه ليس من السهل تحديد الحرف التي نقلوها إلى بلاد سنغاي ولا التي طوروها محلياً، فالمصادر المحلية لا تحتوي إلا على إشارات قليلة، كان ذلك في وقت أشار فيه عبد الرحمن السعدي إلى أن الجيش الذي قاده الباشا جودر إلى السودان تواجد ضمنه من الحرفيين وأصحاب المهن الأخرى ما فاق عدد المحاربين أنفسهم حيث قال: " معهم من الأتباع ضعفها من كل صنف وأجناس من الصناع والأطباء وغيرها"[2].

وإذا كانت المصادر المغربية المنتسبة للقرن 16 لم تتناول الحرف التي نقلها المغاربة إلى السودان، فإن الرحالة الأوروبيين الذين دخلوا بلاد السودان قبل فترة الاستعمار، انتبهوا إلى حرف كثيرة تخصص فيها المغاربة المقيمين بالسودان، ولاشك من وجود ذلك الامتداد التاريخي التوارثي لهذه الصناعات حتى قبل حملة المنصور على بلاد السودان، ومن أبرز تلك الحرف الدباغة والصناعات الجلدية، وصناعة الخشب والبناء بالإضافة إلى صناعة النسيج، وفنون الطبخ والحدادة، كل حرفة من هذه

1- زبادية: المرجع السابق، ص 190.

2- السعدي: المصدر السابق، ص 138.

الحرف تخصصت فيها مجموعات عرقية اثنية ومهنية مثل أهل فاس، وأهل مراكش وأهل درعة وتافلالت والعلوج والأندلسيون إلى غيرها من الجماعات[1].

1-2 أنواع الصنـــــــــاعات والحـــــرف:

إن قلة المعادن التي عرفها سكان بلاد سنغاي تبين لنا محدودية الصناعات والحرف التي امتهنوها خلال تلك المرحلة والتي كان في أغلبها إما تأثراً أو تصوراً لما عرفته البلاد العربية في الشمال والشرق، دون إغفال الخصوصيات التي تميزت بها الصناعة في سنغاي دون غيرها في بلاد المغرب والمشرق العربيين.

إن مما يلاحظ على الأنشطة الحرفية أنها كانت متوازنة في أغلبها حيث نظام العشائر فهناك من المهن ما يمتهنها الرجال دون النساء وهناك من الحرف ما يمتهنها النساء دون الرجال، ومنها ما تمتهن سوية.

ففي بعض المدن مثل تنبكت وجني كانت الحرف منتظمة على شكل طوائف من حيث هيكلتها، تضم في أغلب الأحيان أفراداً من نفس العائلة أو من نفس العشيرة، وتشمل الطوائف الحرفية العمال والمتمرنين من الصغار، وتكون مدة التدرب على الحرفة طويلة، حيث أن الطفل المتدرب والمساعد في نفس الوقت يحاول أن يأخذ كل شيء عن أبيه، يكون ذلك بالتدرج وببطيء، ومع الختان المتأخر

1- Captain pefonton, Les armes, p-154.

لدى أهالي بلاد السودان –تتم عادة ما بين الرابعة عشر والسابعة عشر–يصبح بإمكانه اقتحام مجموعة الرجال ويستمر في العمل لفائدة الاسرة إلى حين زواجه[1].

ويبدو أن ظروف العمل كانت شاقة ولفترة زمنية طويلة من اليوم، فقد كان المحترف يعمل طول النهار دون انقطاع باستثناء وقفة صغيرة من أجل تناول الغذاء، ويكون الانشغال حسب طلب الزبائن المسبقة، وعادة ما يتولى الزبون إحضار المادة الأولية من جلد أو حديد أو ثوب أو قماش وغيره، في حين أن أجرة العامل أو المحترف يتم الاتفاق عليها بين الطرفين وتدفع إما عيناً أو نقداً[2].

أ–الحدادون:

تمثل الحدادة أحد أهم المهن التي طبعت التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد سونغاي، إذ لعبت عشائر الحدادين دوراً مهماً في دعم البنيات السياسية والعسكرية للأسر الحاكمة، وتشير المصادر السودانية إلى أن الأسكيا محمد الأول ورث عن سني علي خمس قبائل مستعبدة من الحدادين هم جم تين، وجم ول، وكم، وسريني، وسمشاك، ورثت المهنة عن جد أعلى هاجر من المشرق وكانت هذه القبائل مجبرة على تقديم مائة رمح كضريبة سنوية عن العائلة الواحدة[3].

1- Rouch (J)، contribution à L' histoire des Songhay، Memoires de l'I.F.A.N, n29, Dakar, 1953, P74.

انظر أيضاً بنرمضان زوليخة: المرجع السابق، ص278.

2-Cissoko (S.M). Tombouctou. Et L'empire Songhay, épanouissement du Soudan, nigérien aux XVe -XVIe siècles, les Nelles Edition Africaines, Dakar, Abidjan, 1975. P130. انظر أيضاً بنرمضان زوليخة: المرجع السابق. ص278.

3- بنرمضان زوليخة: المرجع السابق، ص 219.

ويصنف ضمن الحدادين أيضاً صناع المجوهرات من النحاس والذهب والفضة وقد ارتبطت الحدادة بالتجارة لاعتماد الأولى ما تقدمه الثانية من الأخشاب من أجل تقوية المعادن[1].

ب-**صـــناعة النسيج**: من بين أهم المصنوعات التي عرفت انتشاراً واسعاً في سنغاي على عهد الأسيقيين والتي نلمس فيها الأثر الإسلامي والمغاربي بارزاً على وجه الخصوص للمرأة السودانية، وقد عدد ليون الافريقي في تمبكتو لوحدها وجود أكثر من 20 دكاناً للخياطة في كل منها وجد ما بين الخمسين ومائة متعلم مما يدل على ان صناعة لأقمشة كانت مزدهرة وكمية الانتاج كبيرة والاهتمام بها أكبر[2].

وينقل لنا صاحب الفتاش أن تنبكت كانت تضم 26 محترفاً للخياطين يصطلح عليهم مسمى "تند" يقول في ذلك " وأخبرني محمد بن المولود أنه رأى منها وست وعشرين بيتاً من بيوت الخياطين المسماة بتند بتاء مكسورة، ولكل واحدة من تلك البيوت شيخ رئيس معلم وعنده من المتعلمين نحو خمسين وعند بعضهم سبعين الى مائة[3]، وقد يبدو هذا الرقم ضئيلا إذ ما أخذنا بعين الاعتبار الخياطة التي كانت تسهر عليها النساء وعبيدهن داخل البيوت[4].

1-Cissoko (S.M), op,cit. p.132.

2- الوزان: المصدر السابق، ص 191.

3- كعت: المصدر السابق، ص 180.

4- بنرمضان زوليخة: المرجع السابق، ص 182.

إن صناعة الألبسة والزرابي قد عرفت في السودان الغربي من فترة مبكرة واتسعت بالأخص على عهد الأساقي، ويظهر فيها الأثر المغربي جلياً خاصة في الزرابي التي كانت تستورد من بلاد المغارب لذلك اغلب ما تم انتاجه كان يستهلك محلياً[1].

ج-الصنـــــــاعة الجلدية:

أورد دوبوي يكوبا أن كثيراً من المغاربة تخصصوا في صناعة الأحذية والبلاغي والنعال ومصنوعات جلدية كثيرة مما يعكس ازدهار هذه الحرفة، وقد تناول الباحث مختلف المراحل التي تمر بهذه الصناعة ومختلف الأدوات المستعملة فيها، وخلص أنها تتميز بجمالية كبيرة خاصة بلاغي النساء التي تتشكل من ألوان كثيرة مختلفة (حمراء وخضراء وصفراء)[2]، ويدعم ما جاء به دوبوي ما أورده بيفونتان " أن الرماة في تنبكت وجني وكاغ لا يزاولون في السودان إلا حرفة واحدة، وهي صناعة الأحذية والبلاغي للرجال وللنساء مستعملين جلد الماعز والغنم، وذلك بوسائل تقليدية يتوارثون هذه الحرف أباً عن جد.[3] وهذا القول ليس بالضرورة أن يعبر عن حرف المغاربة في بلاد السودان على اعتبار أن بيفونتان جاء متأخراً واعتمد على ما لاحظه أو نقله عن الرواة في بلاد السودان خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

1- زبادية: المرجع السابق، ص 191.

2-Dupuis، Yacouba، op.cit. p62.
3-Pefonton, op.cit., p74-75.

ويشير صاحب الفتاش" إلى أن الإسكافيين كانوا يشكلون طبقة مغلقة متخصصة في صناعة الجلد تعرف باسم "الكرنكي" ينعت به جميع المشتغلين بهذه الحرفة[1].

د-الأطعمة وفنون الطبخ:

أورد شارل مونتاي الاطعمة التي طورها المغاربة في السودان حيث أشار إلى الخبز بمختلف أشكاله، المصنوع من دقيق الأرز والمدهون بسمن البقر والماعز يؤكل بمرق اللحم يسمى محلياً "الدراز" يقدم خاصة في المناسبات والحفلات الكبرى، ويعزو انتشار هذه المأكولات في جني حسب مونتاي دائما إلى مجموعة الطباخين المغاربة الذين تأثر بهم السكان المحليون.

وبزيادة الرّابط الاقتصادي والاجتماعي ما بين الشمال وجنوب الصحراء تغير النظام الغذائي تدريجياً لسكان سونغاي، حيث أصبح ساكنة هذه الأخيرة يرتكز على المواد الفلاحية المستوردة من قمح وعنب وذرة وثمر وتين ولحوم حمراء وغيرها والتي لم تكن معروفة بشكل واسع قبل دخول المغاربة[2].

و-صناعة الفخار:

عرفت صناعة الفخار ازدهاراً كبيراً في سنغاي على عهد الأسيقيين حسب زبادية وقد اوصلت الحفريات الحديثة إلى العثور على عينات كثيرة منها، وأهم ما كان يصنع من الفخار الجرار وأواني

1- كعت: المصدر السابق. ص14.

2- مبارك آيت عدي: مساهمة المغاربة في بناء حضارة السودان من حلال كتابات الرحالة الاوروبيين، مجلة العلاقات المغربية الافريقية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ط1، 2012م. ص94.

الشرب والأكل، حيث كانوا ينقشونها ويجملونها بالألوان أحيان كثيرة وكان صناعتها تتم باليد، ثم يشوى الإناء بعد صنعه وتجفيفه ليزداد صلابة[1].

هذا كما عرفت المنطقة العديد من الصناعات الأخرى والتي يبدو من المصادر أنها كانت على نطاق محدود ويظهر فيها التأثير الإسلامي المغاربي والعربي واضحاً، ومن ذلك صناعة الصابون، وهو ما يفهم من حادثة إحدى عجائز المنطقة مع الأسكيا داوود حيث نقل صاحب الفتاش على لسانها أنها قالت "...ولابد لي من حمل غرامه لك تذكرني بذلك وذلك عشر رؤوس صابون في رأس كل سنة."[2] بالإضافة إلى صناعة تجفيف السمك، وهو ما يستدل به دائماً من قول صاحب الفتاش عن الأسكيا محمد الكبير"...يأخذ غرامتهم كل غاص البحر يأخذ ممن استحق عشر حزمات من الحيتان اليابسات"[3].

3 التجارة: (النظم والمعاملات التجارية)

يظهر التأثير الإسلامي المغاربي واضحاً جداً في أغلب المعاملات التجارية بين الشمال والجنوب، بل يرجع الفضل الأكبر الى تجار بلاد المغرب الذين ربطوا شمال القارة بجنوبها عن طريق قوافلهم التجارية التي تجوب بحور الرمال من الصحراء وبلاد الساحل، حيث وفد التجار من مختلف المناطق العربية على بلاد السودان من مصر وغدامس وفاس وسوس وتوات وغيرها من المدن والحواضر العربية[4].

1-زيادية: سنغاي في عهد الأسيقيين، المرجع السابق، ص 193.

2- كعث: المصدر السابق، ص106.

3- كعت: المصدر السابق، ص75.

4- السعدي: المصدر السابق، ص21. انظر ايضاً حسن ابراهيم حسن: انتشار الإسلام والعروبة في بلاد الصحراء الكبرى، ص179. ومطير سعد غيث، الثقافة العربية الإسلامية ...، المرجع السابق، ص 350.

لقد تجاوز الأمر سبل التواصل التجاري وتعداه بين بلاد السودان والمنطقة العربية إلى توطن بعض من الجاليات العربية والمغاربية على وجه الخصوص في بلاد السودان من فئة التجار خاصة، فنجد منهم التاجر المصراتي نسبة الى مصراتة والتواتي نسبة الى توات والفاسي نسبة الى فاس وغيرهم، ولعل ابلغ الصور في ذلك ما يذكره السعدي عن التاجر العربي الحاج سالم المصراتي الذي عرف عنه بأنه من أشهر نبلاء مدينة تنبكت في أواخر القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري[1].

ولعلّ ما يبرز المستوى الاقتصادي الرفيع الذي وصل إليه أعضاء هذه الجالية انهم شيدوا أحياء سميت نسبة إلى أوطانهم وانتماءاتهم فنجد حي التواتيين وحي الغدامسية هذا الأخير يعد من أرقى الأحياء بالمدينة[2]، وما يستدل به على ذلك أن الباشوات المغاربة شيدوا في المكان نفسه —حي الغدامسية–قصبة حكمهم أثناء امتداد سلطانهم على البلاد بقول السعدي " .... ثم انهم دخلوا في داخل المدينة يوم الخميس السادس من شعبان المنير وكانوا في المدينة وطالعوها ووجدوا أكبر عمارة حومة الغدامسيين فاختاروها للقصبة وشرعوا في بنائها"[3].

3–1 الطرق التجارية: يذكر بن خلدون في تاريخه ان التجارة كانت تتم عن طريق القوافل التي كانت تمر على أيامه (أواخر القرن الرابع عشر) بالهقار كان عدد جمالها يفوق الاثني عشر ألف جمل في أحيان كثيرة وهو ما يقدم لنا صورة عن كثرة البضائع التي تقلها هذه القوافل وعن مقدار الربح

1- السعدي: المصدر السابق، ص59.

2- السعدي: المصدر السابق، ص 142.

3- نفســـه، ص 142.

الذي كان يحصل علبه التجار من اسفارهم الى السودان الغربي كما يقرب من اذهاننا الصورة الفعلية لعدد التجار العاملين بين السودان الغربي وشمال افريقيا[1].

وبفضل طرق القوافل هذه نشأت مدن كثيرة على ضفتي الصحراء نذكر منها تمثيلا لا حصرا سجلماسة وورقلة وغدامس وتوات وزويلة وتادمكة وولاتا وغيرها[2]، وبفعل هذه التجارة أيضا تكونت لدى السكان تقاليد ثابتة في المعاملات التجارية فهم يستقبلون القوافل بالترحاب وبالدفوف فسيتفيدون منها لتكون مرجعا لرزقهم ومعيشتهم[3]، اما عن الضفة الجنوبية فان اهم المراكز تمثلت في ولاته، وكمبي صالح ، تمبكتو ، غاو واغادس، وسياتي بالتعريف بالبعض منها في الفصل القادم من هذا البحث، وقد جمعت هذه المراكز بين عواصم ثقافية وسياسية واقتصادية في نفس الوقت، وعليه يمكننا القول ان ازدهار هذه الممالك كان قائما على التجارة الى حد بعيد[4].

كانت القوافل التجارية باتجاه السودان الغربي عموما ومملكة سونغاي على وجه الخصوص تخترق الصحراء من جميع جوانبها من مراكز التجارة الانفة الذكر بالشمال الى مراكز التجارة بجنوب الصحراء وباتجاه عكسي في مرحلة ثانية أيضا، وكانت هذه المسالك الصحراوية عديدة غير ان المشهور منها على هذه الفترة ست طرق وهي كما أوردها عبدا لقادر زبادية:

-من سجلماسة ينطلق طريق الى ولاته ومنها الى تمبكتو وجني وغاو

1- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص405.

2 - لمعرفة اهم المدن التجارية والحواضر انظر الملحق رقم 02.

3- بوفيل: المرجع السابق، ص145.

4- زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوربي في افريقيا الغربية جنوب الصحراء، المرجع السابق، ص28.

-من تلمسان ويمر هذا الطريق بغرداية وتوات وينتهي الى تمبكتو

-من تكرت وورقلة، ينطلق طريق آخر الى غاو قبل ان يمر بغات وغادس، وهذا المسلك يتصل شمالا ببعض الموانئ الجزائرية الهامة في الشمال مثل الجزائر وبجاية وعنابة وغيرها[1].

-من واحة الجريد في الجنوب التونسي ينطلق طريق غالبا ما تمر قوافله عبر سوف وورقلة او غدامس[2].

-من طرابلس الغرب ينطلق طريق يمر بغدامس ويتفرع منه آخر ليمر بفزان وينتهي الى بورنو وغاو[3].

-طريق ينطلق من مصر يمر بواحة سيوة وبزويلة وتادمكة وينتهي الى غاو وتمبكتو[4].

ويذكر ابن خلدون دائما انه وفي آخر عهده –أي الفترة السابقة لقيام مملكة سنغاي–أصبح الطريق القديم والممتد من ناحية السوس الى ولاته قد أهمل لما أضحت الاعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها، فتركوا ذلك الطريق وسلكوا الطريق الى بلاد السودان من اعلى تمنطيط بتوات[5].

وبذلك يأتي عهد الاسقيين في سونغاي وقد أصبحت الطريق الهامة التي تمر بتوات وتنطلق منها، وتجهز منها أكبر القوافل التي تقصد السودان من بلاد المغرب، وفي هذه الفترة كون التواتيون جالية

1- زبادية: المرجع السابق، ص28.

2- نفســــــه: ص29.

3- يحي بوعزيز: **تاريخ افريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر الى مطلع القرن العشرين**، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص42.

4- زبادية: المرجع السابق، ص30.

5-ابن خلدون: المصدر السابق، 120.

كبيرة وجدهم المغيلي لما زار مملكة سونغاي سنة 1502م على أيام الاسقيا الحاج محمد الأول يشكلون نسبة كبيرة من التجار الأجانب والائمة والفقهاء هناك[1].

في حين نجد ان بقية الطرق والمسالك استمرت على عهدها الأول من النشاط في أيام حكم الاسقيين، ويرجح انها ازدادت ازدهارا بتوارد البضائع الأوربية على المغرب، وبذلك أصبحت البضائع أكثر كمية وتنوعا من ذي قبل، ونفس الامر ينطبق على الطريق التجاري القادم من الشرق والذي بلغت فيه دولة المماليك في مصر درجة قصوى من التعامل مع السودان سواء بتصدير البضائع او توريدها، وقد استمرت القوافل التجارية المصرية والسودانية تجوب الصحراء حتى بعد القضاء على دولة المماليك واحتلال العثمانيين لمصر سنة 1517م[2].

وانطلاقا مما سبق نجد ان حركة القوافل التجارية بلغت اوج قوتها في فترة حكم الاسقيين عبر الطرق المتعددة من الشمال الى الجنوب والعكس والتي كانت تتفرع عنها عديد الطرق الأخرى خاصة اتجاه بلاد السودان، مع الإشارة الى ان هذه الطرق وان كانت تقلصت بعد الغزو السعدي لسنغاي فان حجم التجارة والمبادلات استمر بعد ذلك برغم تقلص الأسواق بفعل المبادلات التجارية الأوربية الأطلسية حيث حلت الكارافان محل القافلة.

2-3 تنظيـــــم الأســـــــــواق:

بالعودة إلى الدراسة التي قدمها شارل مونتاي حول أسواق السودان ومدينة جني على وجه الخصوص، توصل هذا الأخير إلى أن الأسواق أصبحت لا تنعقد إلا بحضور الأمناء والموثقين والمترجمين، والذين

1-زبادية: المرجع السابق، ص31.

2-نفســه، ص31.

يتم تعيينهم بالمراكز التجارية الكبرى مثل تنبكت وجني وكاغ وذلك بقصد الإشراف على التجارة واستخلاص الواجبات بها، حيث يعلن هؤلاء عن افتتاح السوق باسم الأمين وأمناء الحرف، مباشرة بعد صلاة الفجر ليوم السوق أسوة بما كانت تعرفه الأسواق العربية في الشمال، وكان للأمناء مساعدين في قمع الغش وردع كل من يحاول الإخلال بالنظام أو التطفيف في المكاييل والموازين، وحسب مونتاي دائما يخصص لكل بضاعة رواق خاص بها ولا تباع في مكان واحد[1].

نفس الامر تناوله جبريل تمسيرنيان في معرض حديثه عن مدينة جني، إذ وصف سوقها على أنه يتشكل من عدة أروقة وكل واحد منها متخصص بتجارة معينة وحدها دون غيرها، فمنها المخصصة لبيع القرع ومنها للفخار وأخرى للأسماك والملح وثالثة للمصنوعات الجلدية والحديدية والنحاسية والأثواب والفخار والتوابل والكولا والعاج وريش النعام والصمغ والعبيد[2].

3-2 المقايـــيـــس والموازين والمكاييل:

منذ وصول التجار المسلمين إلى بلاد السودان الغربي، اعتمدت المقاييس الإسلامية لقياس المساحات أو المواد الصلبة والسوائل، ونجد من ذلك على سبيل المثال لا الحصر المد النبوي، والذراع

1- Monteil , CH , une cite Soudanaise Djenne, institut international Africain, Paris, 1971, p62.

انظر أيضاً مبارك آيت عدي: المرجع السابق، ص 95.

2- Niane, p, T, le Soudan Occidental au temps des grands empires XIe- Vx, Paris, 1975, p80.

انظر ايضاً مبارك آيت عدي: المرجع السابق. ص 95.

والشبر، والقدم والأوقية والصاع وغيرها، وانفرد شارل مونتاي بلائحة لبعض المكاييل والموازين، التي نقلها الرماة (اللارما) إلى مدينة جني وغيرها من المدن السودانية منها:

الذراع: يستعمل لقياس الأثواب والنسيج الذي ازدهرت تجارته بالسودان مع دخول المغاربة والمسلمين إلى هذا البلد، وهو الامتداد بين عقدة المرفق ونهاية الوسطى يساوي حوالي 50سم.

الشبر: وهو المسافة بين الإبهام والخنصر، وقدره حوالي 21.5سم تقريباً[1].

القالة: يقول انها انتشرت ربما بدخول الصناع المغاربة إلى السودان بعد الغزو يقول السعدي والذين يعود إليهم الفضل في صناعة الحياكة في تنبكت وجني والتي يبلغ طولها 50 سنتيمتراً في جني وديا.

المــد: رغم اختلاف قياسه من منطقة لأخرى داخل سونغاي، فقد ذهب مونتاي إلى أن المغاربة هم من ادخلوا هذا القياس على السودان منذ قرون عدة، وكان المد عندهم يعادل 44 حفنة من الذرة المسماة بكاجات[2].

ولم يكن الأوروبيون المؤرخون الغربيون وحدهم من تناول هذه المقاييس فقد وردت لدى العديد من المؤرخين مثل محمود كعت والسعدي والتمبكتي وغيرهم، ففي قياس المسافات بين القرى والمدان استعملوا:

الميــــــل: وهو وسيلة لقياس المسافات بصورة خاصة وقدر ب 1920متراً.

الفرسخ: وهو وسيلة لقياس المسافات الطويلة وكان يساوي ثلاثة أميال 3x1920 =5760متراً.

1- زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، المرجع السابق، ص 53.

2 - Monteil, cH, une cite Soudanaise Djenné,Métropole du delta central du Niger, Société d'Editions géographiques, maritimes et colonials, paris, 1932, p281.

أما المكاييل التي كانت تستخدم فهي:

المـــــد: ويساوي سعة أربع ألواح بجمع اليدين، وقدر بما يعادل 5.75سم أي ما يعادل لتراً تقريباً.

الصاع: ويساوي أربعة أضعاف المد. أي ما يعادل ثلاثة لترات تقريباً.

القنطار: ويقدر بمائة رطل تقريباً.

المودي: وهو يساوي ما يحمله العبد من حبوب أو غيرها في كيس كان يتخذ من الجلد.[1]

أما الأوزان فنجد منها:

المثقال: ويساوي أربعين درهماً.

الدرهم: ويساوي أربعة أعشار الدينار.

الوقية: وهي تقدر بحوالي 28.5 غرام تقريباً[2].

3-3 **العمـــــــــلات**:

إن الحركية التجارية واتساع نطاق تبادل المواد والسلع بين البلاد العربية مع إفريقيا جنوب الصحراء فرض على هذه الاخيرة ضرورة التعامل بالعملات الأكثر تداولا وطلباً بين تجار تلك الفترة، فقد عرف سكان بلاد السودان النقود الذهبية منذ فترة مبكرة حسب ما أشار إليه البكري في القرن 05هـ الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد، إلى استعمال الدينار في تادمكة إذ يقول: " ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة"[3].

1- زبادية: المرجع السابق، ص54.

2 - نفســـــه: ص55.

3- البكري: المصدر السابق، ص 181. انظر أيضاً مطير سعد غيث: التأثير العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص 147.

ورغم عدم وقوف الباحث على ما يوضح وزن الدينار في السودان الغربي فإنه وبالعودة إلى النصوص التاريخية نجد ان وزنه كان على نفس الوزن المعمول به في المشرق آنذاك وهو مثقال واحد، ويذكر ابن بطوطة أثناء زيارته لمالي حيث قال إن سعر الخيل والملح كان يقدر بالمثقال بالإضافة إلى أنه قدر عطايا منسى موسى التي كان يغدقها على الشخصيات الهامة في دولته بالمثقال[1].

وعن تداول أهالي السودان الغربي للعملات الذهبية في بداية القرن السادس عشر يذكر حسن الوزان " والعملة الراجحة عند هؤلاء السودانيين هي الذهب غير المسكوك"[2]، كما يصف لنا في لفتة أخرى الكميات الهائلة من النقود والسبائك الذهبية فيقول:" ... ويملك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية ... تستعمل قطع الذهب الخاص بدلا من العملة المسكوكة"[3].

لم تكن العملة الذهبية الوحيدة في التعامل بين أهالي بلاد السودان الغربي بل عرفت المنطقة عملات فضية ونحاسية أيضاً حيث أورد ابن بطوطة" أن أهالي السودان يتصارفون بالذهب والفضة"[4]، ويبدو ان التعامل بالنحاس لم يكن واسع الانتشار حيث لم نقف من خلال المصادر على إشارات إلى هذا التعامل باستثناء ما أورده ابن بطوطة في النحاس الذي يستخرج من تكدا، إذ أن كل مثقال من النحاس يباع بست وستين مثقالا وثلثي مثقال ذهب[5].

1- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 449.

2- الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 163.

3- نفســــــه: ص ص 166-167.

4- ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 441.

5- مطير سعد: الثقافة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 354. انظر أيضاً القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص 291.

ويبدو أن النقود الحديدية كانت منتشرة بدورها، وقد ذكر حسن الوزان في معرض حديثه عن مدينة جني أن من العملات الرائجة عندهم "قطع الحديد لشراء أشياء تافهة كاللبن والخبز والعمل، وتزن هذه القطع رطلاً أو نصف رطل أو أربعة"[1]، ولم يقف على تحديد قيمة هذه العملة الحديدية مقابل غيرها من العملات.

ومن بين العملات التي اصبحت أكثر رواجاً واستعمالا الودع[2]، الذي وصل إلى السودان الغربي مبكراً عن طريق تجار الشمال الإفريقي، وقد تحدث العمري في القرن الثالث عشر الميلادي، أن الودع أصبح عملة معترف بها في السودان الغربي حيث يقول" .... أخبرني بن أمير حاجب أن المعاملة في بلاد التكرور بالودع وأن التجار كثر ما يجلب إليهم الودع ويستفيدون به فائدة جليلة"[3].

ويعتقد موني أنه وبقدوم الاوروبيين للساحل الغربي لإفريقيا جنوب الصحراء حوالي القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد جلبوا معهم الودع من الهند ونافسوا في ذلك التجار المغاربة[4]، ويظهر ان التعامل بالودع استمر حتى دخول السعديين لبلاد سونغاي فقد أخذ القائد مامي من قبائل الزغرانين من مائتين إلى اربعمائة ودعة، كما أصبح المثقال من الذهب في تنبكت يصرف بثلاثة آلاف ودعة، كما أن عشر ثمرات صارت بخمس ودعات[5].

1- الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 163.

2- الودع: عبارة عن فصيلة من أصداف بحار المناطق الحارة يعيش بداخلها بعض القراقع المائية ويتكون جسم الصدفة من كربونات الجير، بحسب ما جاء بموسوعة الثقافة العلمية مادة (صدفة) ويسمى الودع أو الكوري.

3- العمري: المصدر السابق، ص17. انظر ايضاً مطير سعد غيث: الثقافة العربية الإسلامية في بلاد السودان الغربي، المرجع السابق، ص 355.

4 - Mauny-op cit, p.43.

5- كعت: المصدر السابق، ص 158.

بقي ان نشير انه من الصعب جدا الإحاطة بكل المظاهر العربية الإسلامية السياسية منها والاقتصادية من خلال ثنايا هذا البحث وانما حاولنا اماطة الستار عن بعض منها تمكن الباحث مستقبلا من تناول احداها والتفصيل اكثر من خلالها، خاصة وان هذه الملامح المقدمة امتزجت فيها التأثيرات الوافدة بما عرفه السوادين، الا ان غلبة التأثير على حساب الموروث المحلي جعلنا ندرس تلك التأثيرات وكأننا نتناول بالدراسة لمنطقة عربية تأخر فيها مجال الاندماج الحضاري عن الفترة الوسيطة التي عرفت قمة ما وصلت اليه الحضارة العربية الإسلامية.

وبذلك نجد ان ذروة الرقي في الحياة السياسية والازدهار في الحياة الاقتصادية عرفته ممالك بلاد السودان الغربي في ظل انتشار الإسلام وسيادته، وبالأخص في مملكة سنغاي على عهد الاسقيين وعلى راسهم الاسقيا محمد الأول، هذا الأخير وبفضل احتكاكه وارتباطه بعلماء بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين من امثلة السيوطي والمغيلي هذا الأخير وضع له اسسا ومبادئ إسلامية تمكنه من حكم بلاده وتكون وثيقة سياسية يحتكم اليها من يأتي بعده، تلك الأسس والمبادئ حملتها الينا الوثيقة المشهورة تحت مسمى أسئلة الاسكيا واجوبة المغيلي، ولم يتوقف ذلك التطور الاقتصادي عند توسيع التجارة مع بلاد المغرب وازدهارها، بل تعداه الى ان نلمس التأثير في الحرف والزراعة وغيرها من اشكال التأثير الاقتصادية الأخرى.

ويبقى ذلك التطور الاقتصادي والسياسي ذو الأرضية العربية والمغاربية حبيس الفترة إذا لم ينعكس على الحياة الاجتماعية والثقافية للملكة. ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في الفصل القادم.

الفصل الثاني

مظاهر التأثير الإسلامية والمغاربية في الحياة الاجتماعية والثقافية لمملكة سونغاي ما بين 1493م-1750م

أولاً: مظاهر التأثير في الحياة الاجتماعية

1- العادات والتقاليد الاجتماعية

2- الاحتفال بالمناسبات والاعياد

3- العمران والفنون

ثانياً: مظاهر التأثير في الحياة الثقافية

1- التعليم

2- الحركة الفكرية وأعلامها

3- نماذج لبعض العلماء

4- المراكز العلمية

إن الواقف على أوضاع المجتمع السوداني، ومملكة سنغاي على وجه الخصوص خلال الفترة الوسيطة وبداية الحديثة يدرك جلياً ذلك التحول الذ عرفته المنطقة بفضل الإسلام والمسلمين من خلال ما أحدثوه من تغيير جذري في مناحي حياتهم الاجتماعية والثقافية من القضاء على بعض العادات والتقاليد الوثنية الى توجيه وتهذيب البعض الآخر منها، هذا الأثر الإسلامي العربي في المجتمع السوداني لم يتوقف على فترة محددة خلال القرن 14و 15 و16 بل تعداه حتى فترة التواجد المغربي في السودان الغربي برغم ما حمل تواجد هذا الأخير من انقسام لدى المؤرخين والباحثين.

إن التأثير في الحياة الاجتماعية لأهالي سونغاي انعكس عليهم اقتصاديا وثقافيا، حيث أن التغيير في سلوك الفرد السوداني الأخلاقي منه أو المعيشي الاستهلاكي يظهر أثره جلياً في مختلف مناحي الحياة.

أولا: الحيـــــــــــــاة الاجتماعية:

إن التحول الاجتماعي عملية مستمرة ما وجدت الحياة الانسانية، على أن ذلك التغير يخضع لمجموعة من المؤثرات الداخلية والخارجية تؤثر عليه سلباً وإيجاباً بقدر عملية التأثر والاندماج، ولعلّ ذلك ما نلمسه أيضاً في المنطقة محور الدراسة، إذ أن بلاد السودان الغربي بشكل عام وسنغاي على وجه الخصوص عرفت جملة من التغيرات الهامة في مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من العادات والتقاليد والاحتفال بالمناسبات الدنية وغيرها.

1-العـــــــادات والتقـــاليد الاجتماعية:

من الصعوبة بمكان أن يتخلى ولو جزئيا المرء عن عاداته وتقاليده سواء أكانت سلبية أو إيجابية، ذات قيمة أو دونها، والمجتمعات عادة ما تقدس العادات وترسم لها مكانة عالية لا يمكن التنازل عنها في أي وقت من الأوقات، وبدخول الإسلام إلى بلاد السودان وقع أهالي المنطقة بين الأخذ بالإسلام كاملاً وبين المحافظة على بعض التقاليد والإيحاءات الوثنية والباطلة، فخلف ذلك المزيج والذي كان على نطاق محدود وبين فئات محددة ما أطلق عليه الأوروبيون فيما بعد إسم الإسلام الأسود أو الإسلام الإفريقي.

إن تأثير الإسلام على الحياة الاجتماعية لبلاد سونغاي يظهر في استحداث الكثير من النظم وإبطال أخرى، ومن أمثلة ذلك ما نلمسه في:

1-1 الأسرة والزواج:

قبل مجيء الإسلام لم يعرف مجتمع السودان الغربي نظاماً أسرياً أو قوانين تحكم الارتباط بين الرجل والمرأة، حيث اتسمت بالفوضى، فلا يوجد تحديد لعدد الزوجات حتى أن المرأة الواحدة يجتمع عليها أكثر من رجل، كما أن الشائع بينهم ان الزواج يتم من غير صداق[1]، ونجد أن الزواج أيضاً كان

1- مطير سعد: الثقافة العربية الاسلامية، المرجع السابق، ص 368. انظر أيضاً الوزان: المصدر السابق، ص ص 159-160. انظر أيضاً مارمول كربخال: **افريقيا، تر محمد حجي ومحمد الزنيبر وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،** 1984 ج3، ص169.

ينحصر داخل العشيرة الواحدة حفاظاً على تماسكهم، وكان الرجل ينسب إلى أمه، نظراً لكون الأم هي الأعلى مكانة في النسيج العائلي[1].

بمجيء الإسلام ورسوخه في أذهان السودانيين ظهر أثر ذلك جلياً على الأسرة السودانية وبالأخص الزواج الذي جاءت احكام الشريعة لتقننه وتحدده، وبالمقابل تخلصه من العادات القديمة والباطلة، هذا التأثير لم يتوقف عند الزواج والمصاهرة بل تعدّاه لأن يتخلى السودانيون عن اسمائهم السابقة واكتساب اسماء عربية ذات دلالة إسلامية، وأصبح الرجل ينتسب لأبيه بدلاً من أمه[2]، ولئن كان الإسلام قد سمح بتعدد الزوجات في حدود الأربع فإن بعض ملوك بلاد السودان وسنغاي قد تجاوزوا ذلك الحد في بعض الإشارات التي تناولتها بعض المصادر وإن كان ذلك محدوداً.

ونظراً لمكانة التاجر والفقيه العربي المسلم فقد كان التجار والفقهاء يتزوجون ببنات الملوك والأثرياء مما فتح باب المصاهرة وزيادة الاختلاط والاندماج، ويذكر حسن الوزان عند زيارته المنطقة أن الأسقيا محمد الكبير قام بتزويج اثنتين من بناته لتاجرين وافدين إلى المنطقة إذ قال:" ... والسكان أغنياء مترفون ولا سيما الأجانب المقيمين في البلاد حتى أن الملك الحالي (ويقصد الأسقيا محمد الكبير) زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما"[3]، ويذكر كعت في نفس السياق أن الشريف أحمد الصقلي

1- مطير سعد: التأثير العربي الإسلامي، المرجع السابق، ص214. انظر أيضاً مطير سعد: الثقافة العربية الاسلامية، المرجع السابق، ص369.

2- مطير سعد: الثقافة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 369. انظر ايضاً نعيم قداح: **افريقيا الغربية في ظل الاسلام، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1974، ص 94.**

3- حسن الوزان: المصر السابق، ج2. ص 166.

تزوج في تنبكت من امرأة مغربية في بلاد السودان تدعى زينب وأنجب منها مزاراً ومحمداً وسليمان ورقية وينبت[1].

وقد نتج عن الزواج بين العرب والسودانيين والبربر أن مواليدهم كانوا ذوي بشرة سوداء مع تقاطيع دقيقة آربة[2]، ويشكل هذا التزاوج والاختلاط والاندماج أحد أرقى صور التسامح والتواضع الديني دون إكبار واستعلاء، ولم يكن الاختلاط استغلال أو مصلحة بقدر ما كان مدعاة لتقوية الوحدة السياسية والتطور الحضاري في غرب إفريقيا[3].

1-2 المـــــــرأة:

تمثل المرأة عصب التأثير في الجانب الاجتماعي نظرا للدور الذي تلعبه محليا إن في فضاء بيتها أو خارجيا في تحمل المشاق بمساعدة زوجها، وقد قامت المرأة في عهد سنغاي بدورها الطبيعي على أكمل وجه حيث تقضي معظم وقتها في المنزل تطبخ الطعام وتطحن الدقيق وتحيك القطن والصوف وتملأ الماء وغير ذلك من الأعمال المنزلية، ولم يقتصر دورها على المنزل بل تعدته للعمل في الفلاحة إلى جانب زوجها[4]، ويلاحظ أن التزام أهل سنغاي بعقيدتهم بعد أن أضحى الإسلام ديناً رسمياً للدولة بداية من عهد الأسكيا محمد الكبير قد أحدث تغييراً كبيراً في تركيبة المجتمع في السودان الغربي

1- كعت: المصدر السابق، ص 223.

2 - Dubois, Felix, Timbuctoo the Mysterious, translated From the French by Diana white, New York, 1969. P270.

3- أحمد سيد حسين دروسني: **دور المرأة السياسي والحضاري في دولتي مالي وسننغي**، رسالة مقدم لنيل الماجستير، إشراف عبد الله عبد الرزاق قسوم، غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة، سنة 2007. ص 115.

4- جميلة التكيتك: المرجع السابق، ص 196.

فقد تخلى هذا المجتمع تدريجياً عن عادة نظام الوراثة عن طريق الأمومة وأصبح الناس ينتسبون إلى آبائهم حسب ما جاء به الإسلام، ويعد الأسكيا محمد الكبير أول حاكم في بلاد السودان يجبر النساء على اتباع قواعد الإسلام من ناحية الزي والاختلاط، وكان أول من حكم بحرية ابن الرجل من زوجته الأمة، وكان هذا الابن قبل الأسكيا محمد الكبير يتبع لأمه[1].

ويبدو أن للمرأة حرية واسعة في مجتمع سنغاي، فالفلاحة كن يعملن بالحقل مع ازواجهن، حيث يقمن بإيصال الغداء للحقل خلال النهار، وبعض النساء كن يتاجرون بالسوق ويبعن خاصة الأغذية والألبسة والمجوهرات.

وعن علاقات النساء بالرجال فلا يبدو أنها تأثرت كثيراً لدى العامة بالإسلام، ولذا كانت معاشرة غير الحرائم منتشرة بكثرة في المجتمع، وكان لكثير من الرجال خليلات يتسرون بهن، كما كان لكثير من النساء أخلاء كذلك.[2]، وهذه الظاهرة حتى وان كان قد نقلها الينا ابن بطوطة في رحلته الى بلاد السودان ومكوثه في مالي، فإنها استمرت بعد ذلك كما تذكر المصادر التي أعقبت في القرون الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، الا انها لا تعدو ان تكون اكثر من ظاهرة استمرت لدى البعض قد تنقص من اسلامهم وتبرز محدودية تدينهم وسطحيتهم في التعامل مع احكام الشريعة، الا ان ذلك لا ينفي تمسكهم بالإسلام و بأحكام القرآن.

1- أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 266. انظر أيضاً جميلة التكيتك، المرجع السابق، ص 197.

2- السعدي: المصدر السابق، ص 169. انظر أيضاً كعت: مصدر سابق، ص 97. أيضاً زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين، المرجع السابق، ص ص 129-130.

ولم يؤثر اقحام الإسلام في مؤسسات الدولة على سلوكيات الأساكي بل كرس البعض منهم ظاهرة تعدد السريرات خارج نظام الزواج الشرعي، فقد كان للأسكيا محمد الأول نساء كثيرات الأمر الذي جعله يخلف أولاداً كثر، وحاول كعت أن يضع لائحة كاملة لأسمائهم لكن دون جدوى وفي ذلك يقول: "وهذا ما حضر لي الآن ويبقى أكثرهم وأغلبهم ابناء الجاريات"[1]، في حين خلف الأسكيا داوود ما يناهز المائة بين ذكور وإناث[2].

ومما يفيد قوة تفشي التقاليد الوثنية المتعلقة بالحياة الجنسية، إبان فترة حكم الأساكي ما ذكره كعت " من أن الأسكيا موسى بعد خلفه لابنه عن السلطة استولى على جميع ممتلكاته بما في ذلك جواريه وسراياه اللواتي حبسهن عنه لنفسه"[3]، ومن المظاهر الأخرى التي تدل على احتواء الوثنية للإسلام استمرار عراء النساء الأبكار حرائر وابناء حتى بنات الملوك والقضاة[4].

ومما يبرز بلا شك تأثر المرأة السودانية بالإسلام الوقوف على بعض تعاليمه، ومنها ارتداء الحجاب فقد تأثر الحجاج الأفارقة بما شاهدوه من تحجب للنساء اثناء تأديتهم لمناسكهم، وعند عودتهم لبلادهم سعوا إلى إلزام نسائهم بالحجاب، وهذا دون إغفال دور القبائل العربية والبربرية التي هاجرت إلى بلاد السودان[5].

1- كعت: المصدر السابق، ص81.

2- نفســــه: ص ص 117-118. انظر أيضاً بنرمضان زوليخة: المرجع السابق، ص 342. انظر أيضاً أحمد حسين دروسني: المرجع السابق، ص 32.

3- كعت: المصدر السابق، ص83.

4- المغيلي: المصدر السابق، ص 63. انظر أيضاً بنرمضان زوليخة: المرجع السابق، ص 344.

5- مطير غيث: التأثير العربي الإسلامي، المرجع السابق، ص 159.

1-3اللبـــــــاس:

يمثل اللباس ضرباً من الأناقة التي تزيد صاحبها احتراماً في أعين الناس ولذا كان الوجهاء يحرصون على أن يظهروا في لباس زاهٍ فضفاض أمام العامة[1]، واعتاد أهل سنغاي تأثراً بالإسلام وشعائره على ارتداء أحسن البستهم في أيام الأعياد وكانت النسوة يتزينّ بودع يلصقنه برؤوسهن وصدورهن وبأقرطة عريضة يضعنها في الآذان وبخلاخيل يضعنها في أرجلهن، وقد يتحلين بأشياء أخرى خفيفة مستديرة أو مربعة في صدورهن غالباً ما تكون من زجاج أو من نحاس، كما كانت عادة وضع حلقة في طرف أحد المنخرين وهي عادة شائعة بين الحرائر من النساء[2]، وكان على أيام الأسيقيين في سنغاي لا يزال لباس الجلود منتشراً بين العامة وخاصة خلال فصل الشتاء وفي مناطق الصحراء في الشمل الشرقي من البلاد[3].

أما الملك وأفراد حاشيته من كبار الموظفين يتزينون بأسوار ذهبية وسلاسل من ذهب أو نحاس في أيديهم وعلى صدروهم[4]، ويلخص القلقشندي طريقة لبس السودانيون في اظهار لتأثرهم بالنمط المغربي بقوله "لباسهم عمائم يحنك مثل العرب وقماشهم بياض من ثياب قطن تنسج عندهم في نهاية الرقة واللطف تسمى الكميصا، ولباسهم شبيه بلباس المغاربة جباب ودراريع بلا تفريج"[5]. وكان الأسقيا داوود يرتدي ملابس مغربية عالية الجودة منها قميص سوسي وكان هذا القميص غاليا ولونه

1- السعدي: المصدر السابق، ص 33. انظر أيضاً كعت: المصدر السابق، ص 81.

2- زبادية: سنغاي في عهد الأسيقين، المرجع السابق، ص 126.

3-نفســــــــه: ص 132.

4-نفســــــــه: ص 126.

5- القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص 259. ينظر أيضاً العمري: المصدر السابق، ص 39.

أزرق، وكذلك قميص سوسي آخر ولونه أخضر، ولم يقف الأثر عند هذا الملك بل أن عبيده الذين يقفون بين يديه يوم الجمعة كانوا يلبسون ملابس حريرية[1].

ومما أجمع عليه الباحثون أن أهالي مملكة سنغاي تجاوزوا مرحلة العري منذ زمن طويل وأصبح معظم الناس يقتنون الملابس متأثرين بالقيم الإسلامية وبما أحدثه الدين من تغير في سلوكياتهم اليومية[2].

اما عن لباس الجيش وطبقة الفرسان فقد كان يتجدد بحسب قوة وشجاعة الفارس، إذ كان الفارس يكافأ نظير تفانيه في الدفاع عن المملكة بلبس الأساور والأطواق والخلاخل الذهبية حسب شجاعتهم، أما لباس الفقهاء والأئمة فكان عبارة عن ملابس طويلة مع لثام أبيض[3]، ودأب أئمة وفقهاء المنطقة بعد ذلك على ارتداء العمامة والتي كانت تضفي على صاحبها مكانة عالية واحتراماً كبيراً[4].

أما ملابس النساء فتختلف حسب كل منطقة ومدينة، فنساء مدينة جني مثلاً كنّ يتلثمن بلثام كبير من القطن مصبوغ باللون الأزرق أو الأسود، يغطين به رؤوسهن، في حين كان نساء تمبكتو متحجبات يرتدين اللثام باستثناء الإماء[5].

ويظهر مما سبق أن اهتمام أهالي السودان باللباس وستر عوراتهم كان مع انتشار الإسلام ودخوله للمنطقة فسكان سنغاي لم يختلفوا عمن سبقهم من أهالي مالي من ارتدائهم للأبيض من الثياب

1-كعت: المصدر السابق، ص 114.

2- مطير سعد: التأثير العربي الإسلامي، المرجع السابق، ص 161.

3- الوزان: المصدر السابق، ص 163.

4- مطير سعد: الثقافة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 162.

5- الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص 37.

خاصة في الجمعة والأعياد، فلا تكاد تميز بين العربي قاطن الصحراء وبين السوداني من سنغاي من حيث اللباس ووحدته ونظافته.

1-4المســـــــــكن:

كان يغلب على مساكن أهالي سونغاي في عهد الأسيقيين البساطة وعدم التكلف، حيث كان الفلاحون يبنون مساكنهم في حقولهم أو أنهم يتجمعون قرب الآبار والينابيع أو على حافة النهر أو بعض روافده[1]، وتمثلت مواد البناء الأساسية في الأخصاص وفي الجير الطبيعي أو الاصطناعي، وكانت غالبية البيوت على شكل دائري ينتهي بقبة حادة الوسط ومرتفعة[2].

كانت مادة بناء الأكواخ للفقراء في المدن أو القرى الاخصاص أو المسقوفة وقد كانت تشكل نسبة وجودها في تنبكتو سنة 1510م أكثر من نصف المدينة[3]، لذلك اقتصر البناء بالجير الاصطناعي أو بالطوب للموسرين وحدهم تقريباً[4].

بالمقابل كانت قصور الملوك والمساجد تمتاز باتساعها واحتوائها على عدة مداخل ونوافذ، كما كانت تزينها الاقواس، وهي بذلك لا تخرج عن تجليات الطابع الإسلامي فيها، وما يميز المساجد أيضاً استعمال الحجارة في بنائها دون غيرها، في حين كانت الخيام هي السمة الغالبة على مساكن سكان الصحراء من شمال سنغاي نظير تنقلهم المستمر في بحثهم الدائم عن الكلأ لأنعامهم[5].

1- الدالي: المرجع السابق، ص 130.

2- الوزان: المصدر السابق، ص 81.

3- نفســــه: ص82. انظر أيضاً زبادية: المرجع السابق، ص 131.

4-Delafosse, Op.cit. P91.

5- زبادية: المرجع السابق، ص131.

وحسب حسن الوزان كانت العاصمة جاو أدنى مرتبة من الناحية العمرانية في تنبكتو فهي في الغالب تحتوي على مجموعة قرى متناثرة بدائية في مبانيها[1].

وفي فترة التواجد المغربي بسنغاي نقل الرماة إلى هذا البلد مختلف أدوات البناء المعروفة بالمغرب، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أسهموا في بناء مجموعة من المنازل على الطراز المغربي الفاسي والمراكشي والصحراوي، وهذا ما يظهر من خلال ابواب البيوت والنوافذ التي كانت تزين بالمسامر والنقوش والسّبائك المحفورة والتي تقدم مثلاً صارخا عن ابواب منازل المغرب وشبابيكه[2].

وقد تناول فليكس ديبوا في معرض حديثه عن تأثير المغاربة في النسق المعماري لبلاد السودان أن المقيمين منهم بنوا بالسودان منازل وقصوراً جديدة تتميز بجمالية فائقة تفوق منازل أهل المدينة الهشة وغير الصلبة[3].

وقد ميز نفس الباحث بين مرحلتين من المؤثرات الأجنبية في ميدان العمران داخل السودان مرحلة التأثير الفرعوني ومرحلة التأثير المغربي، وهذا الأخير هو من وصل إلى قمته مع وصول الباشوات المغاربة إلى السودان[4]، وهو نفس ما توصل إليه شارل مونتاي حيث أكد بدوره على أن المنطقة عرفت ظهور منازل من طراز مغربي في جهات كثيرة داخل بلا السودان تتميز بجدرانها السميكة وبسقوفها المسطحة التي تستغل للنوم في الصيف وهي مقاومة لمختلف المؤثرات الطبيعية لفترات زمنية

1- سعد مصطفى: **"ليو الإفريقي" مجلة جامعة القاهرة-الخرطوم-. العدد 1، 1970م، ص 49**. انظر أيضاً جميلة التكيتك: المرجع السابق، ص 198.

2-Dupuis، Y، Op.cit, p26.

3-Dubois, f ,Op.cit, pp 174-175.

4- Ibid, pp 174-175. انظر أيضاً مبارك آيت عدي: المرجع السابق. ص 93.

طويلة، وتنقسم هذه المنازل إلى جزأين كبيرين، الأول مخصص للأسياد والضيوف والثاني مخصص للعبيد وللنساء وللمخازن ولإعداد الطعام، أما الطابق العلوي إن وجد فيخصص غالباً للنوم والمسامرة وهذا التصميم الغالب نفسه في الطراز المغربي والأندلسي[1].

5-1 الأكل والأطعمـــــة:

اهتم أهل سنغاي بطعامهم، الذي كان متنوعاً بتنوع مصادره الأولى من الحبوب والبقول والخضراوات وتنوع أنواع لحوم الحيوانات والطيور والأسماك ويعود ذلك لغنى سنغاي بالثروة الحيوانية والسمكية[2]، ومن أشهر الأطعمة التي عرفوا بها السمك وأطباق الأرز وهو طعام غالبية السكان، بينما كان طعام الأغنياء عبارة عن لحوم الغنم والبقر والحمام وغيرها، ولا يدخل الأرز إلى مطابخهم إلا بشكل ثانوي، وقد انتقلت العديد من الأطعمة التي كان معروفة في بلاد المغرب إلى السودان الغربي والتي تكون قد وصلت الى سنغاي عن طريق العائلات المغاربية المهاجرة ومنها الكسكسي المصنوع من القمح والشعير والذرة ويمثل الأكلة المفضلة على موائدهم إضافة إلى لحم الغنم المشوي أو الملفوف في شرائح من العجين، ومعه أصناف من الأطعمة من دقيق القمح[3].

وأورد شارل مونتاي الأطعمة التي طورها المغاربة في السودان حيث أشار إلى الخبز بمختلف أشكاله والمصنوع من دقيق الأرز والمدهون بسمن البقر والماعز ويؤكل بمرق اللحم يسمى محلياً "الدواز" يقدم

1- Monteil, CH, Une Cite Soudanaise, Djenne, paris,1932. P30.

2- جميلة التكيتك: المرجع السابق، ص 198. انظر أيضاً مطير سعد: التأثير العربي الإسلامي، المرجع السابق، ص ص 163-164.

3- الهادي الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، مرجع سابق، ص28. انظر أيضاً مطير سعد: الثقافة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 164.

بالخصوص في المناسبات والحفلات الكبرى، ويعزى انتشار هذه المأكولات حسبه إلى مجموعة من الطباخين المغاربة، الذين اعتنوا بخدمة القواد والذين تأثر بهم السكان المحليون، وبذلك ادخل المغاربة إلى السودان نظاماً غذائياً جديداً يرتكز على المواد الفلاحية المستوردة من قمح وعنب وذرة وثمر وتين ولحوم حمراء وغيرها والتي لم تكن معروفة لدى أهالي بلاد السودان من ذي قبل[1].

2-الاحتفـــــــــال بالمناسبـات والأعيـــــــاد:

عرفت بلاد السودان الغربي وغيرها من الممالك الإفريقية ضروباً وأشكالاً من الاحتفالات والعادات الوثنية قبل الإسلام ميز معظمها الصخب والرقص والغناء سواءً تعلق ذلك باحتفالاتهم السنوية أو الموسمية الرسمية وغير الرسمية، وبمجيء الإسلام وتغلغله بين الخاصة والعامة نجد أن هذه الاحتفالات وإن قضي على الكثير منها، فان ما بقي منها تم تهذيبه وتنظيمه وفق ما يساير الشريعة الإسلامية، هذا بالإضافة إلى المناسبات الدينية كالأعياد والمولد النبوي الشريف وغيرها.

2-1**شهر رمضان:** ميز شهر رمضان المبارك في سونغاي حسب المصادر التاريخية المحلية تعدد أشكال التراحم والتواصل ومساعدة الفقراء والمساكين، ويذكر كعت في هذا السياق " وكان قاضيها في شهر رمضان من كل عام على عادتهم القديمة بصدقاته وهداياه ويفرقها عليهم، وإذا كانت ليلة القدر يأمر بطبخ الطعام ثم يجعل المطبوخ في المائدة ويحملها فوق رأسه وينادي قراء القرآن وصبيان المكتب ويأكلون وهم قائمون تعظيماً لهم"[2]. ويقوم العدول من الرجال بمراقبة الشهر فإذا رؤي الهلال اتجهوا للمشور للإدلاء بشهاداتهم ويحضر العلماء والقضاة صلاة التراويح مع الباشا ويتم قراءة صحيح

1- Monteil, CH,Op.Cit,p 174.

2- كعت: المصدر السابق، ص180.

البخاري بالجامع الكبير ولا ينتهي ذلك إلا بنهاية الشهر[1]، كما يقوم البعض الآخر بقراءة كتاب الشفا للقاضي عيّاض[2].

لقد استمرت هذه المظاهر الإسلامية العربية حتى الغزو المغربي لبلاد السودان حيث كانت تمنح كسوة سنوية للقاضي والمداحين بعد الانتهاء من سرد صحيح البخاري بنهاية شهر رمضان المبارك[3].

2-2عـــــــيدي الفطر والأضحى:

أبدل السودانيون اعيادهم الوثنية والباطلة كغيرهم من بلاد الإسلام العربية بعيدي الفطر والاضحى حيث يتم الإعلان عن رؤية هلال العيد بإطلاق طلقات من مدافع وضعت في تنبكت تشبهاً بما كان يحدث في الشمال الإفريقي وبلاد المغرب[4]، وفي ليلة العيد يقضي الناس جزءاً من ليلتهم في سمر يطيلون السهر، وقد يسمع الغناء في بعض البيوت أيضاً ويشبه أيام الأعياد الدينية يوم تتويج الملك في غاو حيث يبيت معظم الناس بعاصمة سنغاي فيما يشبه العيد، ويسمع الصخب والغناء ودقات الطبول في مختلف أحياء المدينة[5].

ويظهر أن الفرق بين الأعياد الدينية وعيد تتويج الملك تظهر في كثرة الغناء والموسيقى وضربات الطبول في تتويج الملك أكثر منها في مناسبات الأعياد الأخرى[6].

1- مجهول: تذكرة النسيان، المصدر السابق، ص 84.

2- السعدي: المصدر السابق، 266.

3- مجهول: تذكرة النسيان، المصدر السابق، ص 146.

4- الفشتالي: المصدر السابق، ص264.

5- زبادية: سنغاي في عهد الأسيقيين، المرجع السابق، ص 128.

6- نفســـــه، ص 129.

وفي صباح يوم العيد ينطلق الرجال إلى الساحات العامة لتأدية الصلاة وبعدها يتصافح الجميع مهنئين بعضهم البعض بالعيد السعيد، وتقوم الأسر والأفراد بالتزاور والتصدق على الفقراء والمساكين[1].

أما في عيد الأضحى فكانت المدافع تطلق من أبراج قصبة تنبكت وغيرها من المدن الأخرى تماماً مثل ما يحدث في بلاد المغرب[2]، حيث يخرج الباشا الى المصلى في موكبه الرسمي ممتطياً جواده وحوله رجال الدولة وقادة الجيش وحملة الأعلام وأصحاب الموسيقى وتنحر ضحيتا العيد الخاصتان بالباشا والقاضي وتحملان الى المدينة، وتقام ألعاب الفروسية وتصدح الموسيقى في الطرقات ويخرج الناس لمشاهدة تلك الألعاب بملابسهم الجديدة[3].

2-3 المولـــــــد النبـــــوي الشريـــــف:

أخذت الاحتفالات بالمولد النبوي طابعاً خاصاً على شاكلة ما يحدث في بلاد المغرب وبالأخص في المدن الكبرى حيث يخرج الناس ليلة المولد إلى الشوارع يمدحون الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بشكل جماعي ويضربون الطبول ويزينون المساجد ويخرج الناس رجالاً ونساءً معهم حرائرهم وإماؤهم يرتدون أبهر الملابس وقبل ذلك تقام حلقات المديح في الجوامع والمساجد والزوايا والساحات العامة ويمكثون إلى الثلث الأخير من الليل[4].

1- محمد الغربي: المرجع السابق، ص 619.

2- نفســـــه: ص 620.

3- مجهول: تذكرة النسيان، المصدر السابق، ص 140. انظر أيضاً مطير سعد: الثقافة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 380.

4- مجهول: تذكرة النسيان، ص ص 151-152. انظر أيضاً مطير سعد: المرجع السابق، ص 380.

وتذكر المصادر التاريخية أن الفضل في إدخال الاحتفال بالعيد وقراءة الأذكار والمديح على المصطفى المختار صلى الله عليه وسلم تعود إلى الشيخ أبا القاسم التواتي والذي يعد من علماء توات الذين سكنوا تنبكت وعمل إماماً في جامعها الكبير حتى وفاته سنة 935هـ/1528م[1].

وتتحدث المصادر التاريخية على أن أهالي تنبكت كانوا يجتمعون في الأعياد الدينية في ساحة (كلصخ) حيث اتخذوها موضعاً يمدحون فيه النبي صلى الله عليه وسلم[2]، ومن القصائد المعتمدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم قصيدتا البردة والهمزية للبوصيري، والقصائد العشرينيات للفزاري بتخميس ابن مهيب، ودلائل الخيرات للجزولي[3]، وأورد السعدي أن الفقيه محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب التنبكتي المتوفى سنة 1014هـ/1605م، كان ينظم قصيدة في ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم " سنوياً حتى وفاته، ومن الفقهاء الذين عرفوا بمدحه ايضاً القاضي المشهور عمر بن محمود أقيت الذي وصف بمادح الرسول الله عليه وسلم صباحاً ومساءً[4].

2-4 الفـــــــــن والموسيقـــــــــى:

ينطبق المثل الشهير" إذا غربت الشمس رقصت افريقيا" على كثير من المجتمعات الإفريقية المعروفة بحبها الشديد وبميلها الكبير للرقص والغناء، وقد تحدث كثير من المؤرخين والجغرافيين عن حذق ومهارة الأفارقة في الطرب والرقص، فقد أورد القلقشندي أنهم بارعون في الغناء والرقص والموسيقى[5]،

1-مطير سعد: الثقافة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 380.

2- نفســـــه: ص 380.

3- السعدي: المصدر السابق، ص ص 42-43.

4- نفســـــه: ص 03.

5- القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص 224.

وأشار ابن خلدون فيما معناه فطرة وجبلة الإفريقي وقابليته للرقص والغناء بفعل البيئة وطبيعة مناخ المنطقة، ووصفهم مارمول كربخال بقوله" أهل السودان أشخاص يتصفون بالليونة والطرافة وحسن المعاملة والبشاشة يغنون ويرقصون على نغمات طبول ومزامير"[1].

ويتحدث الوزان في نفس المضمار عن أهل السودان بقوله" وقد فطر أهل تنبكتو على المرح وتعودوا على التجول في المدينة بين الساعة العاشرة ليلاً والواحدة صباحاً وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون"[2]، وقد تضمن الغناء مختلف أصناف المدح والغزل والشعر، وأشرك في ذلك النساء والرجال، ومن الآلات المستعملة في الغناء المزمار والدف ومزامير القصبة المتعددة الثقوب[3].

وبعدّ امتداد الحكم السعدي إلى بلاد السودان ادخلت الآلات المغربية الوترية المعروفة مثل الكمبرى، وأنواع من المزامير المصنوعة من القصبة بالرغم من أن الأوزان والسلالم ظلت سودانية صرفه، كما شاع في المنطقة استخدام الصنجات النحاسية والخشبية والرباب والكثبرى والغيطة[4].

ان هذا الامتزاج الفني الموسيقي بين ضفتي الصحراء الشمالية العربية والسودانية الجنوبية جعل التأثير لا يتوقف من الشمال نحو الجنوب بل تعداه لان يحدث العكس في سنوات متقدمة من هذه الدراسة وذلك ما نشهده في وقتنا الحالي من طغيان الطابع الافريقي الموسيقي على كثير من طبوع الغناء العربية.

1- مارمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص 203.

2- الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 167.

3- السعدي: المصدر السابق، ص 87.

4- مطير غيث: الثقافة العربية الاسلامية، المرجع السابق، ص 384.

2-5عـــــــادات الدفن:

إلى جانب الاحتفال بالمناسبات الدينية انتشرت في بلاد السودان الكثير من العادات والتقاليد الإسلامية، ومن ذلك طريقة دفن الموتى، فقبل الإسلام في بلاد السودان كان من العادة في العهود الوثنية أن يدفن الملك ومعه خدمه والمقربون إليه فضلاً عن طعامه وشرابه وحليه.[1]

وبدخول الإسلام وترسخ قيمه لدى السودانيين أصبح الميت يغسل ويكفن بقماش سوسي إذا كان من الطبقات الرفيعة، ويدفن في المقبرة التي توجد في العادة خارج المسجد، وكان الناس يسيرون في جنازة الميت في خشوع كبير ويتصدر الجنازة في الغالب طلبة القرآن ومن يوجد من العلماء.

وفي منزل الميت يقيم أهله وليمة لطلبة القرآن يتلون آيات من القرآن الكريم بمنزل الميت حتى وقت متأخر من الليل، وقد يستمرون على ذلك لعدة ليال وتنتهي أعمالهم في الغالب بتوزيع صدقات عليهم من الألبسة والدخن أو النقود.

ويدفن الميت في الغالب يوم وفاته أو في الغد، إلا أن أفراد الطبقات العليا في المجتمع من البلاط والولاة وبعض الموظفين الكبار كانوا لا يدفنون إلا بعد أيام من موتهم[2]، وكانت لعائلة الأساقي مقبرة خاصة في غاو، أما بقية أفراد المجتمع فلهم مقبرة واحدة في كل مدينة أو قرية[3].

استهدف الإسلام المجتمع السوداني بمختلف طبقاته وتشكيلاته الاجتماعية والسياسية وجسد بذلك فكرة المساواة التي نادى بها الإسلام بين البشرية دون تمييز على أساس اللون أو العرق أو الجنس،

1- البكري: المصدر السابق، ص ص 175-176.

2- نعيم قداح: المرجع السابق، ص 64.

3- زبادية: سنغاي في عهد الأسيقيين، المرجع السابق، ص128.

وتخلص الإفريقي من كثير معتقداته الأرواحية والإحيائية وأضحى يشكل جزءاً مهماً من العالم الإسلامي خاصة اكتمال بعض مظاهره الاجتماعية مع مطلع القرن 16 سواءً تعلق ذلك بالملبس أو المأكل أو الأعياد والأفراح والمناسبات وغيرها.

ثانياً: الحيـــــــــــــاة الثقـــــــافية:

تعددت مظاهر تأثير العرب والمسلمين في بلاد السودان، ولئن أمكننا الوقوف على المظهر الأبرز في التأثير وإلى اليوم فلا شك أن مجال الحياة الثقافية في بلاد السودان وجدت مع وجود المسلمين وانتشار الإسلام.

إن دخول الإسلام إلى سونغاي غير وجه هذه المملكة من إفريقية إلى عربية إسلامية فاللغة العربية أضحت لغة التخاطب بين الناس ولغة التأليف والكتابة والدواوين وغيرها. وهو ما أسهم بالإضافة إلى عوامل الاحتكاك الأخرى أن أنتج لنا جيلاً إفريقياً بملامح عربية إسلامية، إن مظاهر التأثير كثيرة متعددة من الصعب حصرها في جزء يسير من هذه الرسالة أو غيرها، لذلك نحاول قدر المستطاع الوقوف عند البعض منها.

1-التعلــــــــــــيم:

ارتبط التعليم ونُظُمهُ في السودان من مطلع القرن 16م وحتى النصف الثاني من ق18 الميلادي، بالنظم التعليمية السائدة في الأقطار الإسلامية ولاسيما بلاد المغرب الإسلامي ومصر ويظهر، أن النمط المغاربي كان الأكثر تجذراً ورسوخاً تبعاً لسيادة المذهب المالكي في المنطقة، وسنحاول من خلال هذه الدراسة تناول مراحل النظام التعليمي وطرقه ومقرراته وإجازاته.

1-1 مراحـــــــــل التعليم:

أ-المرحلة الأولى (الكتاتيب)[1]:

الكتاتيب جمع كتّاب وهي ما يشبه في الوقت الحالي المدارس الابتدائية في التعليم، وكان الاطفال يدخلون الكتّاب في سن الخامسة غالباً ويمضون فيه مرحلة الصبا بتمامها ولا يدخلون المرحلة اللاحقة إلا بعد ذلك لذا كان من الضروري على كل طالب أن يجتاز هذه المرحلة، فمن دونها لا يتأهل لمزاولة الدراسة في بقية المراحل[2].

انتشرت هذه الكتاتيب بشكل كبير في معظم المدن والقرى وفي هذه الأخيرة كثيراً ما يتخذ المعلمون لطلابهم مجالس في العراء أو تحت ظلال الأشجار إلا أنه وفي الغالب كانت لهم دور خاصة قرب المساجد.

مهمة التعليم عظيمة وصعبة، لذا لم يكن يتصدى لهذا الأمر إلاّ من يأنسون في أنفسهم الكفاءة اللازمة لمهمتهم، مثل حفظ القرآن والإلمام بمبادئ اللغة والفرائض وإتقان الخط، وكانت هذه هي في الأصل المواد الأساسية للتعليم في مناهج الكتّاب[3].

استقطبت هذه الكتاتيب عدداً كبيرً من الصبيان والمريدين وما يؤكد ذلك ما أورده صاحب الفتّاش حيث يقول:" ذكر الشيخ محمد بن احمد أنه حضر مكتب المعلم علي تكريا يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر وجعل صبيانه يأتونه بخمس ودعات وبعضهم عشر ودعات على عادتهم المسماة الأربع حتى

1 - انظر الملحق رقم 13.

2- نعيم قداح: المرجع السابق، ص144. انظر أيضاً زبادية: المرجع السابق، ص 143.

3- زبادية: المرجع السابق، ص ص 142-143.

تحص قدامه ألف وسبعمائة وعشرون ودعاً، قال الراوي المذكور وأسرحت نظري إلى ألواح الصبيان المتخذة في عرصة داره، وعددت منها مائة وثلاثة وعشرين لوحاً، وظننت أن تكون جملة القرآن محصلة في تلكم الألواح"[1]، وبغض النظر عن المبالغة في عدد الودعات والألواح التي قد تكون من طرف الراوي، إلا أنها تظهر لنا مدى رغبة التعليم الديني لدى الأفارقة في تلك الفترة.

ويصف حسن الوزان طريقة التعليم الابتدائي بقوله"... يعلمهم المعلم القراءة والكتابة وليس في كتاب معين بل الاستعانة بألواح خشب كبيرة يكتب عليه التلاميذ ويقتصر درس كل يوم على آية من القرآن ويختم القرآن في سنتين أو ثلاث سنوات، ثم يستأنف ذلك عدة مرات إلى أن يجيد الطفل تعلمه بصورة متقنة جداً ويحفظه عن ظهر قلب أو يدرك بعد انقضاء مدة سبع سنين ومن ثم يعلم المعلم الأولاد قليلاً من الخط..."[2].

ويرى صاحب الفتاش أن عدد الكتاتيب في السودان الغربي –زمنه–يتراوح ما بين المائة والخمسين والمائة والثمانين كتاباً لتحفيظ القرآن الكريم وكان يطلق عليها مدارس معلمي الصبيان[3]. أما السعدي فقد سماها محضراً، ويفهم ايضا من كلام الوزان إن لم تكن هناك جرايات أو أجور ثانية للمعلمين من قبل السلطة في سنغاي بل كانت مداخيلهم تتوقف على الهدايا والودائع والهبات التي تصلهم من قبل الطلاب والتجار "...وحينما يصل الطفل إلى إجازة جزء لا بأس به من القرآن يجب على أبيه تقديم

1- كعت: المصدر السابق، ص 180.

2- الوزان: المصدر السابق، ص ص 263-264. ينظر أيضاً جميلة التكيتك: المرجع السابق، ص 168.

3- كعت: المصدر السابق، ص 180.

هدية معينة للمعلم..."[1]، ويشير كعت بدوره إلى أن الأطفال في كل يوم اربعاء بعد صلاة الظهر ملزمون بتقديم ودعات إلى المعلم الذي يقوم بتعليمهم وقيمتها خمس إلى عشر ودعات وتسمى هذه العادة بالأربع[2]. وهذه العادة نفسها نجدها في بلاد المغرب وإلى وقت جد قريب في جنوب الجزائر.

وكان لطلبة القرآن ومعلميهم على أيام الأسيقيين في سنغاي مشاركة اجتماعية واسعة اثناء الحفلات التأسيسية والولائم، حيث جرت العادة أن يستدعوا أثناء الولائم العامة والأفراح للمنازل، ويرتلون جماعياً (عشرينيات الفزاري وتخميسها لابن وهب وتوزع عليهم الهدايا إثر ذلك، أما حين الوفاة فإنهم يرتلون القرآن الى وقت متأخر من الليل، وقد يستمرون على ذلك لعدة ليال[3].

ب-**التعلــــــــيم الثــانوي والعالــــــــي**:

لم تكن الفوارق واضحة بين التعليم الثانوي والعالي، ولم يكن الانتقال إليهما منتظماً من المرحلة الابتدائية بل نجد أن هناك نوع من الانقطاع والفصل فيها مما يجعل إشكالية الدخول إلى التعليم الثانوي أو العالي يتوقف على كفاءة الطالب ومقدرته على مواصلة التعليم في ظل إنفاقه وإجادته لبعض العلوم والفنون وفي مقدمتها القرآن الكريم.

لقد تواجد التعليم الثانوي والجامعي في مختلف المدن تقريباً ولم يكن يفصل بينها في الأساس إلا المساجد التي تأوي الطلبة، فالمواد الأكثر وضوحاً وبساطة تدرس في المساجد الصغيرة مثل النحو

1- الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 264.

2- كعت: المصدر السابق، ص 180. ينظر أيضاً جميلة التكيتك: المرجع السابق، ص169.

3- نفســــــه: ص ص 124-130. انظر أيضاً زبادية: المرجع السابق، ص ص143-144.

والفرائض والبلاغة، كما كانت الكتب المدرسة بدورها تلك الكتب المبسطة العامة وتدرس عادة في المساجد الصغيرة[1].

ففي تنبكت مثلاً كان التدريس في مسجد الونكريين من النوع الثانوي الذي ينتقل إليه الطالب مباشرة بعد أن يكون قد أنهى تعلمه بالكتاب، أما جامع السنكري فقد كان التعليم من النوع العالي، حيث تدرس المواد في شكل اختصاص بتفصيلات معمقة وتتناول فيها المسائل على مستوى امهات الكتب التي عرفها المسلمون عبر ذلك العهد[2].

وكان يجلس للتدريس في المساجد الكبرى أساتذة وعلماء عارفون متضلعون في شتى أنواع العلوم الشرعية واللغوية لذلك عرفت بلاد السودان عديد العلماء المغاربة والأكثر من ذلك نجد أن المناهج التي كان تدرس في حواضر المغرب الإسلامي خاصة ومصر نفسها تدرس في مساجد تنبكتو وغاو، ومما يبرز المستوى الراقي من العلوم المدرسة في بلاد السودان خلال فترة الدراسة ما ذكرته بعض المصادر التاريخية أن الفقيه عبد الرحمن التميمي ورد من المغرب على السودان قبل هذه الفترة وجلس للجامع في التدريس ولكنه ما لبث أن أدرك أن المدرسين حوله أكثر تضلعاً وتمكناً منه فرجع إلى فاس لينهل أكثر من مواد العلوم والفنون حتى يمكن له أن يتصدر للتدريس في بلاد السودان[3].

1- زبادية: المرجع السابق، ص 144.

2- نفســـــــه: ص144.

3- نعيم قداح: المرجع السابق، ص 145.

وفيما يتعلق بنماذج الكتب المتداولة في ذلك الحين فيؤكد السعدي انها تضم "...كب عيّاض وسحنون وشروح بن القاسم وخليل وكتب المغيلي والونشريسي وموطأ مالك والمدونة والخزرجية وتحفة الحكام والعباد..."[1]، وهي في مجملها تدرس في بلاد المغرب العربي.

ولم تكن فترة الدراسة محددة بزمن معين وإنما كانت مشروطة بانتهاء الطلاب من استيعاب ودراسة عدد محدد من كتب الفقه والحديث والمنطق والنحو ففي الموطأ وحده كان يقضي الطالب أكثر من ثلاث سنوات وهو ما يذكره السعدي ".... وختمت عليه الموطأ قراءة فهم وتسهيل ابن مالك قراءة بحث وتحقيق مرة بثلاث سنين..."[2].

إن قدوم العلماء من المغرب العربي ومصر وتضلعهم وتمكنهم العلمي والمعرفي دفع ابناء السودان وسنغاي إلى البحث في سبيل الوصول إلى منابع ومصادر العلوم التي نهل منها هؤلاء، وهو ما دفع الكثيرين منهم إلى عدم الاكتفاء بما يتلقونه في السودان فتوجهوا إلى المغرب العربي وإلى مصر، وقد بلغ من كثرة ورودهم على مصر أن أسس لهم في هذه الفترة رواق خاص بالأزهر عرف برواق التكرور[3].

1-2نظـــــــــام الإجازات:

كان نظام الشهادات معروفاً لدى السودانيين وبالأخص خلال القرن 16 الميلادي فكان كلما أنس الأستاذ من أحد طلبته قدرة معرفية وتمكناً كافياً في مادة من المواد التي درسها الطالب على يده أعطاه إجازة بخط يده، ففي حديث أحمد بابا لأخذه العلم على يد أحد الأساتذة المشهورين على أيامه

1- السعدي: المصدر السابق، ص ص 26-29.

2- نفســـــــه: ص46.

3- زبادية: المرجع السابق، ص 146.

محمد بن محمود بغيغ قال "لازمته اكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل وفرعي بن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتها عليه... وحضرت عليه التوضيح كذلك، لم يفتني منه إلا يسيراً من الوديعة إلى الأقضية، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم. وحضرته كثيراً في المنتقى والمدونة ... وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحها ... وختمت عليه تلخيص المفتاح بمختصر السعدي وصغرى السنوسي مع شرح الجزيرة وحضرت عليه الكبرى وشرحها وقرأت عليه حكم ابن عطاء الله مع شرح زروق عليه ونظم ابن مقرعة والهاشمية في التنجيم مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه ورجز المغيلي في المنطق والخزرجية في العروض بشرح الشريف وكثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليها، وسمعت بقراءته هو كثيراً من البخاري ومسلم كله ودولا من مدخل ابن الحاج ودروساً من الرسالة والألفية وغيرها وجامع معيار الونشريسي كاملاً ...وباحثته كثيراً في المشكلات وراجعته طويلاً في المهمات وأجازني في جميع ما يجوز له وعنه وكتب لي بخطه في ذلك"[1].

ومثل ذلك نجده عند التمبكتي في ذكره لمشايخه الذين درس عليهم، ونجده بعد حديثه عن كل منهم يذكر المادة التي درسها عليه والكيفية التي أخذ بها والمدة التي استغرقها في الملازمة لينهي حديثه بعبارة " إنه أجازني بخطه ما يجوز له وعنه"[2].

1- أحمد بابا التمبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقد عبدا لحميد عبدالله الهرامة**، دار الكتاب، طرابلس، ط2، 2000م، ص 373. انظر أيضاً احمد بابا التمبكتي: **كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج**، ج2، تحقيق الأستاذ محمد مصلع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المملكة الغربية-، 2000. ص ص 239-240.

2- السعدي: المصدر السابق، ص 46.

ويورد لنا السعدي نموذجاً من اولئك الذين اعطيت لهم الإجازات وقد بلغوا مرتبة عالية من التحصيل جعلت اساتذتهم ينقلون عنهم بعض التعليقات على المسائل واجتهاداتهم فيها، ونجد السعدي وعبد الرحمن التواتي من بين هؤلاء، حيث يذكر السعدي " وافقته على بعض تواليفي فسرّ به، وقرض عليه لي بخطه، بل كتب عني اشياء من أبحاثي، وسمعته ينقل بعضها في دروسه لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعين"[1]، وهذه الصورة تبرز لنا بشكل واضح وجلي المستوى الذي وصله التعليم في بلاد السودان خلال الفترة وتنقل لنا صورة من صور العلاقة بين المعلم والمتعلم بين الطالب والمريد، في اكمل صور التواضع والتناصح والإقرار بالحق.

وتنقسم درجة الإجازات العلمية التي تمنح للطلبة في سنغاي إلى ثلاث درجات: شهادة السماع وتعني أن الطالب يتبع المادة التي ألقاها الأستاذ وحفظها وشهادة العرض اي سرد الطالب على استاذه واستذكاره للنصوص ومعرفته بشروحها ثم الإجازة الكاملة وهي أن يصل الطالب لمرحلة يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها إلى مصدرها الأول مع ذكر الفروق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون[2].

وفي العادة يكلف الطالب المجاز أن يلقي درساً بمحضر استاذه لتحصل لديه القناعة بحكم إجازته التي يصدرها والشهادة التي سيشهد بها، وتتضمن الاجازة المكتوبة تصريحاً من المدرس أو الشيخ بأن

1- السعدي: المصدر السابق، ص 46. انظر أيضاً الهادي الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص 150.

2- مطير غيث: الثقافة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص 230. انظر أيضاً احمد فتوح عابدين، المرجع السابق، ص 264.

الطالب حضر عليه مواد متعددة ولكنه برع في مادة معينة، ولذلك فهو يجيزه في جميع ما يجوز له إن كانت للمدرس كتب تأليفه ولا يجوز للمدرس إجازة الطالب في كتب من تأليف أستاذ آخر[1].

ومن الإجازات القديمة التي أشير إليها في رصد الحياة الفكرية المغاربية والسودانية، ما أجاز به الإمام الزموري المغربي وهو عبد الله احمد بن سعيد من علماء القرن التاسع الهجري بكتاب الشفا للقاضي عيّاض السبتي كلاً من عمر بن محمد أقيت والفقيه المختار وكلاهما من مدينة تنبكتو[2].

تولد عن اتصال طلبة العلم في السودان بعلماء المغرب والمشرق الإسلاميين التفاعل في منح الإجازات من هؤلاء العلماء لهم والعكس كذلك.

2-الحـــــــــركة الفكرية وأعلامها:

أسهمت عملية التواصل الفكري والثقافي بين بلاد السودان والمغرب العربي ومصر في تكوين جيل من علماء بلاد السودان حصلوا على إجازات مكنتهم من التضلع والنبوغ في شتى العلوم والفنون خاصة خلال القرنين 16و17هـ، ولا أدل على ذلك من انتاجهم الفكري الذي خلدوه، ومن الملاحظ أيضاً هو أن هذا الإنتاج العلمي لم يتوقف بالغزو المغربي لبلاد السودان بل استمر حتى ق17، وفيما يلي نماذج من مؤلفات علماء بلاد السودان حسب كل علم من العلوم النقلية التالية وذلك بالاعتماد أساساً على المصادر المحلية السودانية خاصة السعدي واحمد بابا التمبكتي.

1- مطير غيث: المرجع السابق، ص 230. انظر أيضاً احمد فتوح عابدين، المرجع السابق، ص 265.

2- محمد مسعود حيران: **التفاعل العلمي والمعرفي بين الغرب الإسلامي والسودان الأوسط والغربي**، حولية المجتمع-طرابلس-، ع04، 2006، ص ص 177-178.

2-1 العلـــــــــوم الشرعية:

أ-التفسير والقـــــــــراءات:

يحرص المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على علم القرآن وتعليمه عملاً بالحديث الشريف " خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه"[1] ولقد تجاوز علماء السودان هذا الأمر إلى التخصص في تجويده وقراءته وتفسيره. لذلك ازدهرت علوم القرآن خلال هذه الفترة من الدراسة في بلاد السودان ولقد أورد السعدي مجموعة من علماء التفسير والقراءة يتقدمهم ابراهيم الزلفي المقرئ وعالم التجويد يقول عنه "... السيد الفاضل الصالح الخير الزاهد المقرئ عالم التجويد الفقيه ابراهيم الزلفي وهو استاذ والدي"[2]. وبما أن الفقيه الزلفي –حسب النص المشار إليه-هو أستاذ والد عبد الرحمن السعدي المتوفي 1026هـ/1617م يمكننا الاستنتاج أن الفقيه الزلفي ممن عاشوا خلال القرن 10هـ/16م[3].

ومن مشاهير القراء أيضاً محمد بابا ستر ابن الفقيه أندغ محمد(ت1002هـ/1593م) وهو من مدينة جني، كما برز من القراء عبد الله بن أحمد بري بن أحمد الفقيه أندغ محمد (ت1010هـ/1601م) برع في بعض الفنون وكان فقيهاً قارئاً اشتهر بالإضافة إلى القراءة بعلم التوثيق والنحو واللغة والفتوى[4]، وأما في مجال التفسير فيأتي على رأس علماء السودان خلال هذا العصر الإمام الفقيه محمد بن عبد

1- صحيح البخاري: ج4، ص1919، ح4739. وفي مسند الامام احمد: ج1، ص58، ح412.

2- السعدي: المصدر السابق. ص 58.

3- مطير سعد: المرجع السابق، ص 238.

4- السعدي: المصدر السابق، ص 36. انظر أيضاً البرتلي: **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد الكتابي ومحمد حجي**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981م، ص39.

الكريم المغيلي العالم الموسوعي في شتى الفنون والعلوم وفي مقدمتها علم التفسير، حيث ألف فيه "تفسير فاتحة الكتاب" و"البدر المنير في علوم التفسير"[1].

كما برز في ذلك الوقت وفي مجال التفسير دائماً العالم العلامة الفقيه محمد بن محمود بن بغيغ الونكري، الذي اشتهر بحبه للعلم ورجاله، وأمضى أغلب حياته في تدريس مختلف فنون العلم ومن بينها التفسير، واشتهر أيضاً بأستاذيته للفقيه أحمد بابا التنبكتي والذي درس عليه عدد من العلوم من بينها علم التفسير[2].

وبالإضافة إلى هذين العلمين في علم التفسير نقف ايضا على تلميذهما أحمد بابا صاحب المؤلفات العديدة في شتى العلوم، ومن بينها علم التفسير، وهو ما يفهم من حديث تلميذه الفقيه أحمد بن الحاج محمد فهدي فيما أورده صاحب فتح الشكور" لما فتح الله عليّ بملاقاة عالم الدنيا ومعلمها... فقرأت عليه– رحمة الله عليه– القرآن العظيم بتفسير ذي الجلالين المحلي والسيوطي في عامين مرتين قراءة تحقيق وتفهم وتدقيق"[3]، وبالرغم من أحمد بابا التنبكتي لم يترك مصنفاً خاصاً بالتفسير فإن جلوسه لتدريس هذه العلوم يدلّ بشكل لا مراء فيه على اهتمامه بهذا العلم وتضلعه فيه.

1- مطير غيث: المرجع السابق، ص 239. انظر أيضاً الحمدي احمد: **الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي، مكتبة الرشاد، سيدي بلعباس**، الجزائر، 2012، ص18.

2- التمبكتي: نيل الابتهاج، المرجع السابق، ص341. كفاية المحتاج، ج2، ص ص 237-240. البرتلي: المصدر السابق، ص 32.

3- البرتلي: المصدر السابق، ص 33.

ب-علـــــــــم الحديث:

اهتم علماء السودان الغربي وسنغاي بعلم الحديث بقدر اهتمامهم بعلم التفسير وإذا تجاوزنا العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي في هذا الشأن، كونه لم يرتبط بسنغاي لوحدها والذي ترك لنا مؤلفه" مفتاح النظم في علم الحديث"[1]. نجد من علماء المنطقة في هذا العلم الفقيه محمد بن أحمد التازخي، وقد كان عالماً وفقيهاً محدثاً متقناً درس العلوم في بلاده ثم رحل إلى المغرب والمشرق للاستزادة وتوسيع المدارك، فأخذ عن علمائها الحديث وسمع وروى فصار في عداد المحدثين وصنّف في ذلك كثيراً[2]. وبالإشارة إلى التازخي لا يمكننا أن نغفل الشيخ عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري (ت956هـ/1549م) والمعروف بـــ سقين، لزم رواية الحديث وإقراءه كالموطأ والعمدة والكتب الستة وقيّد كثيراً من فوائد الحديث. روى عنه البيسيتني وغيره[3]، يضاف إلى هؤلاء العلماء الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت الذي درس الصحيحين في مسجد سنكوري في أشهر رجب وشعبان ورمضان نحو خمس وعشرين سنة[4]، ومن علماء الحديث أيضاً خلال الفترة أبو حفص القاضي عمر بن محمد أقيت الذي درس في تنبكتو على أشهر علمائها وفقهائها وكان فقيهاً صالحاً بارعاً في عدة علوم من بينها علم الحديث[5].

1- ابن مريم: المصدر السابق، ص ص 254-256.

2- التمبكتي: نيل الابتهاج، ص 587.

3- التمبكتي: كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج1، ص 284.

4- السعدي: المصدر السابق، ص 217.

5-نفســـــــه: ص 34.

ويأتي على رأس هؤلاء كلهم من مضى ومن بقي ومن يأتي، الفقيه أحمد بابا التنبكتي. الذي وان لم يترك مؤلفاً خاصاً بهذا العلم يمكن العودة إليه والوقوف عنده إلاّ أنه وبالعودة إلى طريقة استدلاله في الحديث وطريقة تناوله واستثماره في استنباط الأحكام يومئ الى أن له إلماماً كبيراً واهتماماً به، وبالأخص انه كان مدرساً لهذه المادة دراسة نقل وتحقيق وتوجيه[1].

ج-الفقـــــــه والأصـــــول:

من المعلوم لدى العام والخاص في الأمس واليوم سيادة وانتشار المذهب المالكي في بلاد السودان الغربي بفضل المغاربة الذين أثروا الحياة الدينية والثقافية في هذه المنطقة، وسيادة المذهب المالكي وانتشاره منوطة بانتشار كتب الفقه المالكي المعروفة آنذاك وهي مختصر خليل وجامع المعيار وتحفة الحكام ومختصر الفروع والمدونة والرسالة وموطأ مالك وغيرها.[2]

ويسهل علينا معرفة انتشار هذه الكتب وتدريسها بالعودة إلى ما ذكره أحمد بابا في نيل الابتهاج وكفاية المحتاج، وهو يشير إلى ما أخذه عن أستاذه محمد بغيغ حيث قال:" ...لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل وفرعي بن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتها عليه. أما خليل فمرات عديدة ... وحضرته كثيراً في المنتقى والمدونة بشرح المحلي ثلاث وكثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليها، وسمعت بقراءته هو كثيراً من البخاري ومسلم... وسمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملاً..."[3].

1- مطير غيث: المرجع السابق، ص241.

2- السعدي: المصدر السابق، ص 93.

3- التمبكتي: كفاية المحتاج، ج2، ص ص 239-240. انظر أيضا التنبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 602.

ويمثل أحمد بابا التنبكتي بدوره أحد أعمدة الفقه المالكي في بلاد السودان وإن لم نقف على مؤلف خاص بهذا العلم لديه، رغم كثرة وتعدد تآليفه، ولاشك أن أشهر علماء الفقه الذين سكنوا بلاد سنغاي لفترة من الزمن وأثروا حياتها العلمية والثقافية قدوة العارفين وإمام المجتهدين الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي ومن أهم ما تركه في هذا المجال" مصباح الأرواح في أصول الفلاح" في كراسين وحاشية على خليل سماها "أكليل مغني اللبيب" وقطعة على البيوع سماها "مفتاح الكنوز" و "إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل" و "تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين" و " مختصر تلخيص المفتاح" وشرحه[1] وغيرها.

وضمن هذا المجال أيضاً يمكننا أن نقف عند الفقيه محمد بن أحمد التازخي الذي سبق ذكره من علماء التفسير وهو صاحب شرح مختصر خليل[2]، والفقيه العالم المشهور العاقب بن عبد الله الأنصمني، والذي قدم إلى بلاد السودان بعد أن نهل من منابع العلوم ومصادرها في المشرق والمغرب، واشتغل بالتدريس في سونغاي ومن أهم مؤلفاته " الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود" و " أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير" وهي جواب عن أسئلة وجهها إليه الأسكيا محمد الكبير، وكتاب في وجوب الجمعة في قرية أنصمن[3]، كما ألّف الفقيه محمود بن عمر أقيت كتاباً حول مختصر خليل من جزأين[4]، والف سيدي أحمد بن أبي بكر الوداني الحاجي والذي عاش منتصف ق16م/10هـ

1- التمبكتي: كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2، ص 214. انظر أيضا التنبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 577.

2- مطير غيث: المرجع السابق، ص 245.

3- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 353. انظر أيضاً محمد الغربي: المرجع السابق، ص517.

4- مطير غيث: المرجع السابق، ص 244.

(ت933هـ/1525م) شرحاً على مختصر خليل في مجلدين سماهما (موهوب الجليل بشرح مختصر خليل) يقول عنه البرتلي بأن فيه نكتاً عجيبة ومسائل مفيدة وفتوى صحيحة[1].

د-التصـــــــوف:

تعتبر الطرق الصوفية إحدى الوسائل الرئيسية التي ساعدت على انتشار الإسلام وتمكنه في غرب إفريقيا عامة وسنغاي على وجه الخصوص وكنا قد أشرنا في سابق هذه الدراسة إلى دور هذه الطرق في نشر الإسلام فإننا نتوقف هنا عند إبراز المتصوفة وما تركوه من مؤلفات في هذا المجال ويأتي في مقدمة متصوفة بلاد السودان ومن له الفضل الأكبر في نشر الطريقة القادرية بالأخص الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (مؤلفاته في التصوف).[2]

وقد برز إلى جانب المغيلي في هذا المجال أحمد بابا والذي ألّف عديد الكتب في هذا العلم ومن بينها " الدر النضير في كيفيات الصلاة على الشفيع البشير، وخمائل الزهر ونثر العبير، وما يؤكد التوجه الصوفي لأحمد بابا حرصه الدائم على طلب الدعاء والبركة من شيوخ الصوفية، وزيارته لقبور الأولياء، وقد روي أنه زار قبر أبو العباس السبتي أكثر من خمسمائة مرة[3]، ويذكر المقري مشاركة استاذه أحمد بابا في زيارته الأولياء والصالحين بقوله "وكنت كثيراً ما أذهب معه إلى زيارة الصالحين بحضرة الإمامة مصحوبين بجملة أعلام"[4].

1-البرتلي: المصدر السابق، ص 113.

2- أحمد الحمدي: المرجع السابق، ص39.

3- عبد الرحمن ميغا: المرجع السابق، ص 137.

4- المقري: **روضة الآس العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس،** تح عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1983ص 303.

و-علـــــــــم المنطــــــــق:

بالرغم من خلو بلاد السودان من الصراعات المذهبية التي شهدها العالم الإسلامي والمتعلقة أساساً بتفسير الأمور الاعتقادية والتي أثارت جدلاً واسعاً آنذاك، برع عدد من علماء إفريقيا في علم المنطق والكلام، وفي مقدمتهم دوماً محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي ترك لنا مؤلفات عدة نالت بعده حظاً وافراً من الشرح والتعليق والتحشية، ومن أبرز هذه المصنفات (رجز المغيلي) في المنطق، و (منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب) وثلاثة شروح عليها، وله ايضاً تلك المراسلات المشهورة مع الإمام السيوطي حيث تجادلا في ماهية ومشروعية علم المنطق[1].

ومن بين العلماء الذين اهتموا بهذا العلم ووضعوا شروحاً وتعاليق لمؤلفات المغيلي نجد أحمد بن عمر أقيت في كتابه " إمناح الأحباب في منح الأحباب" وهو شرح لكتاب المغيلي (منح الوهاب). ونجد أيضاً محمد بن محمود بن عمر أقيت (909هـ-973هـ/1503-1565م) اهتمّ هو الآخر بمؤلفات المغيلي، وألف في ذلك (ارجوزة على شرح منظومة المغيلي) وشرح وتعليق على رجز المغيلي في المنطق[2]، كما علّق أحمد بن أقيت تعليقاً على صغرى السنوسي ونجد لأحمد بابا رسائل كلامية منها تنوير القلوب بتفكير الأعمال الصالحات للذنوب، وشرح صغرى السنوسي، العقيدة البرهانية للسلاجي والمطلب والمأرب في أعظم اسماء الرب[3].

1- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص ص 578-579.

2- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 597. أنظر أيضاً محمد الغربي: المرجع السابق، ص 517. أنظر أيضاً الهادي الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص 172.

3- المقري: المصدر السابق، ص ص 304-305. أنظر أيضاً. الهادي الدّالي: المرجع السابق، ص 173.

2-2اللغـــــــة العربيـــــــة وآدابها:

اقترن انتشار الإسلام برافده الأول وهو اللغة العربية إذ انسابت الدعوة الإسلامية جنباً إلى جنب مع اللغة العربية وأصبح هذا الدين الجديد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك اللغة، فهي لغة القرآن والصلاة لا يمكن القيام بها والقراءة فيها إلا لهذه اللغة، ويشير بن خلدون إلى ذلك بقوله " معرفة اللسان العربي ضرورية على أهل الشريعة، إذ ما أخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلها عن الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة"[1]. وبذلك نقف على طائفة كبيرة من علماء اللغة والأدب تواجدوا في سونغاي على عهد الأساكي وتركوا آثاراً واضحة على أعمال اسلافهم بالتذييل والشرح والتعليق والنقد كما عمل بعضهم على الإبداع أحياناً[2]. ومن علوم اللغة التي اهتم بها علماء النحو في سنغاي.

أ-النحـــــــو والبلاغة:

عرفت سنغاي في عهد الأساكي ظهور عدد كبير من الأعلام في مجال النحو والبلاغة، لقبوا بالنحويين وبغض النظر عن عدد هؤلاء وانتشارهم في ربوع مملكة سونغاي فإن مؤرخنا زبادية ينقل عن بعض المصادر أن عددهم كان محدوداً جداً[3]. ونجد من هؤلاء الفقيه أبو عبد الله أندغ محمد بن الفقيه الملقب بالمختار النحوي[4]، وإلى جانبه نجد ابن أخته الحاج أحمد بن عمر أقيت، وصفه أحمد

1- ابن خلدون: المصدر السابق، ص 603.

2- محمد الفاجلو: **الحياة العلمية في دولة صنغاي (1464-1591)**، رسالة ماجستير، غ.م، المملكة العربية السعودية، 1993م، ص 250.

3- زبادية: سنغاي في عهد الأسيقيين، المرجع السابق، ص 159.

4- السعدي: المصدر السابق، ص29.

بابا بالعالم النحوي العروضي المحصل[1]، ونجد أيضاً الفقيه محمد بن أندغ محمد بن أحمد (970-1045هـ/1562-1635) وصفه البرتلي بالنحوي اللغوي[2]، واشتهر بمؤلفه الذائع الصيت (الفتوح القيومية في شرح الأجرومية)[3]. وإلى جانبهم نجد الفقيه ابن عبد حبيب الله المختار التنبكتي صاحب التأليف (المنح الحميدة في شرح الفريدة) وهو شرح لألفية السيوطي في النحو، وألف أيضاً شرح شواهد الخزرجية وقطع مقامات الحريري توفي سنة 1014هـ/1605م[4].

كما ألّف أحمد بابا التنبكتي شرحاً للألفية ومسألة مساواة الفاعل للمبتدأ[5]، وبذلك نجد أن علماء سنغاي خلال هذا القرن لم يتوقفوا عند تعلم اللغة وإجادتها والكتابة بها بل تعدى ذلك إلى الإبداع في علم النحو من خلال ما خلّفوه من كتابات ومؤلفات.

ب-الشعـــــــر:

تعددت وتنوعت أغراض الشعر لدى أدباء سنغاي من العرب والأفارقة فنجد منها المدح والشوق والحنين والرثاء، ويأتي على رأس المدح الميمية الشهيرة التي ألقاها المغيلي في حضرة الروضة الشريفة وهو كلّه شوق وحنين لزيارة هذا المكان بعد ما كابده وما عاناه، بالرغم من اختلاف نسبة هذه القصيدة للمغيلي أو لغيره، فإن كثيراً من المؤرخين القدماء منهم والمحدثين قطع بنسبتها للمغيلي، جاء في مطلعها:

1- مطير غيث: المرجع السابق، ص 250.

2- البرتلي: المصدر السابق، ص 39.

3- مطير غيث: المرجع السابق، ص 250.

4- البرتلي: المصدر السابق، ص 159. انظر أيضاً مطير سعد: المرجع السابق، ص 251.

5- مطير غيث: المرجع السابق، ص 151.

بشراك يا قلــب هذا سيّد الأمم وهذه حضرة المختار في الحرم

وهذه الروضــة الغراء ظـــاهرة وهذه القبة الخضراء كالعلـــم

وعدد أبياتها 26 بيتاً[1].

ويذكر السعدي أن الفقيه محمد بابا بن محمد الأمين التنبكتي نظم قصيدتين في رثاء شيخه محمد محمود بغيغ والفقيه عبد الرحمن[2]، كما ذكر السعدي أيضاً أن للفقيه محمد بابا بن محمد الأمين قطعاً على مقامات الحريري وقصائد جياد في الأمداح النبوية الشريفة[3]، ولم يورد لنا في كتابه أياً من هذه القصائد، وفي مجال الحنين والشوق إلى الوطن والأهل والأحبة نقلت لنا المصادر التاريخية القصيدة التي نظمها أحمد بابا وهو يتشوق إلى تنبكت مسقط رأسه العزيزة على قلبه وهو في منفاه بمراكش.

أيا قاصداً كاغـــو فعج نحو بلدتي وزمزم لهم باسمي وبلّغ أحـــبتي

سلاماً عطيراً من غريب وشائق إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي

وعندي أقارب هنـــاك أعـــز على السادة الألى نفت بغربــة

أبي زيدهم شيـــخ الفضائل والهدى وصنو ابن عمي وأقرب أســـرتي

وسيفي وسيف البين سلّ لفقدهم على وهل الموت ركني وعمـــدتي

ولا ننسى عبد الله ذا المجد والندى فقد مدّ حزني فقد قوتي وعشـرتي

وشبان بيتي سارعوا عن أخيرهم إلى ملك الأملاك في وقت غربـتي

1- الحمدي أحمد: المرجع السابق، ص40.

2- السعدي: المصدر السابق، ص 218.

3-البرتلي: المصدر السابق، ص ص 211-212.

فوا أسفاً منهم وحزني عليهـــــم فيارب فارحمهم بواسع رحمـــتي[1]

وبقراءة متأنية لهذه الأبيات نجد أحمد بابا التنبكتي بالرغم من أنه لم يكن شاعراً متخصصاً إلا أنه كثيراً ما كان يستدلّ ويقرض دواوين الشعر العربي وهي دلالة على سعة ذاكرته وحفظه لهذه الأشعار ونقلت لنا المصادر التاريخية أيضاً بيتين لأحد أحفاد أحمد بابا في الشوق لتنبكتو دوما قال فيهما:

يا سائق الأضغان إن جئت من أربع تنبكتو فجئ سنكري

وحي ثاويها من الصب أو فضف لهم حالي وما يعتري[2]

ومن خلال هذه الأبيات وغيرها يظهر لنا مدى تأثر السودانيين بمرحلة ازدهار الشعر العربي ولم يتوقف تأثرهم عند ذلك بل تعدّاه إلى فنون الشعر والنثر الأخرى فصاحب تاريخ الفتاش مثلاً وصف تنبكت بأنها تشبه في روعتها وجمالها ما كان قد شبه به الحريري البصرة في مقاماته[3].

ج–أثر اللغة العربية في لغة الماندنجو:

لا شك انه كان للغة العربية تأثير كبير على الفرد السوداني وتكوينه العلمي والثقافي باعتبارها لغة العلم والحضارة في روح ذلك العصر، الا ان هذا التأثير نجده يتجاوز الجوانب الثقافية والعلمية الى الاستخدام اليومي مما كان له الأثر الأبرز على اللهجات واللغات الافريقية وفي مقدمتها لغة شعب الماندنجو احد اكبر القبائل في بلاد السودان وافريقيا الغربية الى يومنا هذا، ويشير خليل النحوي الى

1–الإفراني: نزهة الحادي، ص 173. أنظر أيضاً زبادية: المرجع السابق، ص 158.

2–كعت: المصدر السابق، ص ص178–179.

3- نفســـــــه: ص ص178–179.

وجود ما يزيد عن 375 لفظة مفترضة من العربية في اللغة الماندينكية[1] وقد لوحظ ان معظم هذه الالفاظ المقترضة دينية ، وتجدر الإشارة الى ان هذه الكلمات الدخيلة في اللغة الماندينكية جرت على السن الماندينكين منذ زمن بعيد ، حيث نجم على انتشارها وشيوعها الى ان الماندينكي العادي يعتبرها الفاظا ماندينكية خالصة ، ولأنها أصبحت جزءا من المعجم الماندينكي الحديث يتعذر على غير المتخصص ان يتبين الأصل العربي لبعضها ، وقد تلاحظ فروقا في نطق بعض الكلمات بين اللهجات الماندينكية الرئيسة من ذلك لفظ القراءة، الذي ينطق (كاران) او (كران) عند المالنكا و(كارانج) عند الديولا، و(كالانج) عند البمبارا [2].

2-3التـــــــاريخ والتراجم:

يذكر السعدي في مقدمة مؤلفه تاريخ السودان أن ليس هناك مادة تاريخية تحدثت عن المنطقة سابقة لزمانه، وأن ما وجد عبارة عن أساطير وحكايات تعد من مستلزمات الأسمار والمجالس، وأشار بشكل جازم إلى أن التاريخ السوداني قبل عصره لم يكن مدوناً، إلا أن عملية البحث والتحري التي قام بها بعض المؤرخين المعاصرين وقفوا على أن هناك بعض من المؤلفات التاريخية السابقة أرخت لمملكة سنغاي وما سبقها من حكم سني علي ومن هذه المؤلفات (درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان) و(جواهر الحسان) وقد اعتمد عليها محمود كعت كثيراً في كتابه (تاريخ الفتاش)[3] .

1 – خليل النحوي: المرجع السابق، ص41.

2 – يعقوب الأمين: أثر اللغة العربية في لغة الماندينكو، منشورات جامعة 7اكتوبر، ط1، 2007م، ص46. انظر الملحق رقم 15.

3- نفســـــه: ص ص44-52-84.

وإذا تجاوزنا ما كتبه أحمد بابا في تراجم الفقهاء والمفسرين باعتبار أن ما ألّف أميل للفقه والتراجم في (نيل الابتهاج بتطريز الديباج. وكفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج)[1]. فإن مؤلفي كلا من محمود كعت " الفتاش" وعبد الرحمن السعدي في "تاريخ السودان" يعدّان ابرز ما أُنتج في ميدان التاريخ، فالأول حمل كتابه عنوان "تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار" عاش محمود كعت خلال ق16ه وابتدأ مؤلفه وهو في سن الخمسين حسب السعدي وتوفي حوالي 1002ه/1593م وبذلك يكون حضر احتلال المغاربة لسنغاي، إلا أنه وبالعودة للكتاب نجده احتوى أحداثاً تجتاز عمره بست سنوات مما يبعث على الظن بأن الكتاب قد أتمه بعض أحفاده بعد وفاته، ولغة الكتاب أسلم من لغة "تاريخ السودان" للسعدي، وأكثر منه اشتمالاً على مظاهر الحياة الاجتماعية[2].

أما الثاني فحمل مؤلفه عنوان "تاريخ السودان" تناول فيه تاريخ الاسقيين في سنغاي والتواجد المغربي بالسودان الغربي، وولد السعدي حوالي 1596م أي بعد وفاة كعت بثلاث سنوات ولذا فقد كتبه في العهد المغربي، وجاءت حوادث ذلك العهد مفصلة في حين جاءت حوادث الفترة السابقة مختصرة، أسلوب الكتاب مفكك وعباراته غير مستقيمة غالباً مما يدلّ على أن حركة الفكر في البلاد قد آلت هي الأخرى إلى الضعف في آخر أيام الأساقي، ويعدّ المؤلف بحق من أهم المصادر التي تناولت بالتفصيل حكم الباشوات المغاربة في بلاد السودان[3].

1- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص03.

2- زبادية: المرجع السابق، ص161.

3- نفســـــــه: ص 162.

يضاف إلى هذين الكتابين مؤلف " معراج الصعود لنيل مجلوب السعود" لأحمد بابا التنبكتي وكتاب " تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان" لمجهول، يتحدث في هذا الكتاب عن أخبار الباشوات المغاربة الذين حكموا السودان الغربي منذ الغزو المغربي عام 1000هـ /1591م حتى وفاة المؤلف عام 1164هـ/1751م[1]، ولعدم عثور "هوداس" Houdas الذي تولى تحقيق الكتاب على الصفحة الأولى من الكتاب، عدّ هذا الأخير مجهول المؤلف، نشر لأول مرة عام 1319هـ/1901م.

ومما يمكن استخلاصه مما سبق أن الحياة الفكرية في بلاد السودان خلال هذه الفترة –ق16- كانت نشيطة في مجال علوم الشرع واللغة، إلا أنها ظلت تتصف بالاستيعاب والتقليد محتشمة في مجال الشعر والأدب، فإنها عرفت نشاطاً ملحوظاً في علم التاريخ، كانت ثمرته مؤلفي " الفتاش" و"تاريخ السودان" يمثلان الإنتاج السوداني الصرف في تلك الفترة من الزمن.

3-نمـــــــــــاذج لبعض العلماء اثرو الحياة العلمية في سنغاي:

يتحدث في هذا الصدد حسن الوزان عن سنغاي اثناء زيارته لها فيذكر انها كانت مليئة بالفقهاء والعلماء والأئمة، وأن هؤلاء يتمتعون برواتب جزيلة ويعاملون بكل احترام وتبجيل[2]، واستناداً إلى ذلك وغيره من المؤرخين العرب والأفارقة نقف على أن العلماء والفقهاء في سنغاي على عهد الأسيقيين كانوا أصحاب الحظوة والمكانة في مجتمع بلاد السودان، ليس من السلطة فحسب بل من مختلف طبقات المجتمع، فأهالي السودان الغربي كانوا يعتقدون الولاية والصلاح في العلماء والفقهاء،

1- مجهول: تذكرة النسيان، ص 08.

2- الوزان: المصدر السابق، ج1، ص 167.

بل ونسبوا إليهم الكثير من الكرامات والمعجزات ويقيمون الاضرحة لمن مات منهم ويتقدمون بالذبائح والقربات إلى أضرحتهم ومقاماتهم[1].

هذه الثلة من العلماء والفقهاء يدين لها الأفارقة عموماً وأهل السودان خصوصاً على حفظ التراث المدون خلال تلك الفترة وإيصاله وتوارثه عبر مختلف الأجيال، برغم ما شهد من محاولات الحرق والطمس والهدم والإتلاف مع وصول الاستعمار الأوروبي على غرب إفريقيا مطلع القرن 19م، ومن هؤلاء العلماء الذين أناروا درب إفريقيا وبلاد السودان نجد:

3-1 الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي: (790هـ-909هـ/1388م-1503م)

يقول عنه التنبكتي في تطريز الديباج وكفاية المحتاج أنه محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني خاتمة المحققين، الإمامة العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني[2] ولد في مغيلة[3]، سنة 831هـ/1427م، على اختلاف بين المؤرخين على تقدير سنة ولادته، تلقى مبادئ العلوم الأولى وحفظ القرآن الكريم على يد أحمد بن عيسى المغيلي التلمساني المعروف بالجلاب وأخذ عنه أيضاً الكتب الفقهية كالرسالة ومختصر خليل وبن الحاجب وغيرها[4].

1- محمد الغربي: المرجع السابق، ص 514.

2- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 576. انظر ايضاً التمبكتي: كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2. ص ص 213-214.

3- مغيلة: تابعة لبلدية ودائرة مغنية بتلمسان حاليا وقبل ذلك كانت تخضع لمازونة.

4- مقدم مبروك: **الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية خلال ق09هـ/15م**، دار الغرب للنشر والتوزيع-الجزائر-، 2003م. ص 07.

يتحدث أحمد بابا عن شيوخه فيقول إنه أخذ عن الإمام عبد الرحمن الثعالبي والشيخ يحي بن يدير وغيرهم كثير، وعن تلامذته ذكر منهم الفقيه محمد بن أحمد والعاقب الأنصمني ومحمد عبد الجبار الفجيجي وعمر الشيخ الكنتي وغيرهم[1].

برسوخه في العلم وبروز أفكاره وآرائه الفقهية تضايق الإمام المغيلي من وضعية عصره ونكر على الحكام والمسلمين خروجهم عن التقاليد الإسلامية في حكم رعاياهم ويظهر أن ذلك أحد الأسباب الرئيسية التي دفعته للخروج من تلمسان إلى توات أولا ثم إلى بلاد السودان[2].

وبالعودة إلى قرائن الأحوال والأوضاع نجد أن الإمام المغيلي حين سفره إلى بلاد السودان كانت شهرته كفقيه وعالم قد سبقته إلى تلك البلاد، وأول ما دخل من بلاد السودان كانت بلدة أهير ومنها إلى تكدا واجتمع بصاحبها وأقرأ أهلها وانتفعوا به"[3]. وعن دخوله إلى بلاد كانو يورد أحمد بابا ذلك بقوله" ...ثم دخل بلاد كنو وكس [كشنة] من بلاد السودان واجتمع بصاحب كانو واستفاد عليه وكتب رسالة في السلطنة يخصه على اتباع الشرع بأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده"[4].

بعد الدور السياسي والفقهي الذي لعبه المغيلي في شمال نيجيريا ببلاد الهوسا، توجه إلى مدينة "كاغو" عاصمة مملكة سنغاي والتي كانت تعرف قمة ازدهارها الثقافي والعلمي آنذاك في ظل حكم

1- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 578.

2- زبادية: التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي –بعض آثاره وأعماله في الجنوب الجزائري وبلاد السودان، مجلة الأصالة – الجزائر– ع26، 1975، ص 206.

3- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 578

4-نفســـــــــه: ص 578. انظر أيضاً التمبكتي: كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2، ص 214.

الأسيقيين، حيث اتصل بالأسكيا محمد الكبير هذا الأخير استعمله مستشاراً سياسياً وفقيهاً له، وقدّم له تأليفاً فقهياً حول بعض الاسئلة التي طرحها عليه، ولم يطل المقام بالإمام في غاو، ليتوجه إلى توات بعد بلوغ مسامعه مقتل ابنه عبد الجبار من قبل اعدائه من اليهود، ليتوفى بها سنة 909هـ/1503م.

ترك لنا المغيلي مؤلفات عدة في مختلف فنون العلم من الفقه إلى اللغة والحديث وعلم الكلام، أحصى منها أحمد بابا التنبكتي 15 مؤلفاً وهي في واقع الأمر تزيد عن الثلاثين مؤلفاً.

ألف في الفقه (مصباح الأرواح في أصول الفلاح)[1] في كراسين وحاشية على مختصر خليل سمّاها (إكليل مغني اللبيب) وقطعة على البيوع تحت مسمى (مفتاح الكنوز) و(إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل) و(تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين) و (مختصر تلخيص المفتاح) وشرحه[2]، وفي اللغة العربية ألف المغيلي (مقدمة في العربية) ووضع تفسيراً لفاتحة الكتاب و(البدر المنير في علوم التفسير)[3].

وفي الحديث الشريف ألف المغيلي (مفتاح النظر في علم الحديث). كما ألف المغيلي في علم الكلام والمنطق (رجز المغيلي في المنطق) و (منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب) وثلاثة شروح عليها، ونقلت لنا المصادر مراسلاته الشهيرة في علم الكلام مع السيوطي[4]، وقد عرفت مؤلفاته حظاً وافراً من التعاليق والشرح والتحشية سبق لنا ذكرها ضمن هذه الدراسة.

---

1 – انظر الملحق رقم 05.

2- المغيلي: **مصباح الأرواح في أصول الفلاح**، تقد وتح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع –الجزائر–، 1968، ص17. انظر أيضاً التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 578.

3- ابن مريم: المصدر السابق، ص ص 254-256.

4- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص ص 578-579.

وفي مجال السياسة وإدارة الحكم كتب رسالة إلى أمير كانو حملت عنوان (جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام) وهي إجابة تثبت مدى اطلاع المغيلي على أحوال السودان الغربي من جهة ومن جهة أخرى حرصه الشديد على تنفيذ وتطبيق أحكام الشرع في علاقة الحكام بالمحكومين[1]. هذا بالإضافة إلى أجوبته المشهورة عن أسئلة الأسكيا محمد الكبير، وهي بعنوان (أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي) التي قام بتحقيقها المؤرخ عبد القادر زبادية[2].

وتعدّ أجوبة المغيلي عن أسئلة الأسكيا، وثيقة تاريخية هامة، احتوت مسائل دينية واجتماعية وسياسية، تعكس لنا صورة مجتمع بلاد السودان الغربي خلال تلك الفترة، وتبرز لنا من جهة أخرى الدور الذي لعبه المغيلي في سنغاي وبلاد الهوسا، ولم يتوقف ذلك برحيله بل استمر إلى يومنا هذا من خلال تعلق الأفارقة بما خلّفه من تراث علمي وادبي.

3-2 العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي:

ينتمي الفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي إلى قبائل مسوفة الصنهاجية ولقب بالأنصمني نسبة قري (أنصمن) إحدى ضواحي تكدا[3]، لم تتناول المصادر التاريخية التي عرّفت به سنة ميلاده على وجه التحديد، إلا أنها أجمعت على انه عاش في النصف الأول من القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد[4]. وأنه درس على يد الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، وهو ما يدفعنا إلى

1- مطير غيث: المرجع السابق، ص 271.

2- المغيلي: أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق، ص15.

3- مطير غيث: المرجع السابق، ص 273.

4-التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 577. انظر أيضاً التمبكتي: كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج1، ص 44.

الجزم بأن الفقيه قد عاش ما بين أواخر ق 09هـ وبداية ق10هـ/16م، وتتحدث المصادر أيضاً عن لقائه بالسيوطي والمغيلي أثناء تأديته لفريضة الحج[1].

يذكر احمد بابا في نيل الابتهاج وكفاية المحتاج ان العاقب بن عبد الله الأنصمني خلّف أربع مؤلفات هي: (الجواب المحدود عن أسئلة الفقيه محمد بن محمود) وهي أسئلة أجاب فيها نجل القاضي محمود بن عمر أقيت و(أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير) وهي إجابة ردّ فيها عن أسئلة الأسكيا محمد الكبير، و(وجوب الجمعة في قرية أنصمن) ومردّ هذا التأليف إلى وقوع خلاف بين الفقيه العاقب وبعض شيوخ بلده حول وجوب إقامة الجمعة بقرية أنصمن، وقد راسلوا علماء الأزهر بفحوى الخلاف بين الطرفين وأفتى علماء مصر بصواب رأي الفقيه العقيب الأنصمني وألف (تعليق على قول خليل) لخصّه الفقيه أحمد بابا وسمّاه (تنبيه الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف)[2].

3-3 محمود بن عمر بن محمد أقيت (ت 988هـ/1548م):

من أسرة أقيت الذائعة الصيت والمكانة في بلاد السودان الغربي ولد الفقيه في تنبكت عام 868هـ/1463م حسب التنبكتي في نيل الابتهاج[3]، وإن كان ذلك لا يتطابق وتاريخ ولادته ما بين الهجري والميلادي، مما يجعل سنة ميلاده غير دقيقة، كان يكنى بأبي المحاسن وأبو الثناء، وأبو البركات، نهل علومه الأولى من والده الفقيه عمر بن محمد أقيت وخاله الفقيه المختار النحوي، ويظهر أن رحلة

1- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 353. انظر أيضاً التمبكتي: كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2. ص377.

2- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 353. انظر أيضاً كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج1، ص377.

3- نفســــــــه: ص 608.

الفقيه إلى الحج سنة 915هـ/1508م[1]، وجلوسه للتزود من المجالس العلمية في كل من مصر والحجاز، قد كان لها بالغ الأثر في تكوينه العلمي، درس لفترة طويلة في مسجد سنكوري وساهم بذلك في تكوين عدد من العلماء والقضاة في مختلف العلوم الني كان يدرسها مثل التفسير والتوحيد والفقه[2]والحديث، ومن هؤلاء نجد ابناؤه القضاة الثلاثة (محمد والعاقب وعمر) وابن أخيه الفقيه أحمد بن أحمد أقيت وسبطه الفقيه أحمد بن محمد سعيد وغيرهم[3].

جمع بين الإمامة والقضاء في تنبكت وعن ذلك يقول التنبكتي "...تولى قضاء عام أربعة وتسعمائة قد شدّد في الأمور وسدّد وتوخى الحق في الأحكام، ولذوي الباطل هدد فظهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته..." ولإبراز شدّته وصرامته في الحق ووقوفه ضد الأحكام الخاطئة، معارضته للأمر الصادر من الأسكيا محمد الكبير والقاضي باعتقال التجار والمقيمين التواتيين آنذاك في مدينة جاو تعاطفاً مع المغيلي في مقتل ابنه من طرف اليهود في توات وبذلك أقنع القاضي محمود بن عمر الأسكيا بالعودة عن قراره والعفو عنهم[4].

1- أبوبكر عمر ميغا: **الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من 400هـ-1100هـ**، مكتبة التوبة-الرياض-، ط1، 1997م، ص ص 193-194.

2- السعدي: المصدر السابق، ص 75. انظر أيضاً التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص607. انظر أيضاً كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2، ص 245.

3- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص608.

4- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 577. انظر أيضاً سحر عنتر: **فقهاء المالكية وأثرهم في مجتمع السودان الغربي في عهدي مالي وصنغي**، رسالة ماجستير في الدراسات الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية-جامعة القاهرة-، 2010م. ص86-87.

ويتحدث أحمد بابا عن صرامته بقوله "لا يخاف في الله لومة لائم يهابه السلاطين فمن دونهم ويزورونه في بيته فلا يقوم لهم ولا يلتفت إليهم..."[1].

3-4 **محمود كعت**:(**876-1002هـ/1468-1593م**)

هو القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل الكرمني داراً والتنبكتي مسكناً الوعكري أهلاً، ولد في قرية كورما غرب غاو، وعاصر الأسكيا محمد الكبير، سكن في تنبكت وتلقى العلم على علمائها وبرع في الأدب والفقه وتقلد منصب القضاء وكان زاهداً ورعاً أحبه الأسكيا محمد وقربه إليه وجعله من مستشاريه[2]، اختلف في تاريخ ميلاده على وجه التحديد إلا أن المؤكد أنه عاصر الأسكيا محمد الكبير وحجّ معه سنة 902هـ/1496م[3].

ألّف القاضي محمود كعت كتابه تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، خلال القرن 16م، وقد أثار هذا المؤلف جدلاً واسعاً لدى المؤرخين خاصة حول مادته والأحداث التي احتواها كون هذه الأخيرة تتجاوز حياة محمود كعت بست سنوات مما يبعث على الاعتقاد بأن الكتاب قد أتمه بعض أحفاده من بعده[4].

1- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص607. انظر ايضا كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2، ص245. انظر أيضاً محمد البخاري: **انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ما وراء الصحراء-تنبكت-غدامس نموذجاً، 07-11/13-17)**، ليبيا، ط1، 2004، ص206. انظر أيضاً السعدي: المصدر السابق، ص27.

2- كعت: المصدر السابق، ص16. انظر أيضاً محمد الغربي: المرجع السابق، ص 531. زبادية: المرجع السابق، ص ص 160-161.

3- كعت: المصدر السابق، ص 17.

4- نفســـــه: ص 75. انظر أيضاً زبادية: المرجع السابق، ص161.

يعتبر تاريخ الفتاش من المصادر التاريخية الهامة والتي لا غنى عنها لدارس تاريخ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا. بدأ كعت مؤلفه بالحديث عن بداية عهد الأسقيا محمد فأثنى عليه كثيراً ووصفه بالعدل والصلاح في حين انحى باللائمة على سلفه سني علي ووصفه بالمروق عن الدين والمجون وختمه بالحديث عن تنبكتو حين غزاها المغاربة وكيف ساء حالها بعد صلاح وأرجع كعت مجيء محلة المغاربة وأسباب النكبات التي حلت بسنغاي إلى فساد الأخلاق واستهتار ملوك الأساقي[1].

3-5 **محمد بن محمود بغيغ الونكري: (930-1002هـ/1523-1593م)**

ينقل لنا أحمد بابا تلميذ محمد بغيغ تاريخ ميلاده فيقول "... وأخبرني أن مولده سنة ثلاثين وتسعمائة..."[2]، ويعود مسقط رأسه إلى مدينة جنى حيث تعلم هناك العربية والفقه على يد والده القاضي محمود بغيغ ثم رحل إلى تنبكت، وجلس في مجالس الفقيه أحمد محمد سعيد التنبكتي، ونهل من علمه ولازمه في مختصر خليل[3].

اشتهر محمد بغيغ بالولاية والصلاح، وكان اسمه يطلق على الأبناء بعد وفاته تيمناً به أثنى عليه تلميذه أحمد بابا التنبكتي في كتابيه نيل الابتهاج وفي كفاية المحتاج، ولم ترصد لنا المصادر التاريخية آثاراً

1- زبادية: المرجع السابق، ص 161.

2- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص602. انظر ايضاً كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص240. انظر أيضاً السعدي: المصدر السابق، ص 49.

3- التمبكتي: المصدر السابق، ص 601. انظر ايضاً كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2، ص 239.

مكتوبة لهذا العالم، سوى بعض الشروحات لمختصر خليل وعدد من الفتاوى جمعها أحمد بابا في كراريس[1].

6-3 أحمد بابا التنبكتي: (963-1036هـ/1556-1627م)

وضع أحمد بابا تعريفاً باسمه واسم عائلته وبسنده العلمي في كتابه الشهير كفاية المحتاج فيقول "جامع هذا الجزء هو أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقبت ابن عمر بن علي بن يحي الصنهاجي الماسني ويعرف بابا"[2]، ويكنى بأبي العباس التنبكتي نسبة إلى تنبكت، ويتحدث أيضاً عن مولده الذي يذكر أنه وجده بخط والده " ...ليلة الأحد حادي والعشرين من ذي الحجة ختام عام ثلاثة وستين وتسعمائة"[3] بتنبكتو وإن كان هناك من يرى ان ميلاده في أروان[4].

ينتسب أحمد بابا إلى أسرة آل قيت المعروفة بالعلم والصلاح، ويذهب المؤرخون إلى أن هذه الأسرة توارثت العلم والرياسة في السودان الغربي أكثر خمسمائة سنة[5]، يصفهم الناصري بقوله "...لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة في بلاد السودان ديناً ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رئاسة العلم مدة طويلة..."[6].

1- التمبكتي: المصدر السابق، ص 603. انظر أيضاً احمد بابير الارواني: المرجع السابق، ص95.

2- التمبكتي احمد: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ج2، ص 281.

3- نفســـــــه: ص258.

4- محمد الغربي: المرجع السابق، ص 539.

5- مطير غيث: المرجع السابق، ص 285.

6- الناصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى**، تح وتع جعفر الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ج3، 1955م، ص 125.

تلقى تعليمه الأول على يد أفراد عشيرته من آل أقيت وأسباطهم، منهم والده أحمد بن أحمد أقيت ثم عمه أبو بكر بن أحمد بن عمر أقيت ومنهم الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد (931-976هـ/1523-1568م) الذي أدركه أحمد بابا صغيراً وحضر دروسه[1]، وأجيز خطباً على يد القاضي العاقب بن محمود أقيت، كما درس على يد الشيخ محمد بن محمود بغيغ علوم التفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان والتصوف وغيرها، وفي حديثه عنه يقول "...وبالجملة فهو شيخي وأستاذي، ما نفعني أحد كنفعه وبكتبه، رحمه الله تعالى وجازاه بالجنة، وأجازني بخطه جميع ما يجوز له عني...."[2].

بعد الغزو السعدي لسنغاي ونكبة آل أقيت الشهيرة تم ترحيله إلى مراكش 1002هـ/1593م. قضى فيها حوالي 14 عاماً أفاد خلالها بعلمه واستفاد من علم غيره ليعود إلى مسقط رأسه في تنبكت التي وصلها يوم الثلاثاء من ذي القعدة عام 1016هـ /1608م، جلس بقية حياته في تنبكت معلماً ومفتياً مع اشتغاله بالتأليف حتى وفاته يوم الخميس 06شعبان 1036هـ/1627/03/22م. ودفن بجوار قبر والده في تنبكتو.

تتلمذ على يد العلامة أحمد بابا التمبكتي الكثير من العلماء المغاربة والسودانيين وتحدثت المصادر التاريخية عن جموع الأساتذة والطلاب الذين توافدوا على مجالسه العلمية، منهم الشيخ القاضي أبو القاسم بن أبي النعيم الغساني، قاضي الجماعة في فاس المتوفي عام 1032هـ/1624م. والقاضي أبو

1- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص ص 142-143. انظر أيضا كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج1. ص 139. انظر أيضاً السعدي: المصدر السابق، ص ص35-43.

2- التمبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 602. انظر ايضاً كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2، ص 240.

العباس أحمد بن محمد المغربي التلمساني (922هـ-1041هـ/ 1584-1631م) والشيخ محمد عبد الله الرجراجي المتوفي عام 1022هـ/1613م وكان يشغل مفتي مراكش، وأبو العباس أحمد بن محمد السوسي البوسعيدي (990-1046هـ/1582-1636م).[1]

وتحدث أحمد بابا عن ذلك وهو يترجم لنفسه "...وازدحم على الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، قراء على قضاتها كقاضي الجماعة بفاس العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني وهو كبير ينيف على الستين وكذا قاضي مكناس الرحلة المؤلف صاحبنا أبو العباس بن القاضي المكناسي وهو اسن مني، ومفتي مراكش الرجراجي وغيرهم ..."[2].

أما عن تلاميذه في بلاد السودان فلا شك أنهم كثيرون وإن لم تنقل لنا المصادر اسماؤهم محددة، إلا أنه وبالعودة إلى القرنين والفترة الزمنية التي مكثها في تنبكتو بعد عودته من مراكش، يمكننا أن نقف على بعض من هؤلاء فمنهم مصطفى بن أحمد بن محمود بغيغ (973-1025هـ/1556-1616م) وشقيقه الفقيه محمد بن محمود بغيغ ت(1066هـ/1655م) والفقيه المؤرخ عبد الرحمن السعدي وقد وصفه السعدي بأنه العلامة فريد دهره ووحيد عصره البارع في كل فنون العلم[3].

خلّف أحمد بابا التمبكتي العديد من المؤلفات في مختلف فنون العلم وبالأخص في مجال التراجم[4]، من هذه المؤلفات ما وجد وقسم آخر فقد، ويأتي في مقدمة هذه المؤلفات ما اعتمدنا عليه بالأخص

1- مطير غيث: المرجع السابق، ص290.

2- التمبكتي: كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2، ص 284.

3- السعدي: المصدر السابق، ص 35.

4- محمد الغربي: المرجع السابق، ص 549.

في هذا الفصل من البحث مؤلفيه "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" ألّفه على هامش كتاب ابن فرحون "الديباج المذهّب في معرفة إيمان المذهب"، ترجم في نيل الابتهاج لثمان مائة واثنين من علماء المذهب المالكي، ويظهر من خلال الكتاب أن أحمد بابا شرع في تصنيف مؤلفه قبل ترحيله إلى مراكش حيث أتمة هناك عام 1005هـ/1596م.

ويضم كتابه (كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج) ما يزيد عن سبعمائة ترجمة لعلماء المذهب المالكي من المشرق والمغرب والأندلس وبلاد السودان، ويبدو أن أحمد بابا ألّفه أثناء إقامته بمراكش وذلك سنة 1012هـ/1603م مقتصراً فيه على مشاهير الفقهاء وأئمة المذهب المالكي[1].

ومن مؤلفاته أيضاً (معراج الصعود لنيل مجلوب السود) وهو عبارة عن جوانب لأسئلة وردته، من بعض علماء توات تتعلق بحكم الاسترقاق، وبالرغم أن المؤلف ضمن كتب الفتوى. إلا أن احتواءه على بعض المعلومات التاريخية حول انتشار الإسلام في بلاد السودان يدفعنا لوضعه ضمن كتب التاريخ وقد أتم هذا الجواب سنة 1023هـ/1614م، وقد ذكر المؤلف ذلك بقوله "...تم ورد الآن في أواخر هذه السنة، وهي الثالث والعشرون والألف استدعاء الجواب عليه"[2].

يضاف إلى هذه الثلاث مؤلفات الشهيرة والمتوفرة بعض كتب الفقه مثل (متن الرب في تجميع خليل) و (اللمغ في الإشارة لحكم طبغ) و(حكم الرزاق في مسألة الشك في الطلاق) و (أجوبة

1- مطير غيث: المرجع السابق، ص294.

2- التنبكتي: معراج الصعود، ص 51.

الأسئلة المصرية) و(الكشف والبيان لأصناف مجلب السودان)، وفي علوم اللغة العربية (تعليق على أوائل الألفية) و (غاية الإجادة في مساءلة الفاعل للمبتدي في شرط الإفادة)[1].

4-العمـــــــــارة والفنـــــــون:

4-1العمـــــارة:

كان يغلب على سنغاي وبلاد السودان قبل الإسلام الفن المعماري الأصيل الخاص بإفريقيا، ويتشكل من بناء مستدير مغطاة سطوحه دائماً بالأخصاص والقش في شكل هرمي، وربما يعود ذلك في الأساس إلى عامل التكيف مع المناخ، لأن فصل الصيف تحفل فيه السحب بأمطار غزيرة[2].

هذه البناءات تبنى حيطانها من الطوب ونادراً ما تتخللها الحجارة، وفي الغالب نجد أن هناك فرقاً واضحاً بين بناء الأغنياء والعامة، فبيوت الأغنياء عادة ما تبنى بالآجر (الطوب المشوي) في حين تبنى بيوت العامة بالطوب المجفف ويخلط بالتبن أحياناً حتى يزداد صلابة[3]، كما هو الشأن في بعض مباني قصور الصحراء الجزائرية.

يبدأ تأثير العمارة الإسلامية بالظهور جلياً في بلاد السودان مع وصول المهندس الأندلسي (الساحلي الغرناطي) الملقب بالطويجن، ولا نعلم إن كان قبل ذلك تواصلاً في هذا المجال، حيث قدّم

1- مطير غيث: المرجع السابق، ص295.

2- زبادية: سنغاي في عهد الأسيقيين، المرجع السابق، ص165.

3- نفســــــــه: ص165.

مع كانكان موسى من الحج عام 1325م، وبمجرد وصول هذا الأخير بنى مساجد في كل من تنبكتو، غاو وجني[1].

ولم يقتصر التأثير العمراني العربي على المساجد والقصور الملكية بل امتدّ إلى المتاجر، حيث قام التجار العرب الذين سكنوا المنطقة ببناء حوانيتهم على الطريقة المغربية، فمخازن البضاعة كانت تبنى في أسفل دور السكن وقلّدهم الأهالي في ذلك.[2]

وبالعودة إلى مدن سنغاي خلال فترة الدراسة نجد أن لكل مدينة مسجدها الكبير الذي يجتمع فيه سكانها حيث خطت هذه المدن وفق تنظيم المدن الإسلامية المغاربية منها والمشرقية، ومن ذلك تنظيم المخازن والمتاجر والحوانيت التي بنيت حول المسجد، حسب أهميتها والطلب عليها، وتأتي في نهاية هذه الأبنية حوانيت الحدّادين[3].

وقسّم المؤرخ زبادية بيوت السنغائيين إلى ثلاثة أشكال، شكل إفريقي قديم وقد أشرنا إليه، والشكل المربع المسقوف بالتراب والمحاطة جوانبه من أعلى بإطار قليل الارتفاع، وكثيراً ما تتخلل الإطار ثقُب صغيرة مخافة استقرار المياه على السطح وكان خاصاً في البداية بالسادة ثم عمّ استعماله لدى الجميع وهذا النوع يمكن تسميته بالطراز المغربي الأندلسي، وثالثاً الشكل الهرمي ويظهر في بناء المساجد وتخطيطه في أن يبنى المسجد في هيئة مربعة ثمّ ترتفع حيطانه وتتخللها الأعمدة التي توصل بينها، وبعد

1- زبادية: المرجع السابق، ص 165.

2- مطير غيث: التأثير العربي الإسلامي، المرجع السابق، ص 205.

3- نعيم قدّاح: المرجع السابق، ص ص 145-146.

أن يسقف تبنى الصومعة في وسط السطح من أعلى[1]، ولا يزال قائماً من الأبنية التي بقيت من أيام الأسيقيين حتى الآن قبر الحاج محمد الأول في غاو ومسجد جني[2].

وإذا تقدمنا زمنياً الى ما بعد سقوط سنغاي في فترة الرماة المغاربة فيذكر دوبوي ياكوبو "DopuisYakouba"، أن الرماة نقلوا إلى هذا البلد مختلف الأدوات المعروفة آنذاك، كما أنهم بنو بتنبكت وجني ومناطق سودانية أخرى مجموعة من المنازل على الطراز المغربي الفاسي والمراكشي والصحراوي، الشيء الذي يظهر من خلال أبواب البيوت والنوافذ، التي كانت تزين بالمسامر والنقوش والسّبائك المحفورة تماماً مثل المنازل المغاربية[3]. نفس الباحث ميّز بين مرحلتين من المؤثرات الأجنبية في ميدان العمران داخل السودان مرحلة التأثير الفرعوني ومرحلة التأثير المغربي، وهذا الأخير يذكر أنه وصل إلى قمته مع وصول الباشوات المغاربة إلى السودان[4].

ويؤكد شارل مونتاي بدوره على أن المنطقة عرفت ظهور منازل من طراز مغربي في جهات كثيرة داخل السودان، تتميز بجدرانها السميكة وبسقوفها المسطحة التي تستغل للنوم في الصيف، وهذه البنايات تصمد لمدة طويلة أمام العوامل الطبيعية وتنقسم هذه المنازل إلى جزئين كبيرين، الأول مخصص للأسياد والضيوف والثاني مخصص للعبيد والنساء وللمخازن ولإعداد الطعام، كما توجد بها

1- زبادية: المرجع السابق، ص ص 166-167.

2- نفســـه: ص 167.

3- Dupuis Y.Op.cit, Pp 11-12.

4 - Dubois, F, Op.cit, Pp 174-175.

شرفات للمسامرة، وهذا التصميم بدوره هو السائد في المغرب والأندلس لهذا سمي بالطراز المغربي الأندلسي[1].

لقد حاكى سلاطين السودان وأمراؤهم المغاربة في إضفاء الرونق والجمال على قصورهم ومساجدهم، وبذلك رأينا المبدعين المغاربة من مهرة الصناع الفاسيين والمراكشيين يشيعون الفن المغربي الأندلسي في حواضر إفريقيا الإسلامية وما زالت النقوش الفاسية والشمسيات الزجاجية، قائمة هناك تشهد على عبقرية الإبداع العربي المغربي الإسلامي[2].

2-4 الفـــــــن والموسيقى:

هنالك مقولة مأثورة تتردد على لسان الأفارقة وغيرهم "إذا غربت الشمس رقصت إفريقيا" ولا شك أن هذه العبارة الصادقة إلى حد بعيد، تعبر عن ولع الأفارقة بالموسيقى والرقص والغناء، حيث بلغوا فيها درجة معتبرة من الحذق والمهارة.

ونقل لنا الحسن الوزان أنه شاهد بنفسه سكان الأحياء المختلفة يبيتون في غناء ورقص حتى مطلع الفجر، وتزداد تلك الظواهر انتشاراً وقوة لديهم خلال الأعياد والمناسبات[3]، ويصفهم مارمول كاربخال بقوله "أهل السودان أشخاص يتصفون بالليونة والطرافة وحسن المعاملة والبشاشة، يغنون ويرقصن

1- Monteil, Ch, Op.cit, P30.

2- الطيب الوزاني: **مقومات التفاعل الثقافي والحضاري بين دول غرب إفريقيا والمغرب الأقصى**، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، كلية تطوان، 12-14 ماي 1998، ص 491. أنظر أيضاً شوقي عطا الله الجمل: الحضارة الإسلامية في غرب إفريقيا، المرجع السابق، ص 158.

3- الوزان: المصدر السابق، ص101.

على نغمات طبول ومزامير"[1]. وأورد كلاً من السعدي وكعت في غير ما موضع يتحدثن عن الطنابير الملكية التي تدق في كل مناسبة يخرج فيها الملك للتجول أو السفر، أما أثناء خروج الجيش فإن ضربات الطبول كانت لا تتوقف حتى وهو في المعركة[2].

أما عن الآت الطرب فقد وجدت الطبول الصغيرة منها والكبيرة، كما عرفت لديهم الأبواق التي كانت تتخذ في الغالب من قرون الأبقار وأنياب الفيلة، كما كانوا يستعملون أيضاً قصبات اليراع كمزامير[3].

ومع امتداد الحكم المغربي لبلاد السودان تمّ إدخال بعض الآلات المغربية المعروفة مثل الكمبري وأنواع أخرى من المزامير المصنوعة من القصب، مما خلق نوعاً من الموسيقى المشتركة بين المنطقتين مثل كناوة. أو قناوة والموجودة إلى اليوم.

كما شاع خلال الفترة استعمال الصنجات النحاسية والخشبية والرباب والغيطة[4]، ويذكر مؤلف تذكرة النسيان أن الباشوات المغاربة لا يخرجون للسفر في النهر أو البحر إلا ومعهم جوقة موسيقية، أما في تنبكت فإن الموسيقيين يأتون إلى فناء المشور بعد صلاة العصر، حيث يغنون ويرقصون[5].

1- مارمول كربخال: المصدر السابق، ج3، ص 203.

2- زبادية: المرجع السابق، ص 164. انظر أيضاً كعت: المصدر السابق، ص ص29-31. والسعدي: المصدر السابق، ص ص 19-23.

3- زبادية عبد القادر: المرجع السابق، ص 165.

4- مطير غيث: المرجع السابق، ص ص 383-384.

5- مجهول: تذكرة النسيان، المصدر السابق، ص 145.

5-المـــــــراكز الثقافيـــــــــة:

أنتج لنا التواصل الثقافي والحضاري بين ضفتي الصحراء الكبرى حواضراً ومدناً ثقافية، حاولت أن تحاكي في تكوينها ودورها حواضر العالم الإسلامي المشهورة في المغرب العربي على غرار القيروان وفاس وتلمسان وغيرها.

إنه لمن المبالغة أن نضع مقارنة بين هذه الحواضر أو المدن الثقافية لكن المستوى الحضاري الذي بلغته تمبكتو وجني وغاو في سنغاي خلال ق16 يدفع الباحث إلى تقصي العوامل التي جعلت من هذه المدن أن تصل إلى ذلك المستوى وهي في أقاصي الصحراء حيث قساوة الطبيعة والمناخ هذا ما سنحاول البحث فيه من خلال وقفة مع هذه الحواضر.

5-1-تنبكتـــــــــــو:

تجمع أغلب المصادر التاريخية الإفريقية والعربية التي تناولت نشأة وتطور تنبكتو على أن هذه الأخيرة تأسست حوالي القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد على يد قبائل طوارق مقشرن[1]، إحدى قبائل صنهاجة الملثمين. أما عن أصل التسمية جاءت في أن هناك سيدة من الطوارق كانت تعيش في الموقع الحالي تنبكتو وكان اسمها (بكت)، وكان رجال قبيلة مقشرن الطارقية ينزلون في ذلك المكان في فصل الصيف راتعين بحيواناتهم على ضفاف نهر النيجر، ويرتحلون في الخريف شمالاً حتى حدود أروان[2]، وعند ارتحالهم يتركون أمتعتهم الزائدة لديها، ولذا سميت المدينة (تِنْبَكْتُ) أي (مكان أو مأوى بكت حيث أن لفظ (تِنْ) يعني بلغة الطوارق المكان أو المأوى. وبكتُ اسم المرأة وبرغم اختلاف

1- السعدي: المصدر السابق، ص 21. انظر أيضاً أسماء الأحمر: المرجع السابق، ص 124.

2-جميلة التكيتك: المرجع السابق، ص 178. انظر أيضاً زبادية: المرجع السابق، ص 100.

بعض الباحثين حول تصديق هذه الرواية المتداولة إلى اليوم، إلا أن العارف بالصحراء وتشعباتها ومقدرة الطارقي على تحمل تلك الشدائد فإنه لا يستعبد أن تكون الأقرب إلى الصواب بين الروايات الأخرى.

ولئن كان هناك نسبة إجماع على تأسيسها وأصل تسميتها فقد اختلف المؤرخون والباحثون حول كتابتها فالسعدي وأحمد بابا وكعت، وصاحب تذكرة النسيان كتبوها (تنبكت)، أما حسن الوزان وابن بطوطة والبرتلي قد ضبطوها باسم (تنبكتو) وأضاف لها المستشرقون والمؤرخون الغربيون حرف الميم، فكتبوها (تمبكتو-Tombouctou) واستناداً إلى هذه المصادر، نجد أن الاسم الأقرب للمنطق والكتابة هو (تنبكت) انسجاماً مع قصة التأسيس ولاعتبار مؤرخو تنبكت المحليين[1].

تقع تمبكتو على الحافة الشمالية لمنحى نهر النيجر، وقد حدّد حسن الوزان ذلك المكان بقوله " على بعد اثني عشر ميلاً من أحد فروع النيجر"[2]، وكان لموقع تمبكتو على ملتقى الطرق التجارية بين طرق الصحراء أن جعل منها مركزاً تجارياً باقتدار، وولد ذلك التفاعل التجاري تفاعلاً ثقافياً بفضل التجار والدعاة الذين استقطبتهم هذه المدينة[3]، وفي هذا السياق يقول السعدي "...هذه البلدة الطيبة الطاهرة الزكية الفاخرة ذات بركة ونجعة وحركة هي مسقط رأسي، وبغية نفسي، ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والزاهدين

1- مطير غيث: الثقافة العربية الإسلامية، المرجع السابق، ص187.

2- الوزان: المصدر السابق، ج2، ص165.

3 – زبادية: ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو خلال القرن السادس عشر، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ع7و8، جانفي 1977م، ص ص 30، 31.

وملتقى الفلك والسيار..."[1]، ويصفها صاحب السعادة الأبدية بقوله "... فهي مدينة لم تزل من حين أسست دار فقه وعلم وصلاح ودين وولاية وهي قاعدة بلاد السودان" وفي وصف آخر يقول " أنها احتوت على خير كثير وفضل كبير لم يحو غيرها من مدن السودان بل مقامها السودان مقام الوجه في الإنسان"[2].

إن البروز التجاري أولا والبعد الثقافي ثانيا لمدينة تنبكتو بدأت معالمه مع ق13، ومنذ ذلك التاريخ بدأت تأخذ مكانتها كأحد أهم المراكز التجارية في بلاد السودان خصوصاً مع تراجع ولاتة، وفقدها لمكانتها التجارية والثقافية وهو ما نستخلصه من كلام حسن الوزان عن المدينتين مطلع القرن 16 حيث وصف ولاتة بأنها مملكة صغيرة خاملة لا نشاط لها، وليس لها من الأماكن المسكونة سوى ثلاث قرى وأكواخ متفرقة في حين يذكر أن تنبكتو مزدهرة تجارياً يوجد بها دكاكين كثيرة للتجار والصناع والحياكين وتصل إليها الأقمشة الأوروبية عن طريق تجار الشمال الإفريقي"[3].

لقد بلغت تنبكتو أوجّ ازدهارها الثقافي والتجاري في ظلّ حكم الأسيقيين خاصة فترة حكم الأسكيا محمد التوري والأسكيا داوود، حيث أضحت موطناً لرجال العلم والفكر، يقصدونها من كل صوب وحدب. ويصف لنا الوزان ذلك بقوله " ...وفي تنبكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة

1- السعدي: المصدر السابق، ص21.

2- الارواني: السعادة الأبدية، المصدر السابق، ص 26.

3- الوزان: المصدر السابق، ص161.

يدفع الملك إليهم جميعاً مرتباً حسناً وينظم الأدباء كثيراً وتباع أيضاً مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدر أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع[1].

وهذا دليل آخر يبين مظهراً من مظاهر تلك الحركة العلمية التي شهدتها تنبكتو في ذلك الوقت.

ولعلّ أبرز أشكال التأثير العربي الإسلامي في أسس معانيه تلك المساجد العديدة التي كانت تزخر بها تنبكتو، وأشهرها مسجد سنكرى أو سنكوري الذي تحول بعد مدة إلى جامعة للدروس العلمية والدينية، وعن بنائه يقول السعدي" أما مسجد سنكرى فقد بناها امرأة واحدة إغلالية ذات مال كثيرة في افعال البر..."[2] ويرجح أن تاريخ بنائه يعود لعام 1450م[3]، ويعد هذا المسجد معلماً من المعالم الحضارية ورمزاً للتأثير المعماري الإسلامي أصبح يضاهي في نظر السودانيين في الشهرة والأداء مساجد الأزهر القرويين[4].

ويأتي مسجد الونكريين (المسجد الجامع) في المكانة الثانية في تنبكتو وموقعه كما أشار إليه الوزان "...ويقع في وسط المدينة الجامع المبني بحجارة منحوتة من طين الكلس على يد مهندس من الأندلس..."[5].

وفي المرتبة الثالثة من حيث الأهمية يأتي مسجد سيدي يحي الذي بني تخليداً لأحد علماء المغرب وسمي باسمه، وظل هذا العالم الجليل إماماً للمسجد حتى وفاتـــه وقد أدرك فترة حكـــم الأسكيا

1- الوزان: المصدر السابق، ص 167.

2- السعدي: المصدر السابق، ص 21.

3- جميلة التكيتك: المرجع السابق، ص 178.

4 - انظر الملحق، رقم 12.

5- الوزان: المصدر السابق، ص 540.

محمد الكبير[1]، وعن ذلك يقول السعدي " ... قدم تنبكتو والله أعلم في أوائل دولة الطوارق فتلقاه تنبكت كي محمد نضفاحبة وأكرمه غاية الإكرام فابتنى مسجده وجعله إماماً فيه، فبلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح والولاية..."[2]

2-5 جنـــــــــــــي:

تقع مدينة جني على مسافة مائتي ميل إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكتو[3]، وعلى مرحلة من الضفة اليسرى لنهر باني أحد روافد نهر النيجر، تقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه في فصل الأمطار[4]، وقد اختلف الباحثون حول تاريخ تأسيسها فمنهم من يرجعه إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، ومنهم يشير إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي[5]، فهي لم تكن مدينة إسلامية منذ نشأتها مثل تمبكتو.

أول من سكن جني قبائل السوننكي، في حين هناك من يرى أن قبائل الطوارق الصنهاجية هم من اختطها لتكون ملتقى لتجار الملح والذهب ويدعم هذا الرأي قوله ما مفاده ان قبائل السوننكي قدموا من الجنوب، وبمرور الزمن فاق عددهم الطوارق[6].

1- جميلة التكيتك: المرجع السابق، ص 180.

2- السعدي: المصدر السابق، ص 50.

3- شلبي: المرجع السابق، ص 99.

4- عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا، المرجع السابق، ص 154.

5- السعدي: المصدر السابق، ص 12.

6- محمد الغربي: المرجع السابق، ص580.

ويذكر السعدي قصة إسلام أهل جني فيقول "ثم أسلموا عند تمام القرن السادس والسلطان كنبر هو الذي أسلم وأسلم أهلها بإسلامه، ولما عزم على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة فحصل منهم أربعة الآف ومائتان عالماً فأسلم على أيديهم..."[1].

يعبر أرنولد عن قصة إسلام جني بأن إسلام كنبرو Kunburu حوالي نهاية القرن السادس الهجري (حوالي 1200م) قدر لجني في القرون المتعاقبة أن تؤثر تأثيراً قوياً في تقدم الإسلام في السودان الغربي، ويسير حسن ابراهيم حسن على نهج توماس رغم تحفظه على المبالغة في عدد هؤلاء العلماء (4200) أن الإسلام قد تقدّم تقدّماً عظيماً في البلاد التابعة لكنبرو ملك جني هناك شك في أن وجود أعداد كثيرة من العلماء دليل قوي على نشاط الدعوة الإسلامية في بلاد السودان الغربي وسرعة انتشار الإسلام وقبوله.

ظلت المدينة مستقلة منذ إسلام أهلها حتى وصول سني علي إلى الحكم في سنغاي والذي استولى على تمبكتو ثم اتجه نحو جني ليستولي عليها أيضاً بعد حصارها لفترة طويلة حسب رواية السعدي والتي استمرت لسبع سنوات[2]، وهي من الناحية العملية والنظرية فترة حصار مبالغ فيها جداً، ولم يسبق أن سمعنا في التاريخ بحصار بهذا الطول والفترة في الصحراء.

وفي عهد الأسكيا محمد الأول عرفت جني تقدّماً كبيراً وبالأخص على المستويين التجاري والثقافي، وصفها صاحب الجواهر الحسان بقوله " مدينة عظيمة ميمونة عليها إمارات البركة والخيرات سعة

1- السعدي: المصدر السابق، ص17.انظر أيضاً شلبي: المرجع السابق، ص 162.

2- السعدي: المصدر السابق، ص ص 12-13.

ورحمة. جعل الله في أرضها الخير الكثير والنعم الجليل"[1]. ولم يخرج السعدي عن ذلك السياق من الوصف بقوله " مدينة عظيمة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة جعل الله أرضها خلقاً وحلية وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمواساة ولكن المنافسة على الدنيا كانت في أخلاقهم جداً، ومدينة جني سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من تغازة وأرباب الذهب من بيط، وكلا المعدنين مباركين ما كان مثلهما في الدنيا كلها"[2].

احتلت جني المرتبة الثانية من حيث الأهمية الثقافية بعد تمبكتو، حيث تواجد بها الكثير من العلماء وطلاب العلم، ولذلك أجبرت سلاطين الأساكي على احترامها فما يمر جيش من جيوش سنغاي بجني إلا والتقى بقاضيها وقدم له الهدايا والمساعدات لبناء مسجد أو مأوى لطلاب العلم"[3].

وفي تناول الوزان لمدينة جني على إيام الأساقي، يرى أنه يقصدها الكثير من التجار ويسكنها الكثير من العلماء والمدرسين والطلاب وهي تسع لكل الوافدين عليها[4].

ومن العلماء المشهورين في جني على أيام الأساقي "موري ماجا" الذي عاش في القرن الخامس الهجري، وقد أخبر عنه السعدي كعالم بارز متمكن في التعليم والتدريس والقاضي "محمد سانو" الذي باشر القضاء في النصف الأول من القرن السادس عشر بالإضافة إلى العباس كي ومحمد بارها بورو

1- الأرواني: الجواهر الحسان، ص ص 10-11. نقلا عن الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص94. انظر أيضاً السعدي: المصدر السابق، ص 16 وأيضاً الهادي الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص93.

2- السعدي: المصدر السابق، ص 11.

3-نفســــــه: ص ص04-38.

4- زبادية: سنغاي في عهد الأسيقيين، المرجع السابق، ص 108.

الذي خلفه في القضاء سنة 1552م، ومن القضاة المشهورين في جني أحمد طورفو الذي ولد بالمدينة وتولى بها منصب القضاء لمدة طويلة[1].

لقد فاقت جني مدينة تمكتو كمركز ثقافي فازدهرت بها الدراسات الدينية، كما أمها العديد من العلماء أمثال موري ماجانا الذي كان يتولى التعليم والإشراف عليه في مساجد المدينة خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وكذا القاضي محمد سانو وكان عالماً وفقيهاً قدم إلى المدينة نهاية القرن التاسع الهجري وولاه الأسكيا محمد التوري القضاء هناك[2].

5-3 غــــــــاو:

تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر حيث يتصل به وادي تلمسي (Tilmsi) الذي ينحدر إليها من قلب الصحراء[3]. وإلى الجنوب الشرقي من تنبكتو حوالي خمسين كيلومتراً، وبالعودة إلى المصادر والمراجع المتخصصة في الدراسة لمدينة جاو، كثيراً ما يقع الخلط بين (كوكيا، غاو، كركر، كاغو وغاو) والأصح أن كوكيا وجاغ فهي جميعاً مسميات لغاو، والاختلاف يكمن في طريقة رسم الاسم أو طريقة نطقه من قبل المجموعات المختلفة التي كونت مملكة سونغاي أو من قبل الباحثين الذين كتبوا تاريخها، ويرجع اختيار جاو كعاصمة للأسيقيين بفعل اعتدال مناخها وموقعها على نهر النيجر[4].

1- زبادية: المرجع السابق، ص108.

2- أسماء الأحمر: المرجع السابق، ص 135.

3- اسماعيل العربي: **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1983م، ص 317.

4- مطير غيث: المرجع السابق، ص 202.

بلغت غـــاو أقصى ازدهارها في عهد الأسيقيين، واتخذت عاصمة لهم منذ أيام آل ضياء الأول وصفها الوزان المدينة العظيمة وأنها أجمل مدن السودان الغربي كله وحسب الإحصاء الذي أجري سنة 1585م فقد بلغت منازل غاو 7626 داراً، أما الأكواخ فإنها لم تحسب وكانت كثيرة، واعتماداً على ذلك الإحصاء قدّر موني سكان غاو في أيام ازدهارها على أيام الأسيقيين بخمسة وسبعين ألف نسمة[1].

وإن كانت تمبكتو قد تفوقت بمراحل على غاو ثقافياً، فإن الأخيرة عرفت ازدهاراً اقتصادياً وتجارياً كبيراً خلال القرن 16م فبالإضافة إلى كونها العاصمة السياسية كانت تمثل ملتقى لجميع القوافل التجارية القادمة إلى سنغاي من الشرق أو بلاد الهوسا، ومن الآثار التي بقيت شاهدة على عظمة حضارة جني كمركز ثقافي مقبرة الأساقي والمسجد المتصل بها، كما اكتشف بها عدد كبير من أواني الأكل والأسلحة والحلي التي كان يستعملها الموسرون من الأساقي، وكلها تنبئ عن مقدار البذخ الذي كانت تعيش فيه الطبقة الحاكمة على أيام الأساكي بمدينة جني[2].

وازدهرت في ظل اساكي جاو تجارة الكتب، وحفلت خزائن مدن السودان بكل ما كان معروفا في العالم الإسلامي من كتب ومصنفات وفي مختلف فنون المعرفة[3]، بل ان كاو شهدت في عهد

1- زبادية: المرجع السابق، ص 109.

2- نفســـــه: ص ص 109-110.

3- احمد إبراهيم دياب: **علماء بلاد السودان الغربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر وآثارهم العلمية**، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، بغداد 1985م، ص147.

الاسكيا داود إنشاء اول خزانة عامة للكتب يعمل فيها ناسخون، يقول كعت " انه اول من اتخذ خزائن الكتب وكان له نساخ ينسخون الكتب"[1].

وبهذا نجد ان اغلب المدن والمراكز في بلاد السودان الغربي خلال القرون 15و16و17 الميلاديين قد جمعت بين المجالين التجاري والثقافي، ولا شك ان لكل منهما تأثير في الاخر مما جعل هذه المراكز مقصدا لمختلف الطوائف والنحل نظير ما شهدته من تقدم معرفي وازدهار اقتصادي وتجاري.

بذلك نخلص الى ان المظهر الاجتماعي والثقافي يمثل مظهرا حقيقيا لمدى تأثير الحضارة العربية الإسلامية في بلاد السودان الغربي عامة ومملكة سونغاي على وجه الخصوص، ذلك ان هذا المعيار يرتبط بالفرد أساسا، ان بتغيير سلوكاته واخلاقه ونمط عيشه وحتى لباسه مما يجعل منه فردا متحضرا ذو مبادئ واسس وقواعد فرضتها عليه طبيعة الإسلام وشموليته لمختلف مناحي الحياة، ولم يكن هذا التأثير مقتصرا على الرجل دون المرأة، بل نجد التأثير في المرأة أكثر باعتبارها الركيزة الأساسية التي يبنى عليها المجتمع. والجانب الثاني ذو الأهمية من هذا المعيار هو الذي ينتقل فيه المرء من الممارسة الى الإنتاج بفضل ما انتجه السودانيون في مجالات الثقافة والمعرفة من علماء وادباء وفقهاء وشعراء وغيرهم، ومن رصيد علمي يظهر في تلك الكتب والمؤلفات العديدة التي خلف هؤلاء العلماء من أمثال احمد بابا التنبكتي، وعبد الرحمن السعيدي، وأسرة آل اقيت وغيرهم، كل ذلك كان بفضل

1- كعت: المصدر السابق، ص94. انظر أيضا زمان عبيد وناس: **تاريخ مدينة كاو منذ نشأتها حتى سقوط امبراطورية السونغاي**، دار الأيام، الأردن 2015م، ص181.

اندماج حضارتين احداهما وافدة من الشمال وأخرى كامنة في نفوس السودانيين وعقولهم كانت تنتر من يفتح ازهارها ويظهر رحيقها.

هل كانت سونغاي الوحيدة التي شملها التأثير وبتلك الصورة؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه فيما تبقى من فصول هذا البحث.

الفصل الثالث

مظاهر التأثير الإسلامي والمغاربي في الحياة السياسية والاقتصادية لمملكة البرنو الإسلامية 1571-1603م

اولاً: الحياة السياسية في مملكة البرنو من النشأة وحتى حكم السلطان ادريس الوما

1 مملكة البرنو من النشأة وحتى حكم السلطان ادريس الوما

2 مملكة البرنو في ظل حكم السلطان ادريس الوما

ثانياً: ملامح التأثير في الحياة السياسية والعسكرية

1-نظام الحكم وتقاليده

2-الجيش

3-القضاء

4العلاقات الخارجية للمملكة

ثالثاً: ملامح التأثير في الحياة الاقتصادية

1-الزراعة

2-الصناعة

3 -التجارة

كثيرة هي الدراسات التاريخية والثقافية وحتى السياسية التي تناولت ممالك بلاد السودان الغربي خاصة مالي وسنغاي، الا اننا لا نجد نفس الاهتمام والعناية بالدراسات المتعلقة بممالك السودان الأوسط، هذه الممالك التي بلغت شأوا ومكانة هامة في التاريخ الإسلامي، خاصة منها ممالك وداي والبرنو، هذه الأخيرة التي حملت الشطر الثاني من هذه الدراسة، شهدت رقيا إداريا وتقدما عسكريا ،ناهزت به ما كانت تعرفه سنغاي، بل تجاوزتها في كثير من الميادين بالرغم من ريادة الأخيرة وشهرتها ،ولعلنا من خلال هذا المبحث المدخلي نحاول التعريف بهذه المملكة من حيث الموقع والنشأة والتطور وصولا الى قمة ازدهارها في فترة حكم الماي ادريس الوما.

أولاً: الحياة السياسية في مملكة البرنو من النشأة وحتى حكم السلطان ادريس الوما.

1-نشأة المملكة:

1-1 الموقع الجغرافي:

تقع دولة الكانم-برنو ضمن ما اصطلح على تسميته بالسودان الأوسط بالقرب من بحيرة تشاد، الا أنه من الصعوبة بمكان ان نضع حدودا دقيقة لهذه الدولة، نظرا لاتساع مجالها الجغرافي طورا، وانكماشه طورا آخر تبعا لقوتها وضعفها، ويذكر البكري إن كانم امتدت وراء صحراء زويلة[1]، ولا يكاد احد يصل اليهاكما يذكر أيضا ان الحدود الغربية لهذه البلاد عند نهر النيجر وانها ضمت قسما

1- زويلة تقع مقابل اجدابيا في البر بين بلاد السودان وافريقيا وهي اول حدود بلاد السودان، ومن زويلة الى كانم أربعون مرحلة وهم وراء صحراء من وراء بلاد زويلة، انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص160.

من بلاد الهوسا[1]، وبهذا التحديد يكون البكري قد وضعنا في صورة واضحة ودقيقة لحدود المملكة الغربية حتى نهر النيجر، الا ان حدودها الشمالية لم يشر اليها اطلاقا، ضف الى ذلك ضمها لقسم من بلاد الهوسا أيضا غير معروف ومحدد[2].

ولعل ما ذكره العمري في حدود بلاد كانم اكثر دقة من غيره حين قال " ان كانم تجاور بلاد النوبة وبينها وبين مالي مسافة بعيدة جداً"[3]، ولم يكتفي العمري بهذه الإشارة بل أوضح أنها تبدأ من ناحية مصر ببلدة(زلا)[4]شمالا وتنتهي حدودها ببلدة (كاكا) في الجنوب كما تحدها (دنقلة) من الشرق وتقع مملكة افريقيا شمالها، ويوجد في الجنوب كفار السودان، اما حسن الوزان فيذكر حدود المملكة بقوله " يحدها من الغرب ونقارة وشرقا صحراء سو...ومن الشمال صحراء البرداوة المتاخمة لبرقة، ويمتد هذا الإقليم شرقا على مسافة 500 ميل ..."[5]، أي انها تقع في الشمال الشرقي لبحيرة تشاد حاليا[6]، وبالعودة الى ما ذكره الوزان نجد ان هذا الأخير لم يطل به المقام بالكانم سوى شهرا واحدا، وهو مالم يسمح له بزيارة جميع أرجاء المملكة، والأكثر من ذلك نجد اسقاطه للفظ الكانم وهو يتحدث عن المملكة التي كانت تعرف آنذاك بمملكة الكانم-برنو.

1- الرباصي: **العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو(7-10هـ/13-16م)**، منشورات جامعة 07اكتوبر، ليبيا،2008م، ص15

2-البكري: المصدر السابق، ص11.

3-العمري: مصدر سابق، ج3، ص490.

4-زلا: تقع في بلاد المغرب الأدنى قرب ودان، وحيث ان الثابت تاريخيا ان دولة الكانم لم تصل الى هذه المنطقة، فالمقصود هنا زويلة التي تقع جنوب فزان ضمن مناطق خضعت لسيطرة كانم في بعض الفترات.

5-الوزان: المصدر السابق، ج2، ص553.

6- عمار هلال: **مملكة الكانم وبورنو**، مجلة المنهل، ع450، السنة 53، مج48، ص90،90.

أما القلقشندي نجده يفصل في كلامه بين البرنو وبلاد الكانم، ويصف كل إقليم على حدى، فيقول عن البرنو من حيث الموقع "وبلادهم تحدها بلاد التكرور من الشرق، ثم يكون حدها من الشمال بلاد افريقية ومن الجنوب الهمج وقاعدتهم مدينة كاكا" وعن بلاد كانم يقول " وبلادهم بين افريقية وبرقة ممتدة في الجنوب الى سمت الغرب الأوسط"[1]، أما ابن خلدون فيذكر عن اهل الكانم- برنو" انهم خلق عظيم ...والاسلام غالب عليهم وقاعدتهم جيمي ولهم التغلب على بلاد الصحراء الى فزان "[2]. هذا بالإضافة الى كثير من الإشارات للتعاريف والحدود في باقي المصادر للفترة الوسيطة منها خاصة والحديثة.

ونخلص مما ورد ذكره في هذه المصادر وغيرها عن موقع بلاد كانم الى غياب التحديد الدقيق، فبرغم اتفاقها غير المعلن على ان بحيرة تشاد مهد لهذه المملكة، فإنها لم تحدد لنا تصورا قاطعا لحدود المملكة وبالأخص الجهتين الجنوبية والشرقية، ولا شك ان انعدام الدقة في التحديد يعزى الى اتساع أراضيها حينا وانكماشها حينا آخر، بفعل الغزوات التي يشنها ملوك الكانم شمالا ضد قبائل الطوارق والتيبو، مما يزيد من مساحة المملكة، اما من الجنوب فحدود السلطنة تصل الى مجاورة الغابات الاستوائية، في حين تتصل من جهة الشرق ببلاد النوبة، كما تتداخل حدودها للغرب مع ممالك الهوسا(انظر الخريطة الصفحة الموالية).

جعل هذا الموقع المتوسط بلاد الكانم حلقة وصل بين السودان الغربي والشرقي، وبين مناطق الصحراء في الشمال والغابات الاستوائية في الجنوب، ذلك ما مكنها من لعب دور هام ومؤثر في

1-القلقشندي: المصدر السابق، ص279.

2-بن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص198.



خريطة تبين موقع سلطنة البرنو من منطقة غرب افريقيا[1]

1 – حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1987م، ص367.

الحياة الاقتصادية والسياسية ضمن نطاق بلاد السودان الأوسط، وجعل منها معبرا لمختلف المؤثرات الدينية والاقتصادية والاجتماعية من الشمال نحو الجنوب[1].

وعن الموقع الفلكي في الدراسات المعاصرة يضع بسيوني حدودها بين خطي طول (10و15) شرقا وخطي عرض (10و20) شمالا، وبذلك تمثل بحيرة تشاد موقعا متوسطا فيها، وتضيق مساحتها كلما اتجهنا غربا، وتتسع تدريجيا لتصل الى اقصى اتساع لها في الوسط، وتجاور الكانم-برنو مجموعة من الامارات أبرزها كاتسينا، ودورا وكانو[2].

2-1 مدلول التسميـــــــــــــــــة:

أ-كـــــــــــــانم: كانم بكسر النون كما ذكر البكري وياقوت الحموي في معجميهما، وابن خلكان في ترجمة الى يوسف يعقوب بن ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، انهم جنس من السودان وهم بني عم تكرور[3]،وزاد أبو عبيد البكري ،ويزعمون ان هناك قوما من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم مع بني العباس وهم على زي العرب وأحوالهم ،ويقول القلقشندي في صبح الأعشى "كانم أهلها مسلمون والغالب على الوانهم السواد"[4]، وفي مسالك الابصار "ان بلادهم بين افريقية وبرقة ممتدة في الجنوب الى سمت الغرب الأوسط ..وقاعدتها مدينة (جيمي) قال في تقويم البلدان بكسر الجيم وبالياء المثناة تحت الساكنة وكسر الميم ثم باء مثناة تحتية في الآخر حسبما هو في خط ابن

1- الرباصي: المرجع السابق، ص18، 19.

2-علي بسيوني: **برنو في عهد الاسرة الكانمية**، رسالة ماجستير، غ م، اشراف احمد الحته، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة ،1976م، ص01.

3-بن خلكان: المصدر السابق، ج6، ص14.

4-القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص280.

سعيد". ويقول بن خلدون "كانم خلق عظيم والإسلام غالب عليهم، ومدينتهم جيمي، ولهم التغلب على الصحراء الى فزان"[1].

ب-برنـــــــــــــو:

بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو ، وأول من ذكر برنو من العرب العمري فقد أشار اليها على انها جزء من امبراطورية الكانم[2]، وقد اختلف الباحثون في اصل تسمية برنو فيرى البعض انها مأخوذة من (برنوح) لانهم يعتقدون ان سفينة نوح قد رست على هذه الأرض، وانهم سمعوا التسمية هكذا برنو من امراء كانم المطرودين من بلادهم ،وهم يقولون انهم اصل بلاد نوح ثم حذفت الحاء من (برنوح) وصار الاسم برنو[3]، يقول القلقشندي في صبح الاعشى "بلاد برنو تحد بلاد التكرور من الشرق، ثم يكون حدها من الشمال بلاد صاحب افريقية ومن الجنوب الهمج"[4]، ويقول الوزان "برنو تحد غربا بونكارة، وهي اليوم مملكة مالي، وتمتد حدودها على مسافة طولها خمسمائة ميل ،وتبعد نحو مائة وخمسين ميلا عن منابع نهر النيجر، وتتاخم من ناحية الجنوب صحراء سط وساو وتتصل شمالا بصحراء برقة"[5]. وذكر ابن بطوطة عن موقعها بقوله " برنو على مسيرة

1-ابن خلدون: المصدر السابق، ص263.

2-العمري: المصدر السابق، ص28.

3-الشاطر بصيلي: **تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ص411.

4-القلقشندي: المصدر السابق، ج08، ص07.

5-الوزان: المصدر السابق، ج2، ص499.

أربعين يوما من تكدا وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم الا من وراء حجاب ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان، والفتيان والثياب المجسدة ويحمل النحاس منها[1]".

هذا وقد أطلق عرب الشوا في منطقة بحيرة تشاد كلمة (برنو) على مجموعة قبائل الكانوري، وهذه التسمية هي تحريف لكلمة (باران) baran او Baram في بعض اللغات الصحراوية ومعناها الرجال او المحاربون، ومفردها (بار) Bar[2].

ويجب ان نشير الى ان مدلول الكلمتين لم يقتصر على الإشارة الى السكان او القبائل المشهورة بهذه الأسماء وانما صار يعني مكان إقامة هذه القبائل، فقد أشار اليعقوبي الى الكانم باعتبارها مكانا وموضعا[3]، ونفس الامر يتكرر عند ياقوت الحموي في القرن الثالث عشر الميلادي (13م) حين ذكر إقليم كانم وموقعه[4]، وربما كان بن سعيد (ت1286م) من أوائل من تحدثوا عن برنو بشيء من التفصيل، وفي نفس السياق ذهب كعت حين أشار الى (سلطان برن)[5].

1-3 نشأة المملكة:

دلّت الأبحاث والمكتشفات التاريخية الحديثة عن وجود حضارات قديمة أقيمت حول بحيرة تشاد ومن زمن طويل جداً، حيث كشف علماء الآثار عن حقائق تدل على انها كانت آهلة بأقوام

1-ابن بطوطة: المصدر السابق، ج02، ص198. انظر أيضا جعفر الناصري: **المحيط بالمهم من اخبار صحراء المغرب وشنقيط**، تقديم احمد الناصري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب،2015، ص182.

2-طرخان إبراهيم: **امبراطورية البرنو الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة، للكتاب، ط1، 1975م، ص05.انظر أيضا Palmer. H.R: the Bornu Sahara and Sudan, London, 1936, pp 6,125.

3-اليعقوبي: المصدر السابق، ج01، ص ص156، 157.

4-الحموي: المصدر السابق، ج07، ص210.

5-كعت: المصدر السابق، ص38.

يشتغلون بالزراعة، ثم عرفوا صناعة الأواني الفخارية، وتعلموا صهر الحديد واتخذوا منه آلات واسلحة، وصنعوا تماثيل من الطين المحروق[1].

ولقد قامت هذه الحضارات في كانم القديمة على يد شعوب متعددة، وأهم هذه الشعوب هو شعب (الساو) ذلك الشعب الذي اتم نمط حياته في البداية باحتراف مهن مختلفة، فهم صيادون مهرة وبناؤون يرجع إليهم الفضل في بناء المدن المحاطة بأسوار وتلال نصف صناعية في انحاء المنطقة الواقعة بين مجرى شاري الأدنى ولوجون الى الغرب وبحيرة تشاد شمالا[2].

وحتى 800م لم تكن مملكة كانم قد ظهرت الى الوجود بشكل واضح ،وانما كان ذلك الشعب المهاجر(الساو) يعيش بهذه المنطقة في حياة شبه قبلية، ومنذ ذلك الحين تبعته هجرات جديدة، ولعل ابرزها هجرة الزغاوة من هضبة دارفور، وباندماج هذه القبائل تكون شعب (الكانوري) الذي لعب دورا مهما في التكوين الاولي لإمبراطورية كانم القديمة، وعلى كل فان بعض المؤرخين وجدوا ان هناك ثغرة كبيرة بين العصر الذي استقر فيه شعب(الساو) والعصر الذي قامت فيه كانم الوثنية، وذلك في اعقاب انصهار الشعوب المهاجرة من الشمال والشرق ثم تأليفها شعبا مستقرا، أتيح له ان يشيد دولة وحكومة في القرن الثامن الميلادي باسم امبراطورية كانم[3].

1-شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج06، المرجع السابق، ص ص94 ،95.

2-زكي عبدالرحمن: **تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية،** المؤسسة المصرية الحديثة، القاهرة ،1961، ص ص174، 175.

3-نفســـــه: ص175.

اختلف المؤرخون حول تأسيس المملكة، فمنهم من بالغ في تاريخ ظهورها ويرجعها الى زمن عاصرت فيه الحضارة الفرعونية على أساس تشابه مخلفاتهم الحضارية[1]، الا ان هذا الرأي لا يصمد امام الحقائق والدلائل التاريخية، فمنطقة وسط افريقيا لم تعرف في تلك الفترة ظهور الدول، بل كان النظام القبلي هو السائد، وعن المخلفات فهي تعبر عن مظاهر حضارية إقليمية ابتكرها الانسان في إطار صراعه المستمر في الحصول على لقمة العيش ولا تعني بالضرورة دولة موحدة ذات مؤسسات معلومة تسيطر على منطقة تشاد في تلك الفترة.

بقي ان نشير ان المرجح في تحديد نشأة دولة كانم ما ذكره بعض المؤرخين الأوربيين من انها تأسست في القرن التاسع الميلادي(09م)، وهي آراء لا تبتعد كثيرا عما ورد من إشارات في المصادر العربية خاصة ما ذكره اليعقوبي الذي عاصر هذه المملكة في نشأتها[2].

اختلف الباحثون والمؤرخون أيضا فيمن سكن كانم عند ظهورها كمملكة، فهناك من نسبها الى قبائل الزغاوة[3]، ومن قائل بان هذه المنطقة قطنتها قبائل حامية قريبة الشبه بقبائل الطوارق والبربر، والماغوميين، وقيل ان الزغاوة اسلاف الماغوميين في حكم كانم، وكلا الفريقين من نبلاء الطوارق[4].

1-فضل كلود: **الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية الكانم**، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،1998م، ص77.

2-اليعقوبي: المصدر السابق، ج01، ص191.

3-طرخان إبراهيم: المرجع السابق، ص08.

4-الرباصي: المرجع السابق، ص32.

4-1 مراحل التكوين:

أ-الاسرة الماغومية:

عُرفت الاسرة الحاكمة الأولى في بلاد الكانم بالأسرة السيفية، وذلك لادعاء انتساب الأخيرة الى (سيف بن ذي يزن)، وورد ذلك في ديوان الكانم برنو حيث ذكر ان سيف اول ملوك كانم، وانه جاء ووالدته من مكة وحكم في برنو مدة عشرين سنة، واليه يعود الفضل في بناء العاصمة (جيمي) ويسير على نفس الزعم الماي عثمان بن ادريس (795-828هـ/1392م-1424م) في رسالته الى السلطان المملوكي برقوق، يشكو اليه من اعتداءات العرب حيث يقول "..ونحن بنو سيف بن ذي يزن والد قبيلتنا القرشي كذا ضبطناه عن شيوخنا..."[1]،كما نجد إشارة أخرى لهذا النسب لدى احمد بن فرتو مؤرخ البلاط البرنوي في عهد ادريس الوما (978-1012هـ/1570-1603م) الذي اكد بدوره هذا النسب وربطه بقريش[2].

ويرى الكثير من الباحثين انه من الصعوبة بمكان الوقوف على مدى صدقية هذه الادعاءات ،وانها لا تصمد باي حال من الأحوال امام الحقائق التاريخية ، فمن الناحية الزمنية نجد ان (سيف بن ذي يزن) عاش في القرن 06م[3]، في حين نجد ان هناك شبه اجماع لدى الباحثين والمؤرخين على ان تأسيس مملكة الكانم كان في أواخر القرن 08م ، وبالتالي طول الفترة الزمنية يؤكد عدم صحة هذا النسب هذا من جهة ،ومن جهة أخرى نجد ان الروايات المحلية تحاول الجمع بين الانتماء للأسرة

1-القلقشندي: المصدر السابق، ج05، ص269.

2-Palmer. The Bornu Sahara and soudan .p06.

3-القلقشندي: المصدر السابق، ج05، ص269. انظر أيضا الرباصي: المرجع السابق، ص33.

السيفية والانتماء لقبيلة قريش، وقد انتبه القلقشندي لهذه المغالطة التاريخية بقوله " الا انه لم يحقق النسب فذكر انه من قريش ،وهو غلط فان سيف بن ذي يزن من اعقاب تبابعة اليمن من حمير"[1] والمعروف تاريخيا ان سيف ينتمي الى الفرع القحطاني (عرب الجنوب) بينما تعود قريش الى الفرع العدناني من (عرب الشمال).

يضاف الى ذلك انه ومن الثابت تاريخيا ان سيف أصبح ملكا على اليمن بعد انتصاره على الاحباش، وليس من باب المروءة او العقل ان يترك بلاده التي حارب من اجلها وتحالف مع الفرس لأجلها ويتجه الى حوض تشاد بحثا عن المجد وتأسيس لملك جديد، والمعروف لدى المؤرخين أيضا ان سيف بن ذي يزن استمر في حكم اليمن حتى اغتياله على يد أحد حراسه الاحباش الذين استبقاهم لخدمته[2].

لا شك ان ادعاء الانتساب هذا ان وجد، كانت وراءه عوامل عدة تأتي في مقدمتها كسب الشرعية وتعزيز المكانة في نفوس الرعايا، حتى وان لم يكن الإسلام قد انتشر بكل واسع بعد في هذه الربوع. فكيف كانت البداية الفعلية بعيدا عن الأسطورة لتاريخ كانم؟

ب-المرحلة الكانميـــــــــــــــة:

غابت المعلومات التاريخية الدقيقة والموضوعية عن فترة حكم الاسرة الماغومية السيفية، والتي تشكل نهايتها بداية لمرحلة جديدة بتولي السلطة الماي (اوم بن جيل) (479-490هـ/1086-1096م) واهم ما يمكن الوقوف عليه لهذا الماي، هي النقلة الإدارية للملكة من شيخ قبيلة الى حاكم يتميز

1-القلقشندي: المصدر السابق، ج05، ص269.

2-الرباصي: المرجع السابق، ص34.

بحسن التنظيم والإدارة، مما يبرز بداية التحول من التفكير القبلي الضيق والمحدود الى آفاق الدولة او الكيان الواحد ذو النظام الإداري الشامل[1].

وفي عهد (دونمه بن اوم) (491-546هـ/1097-1151م) وصلت المملكة درجة كبيرة من الاتساع والقوة، معتمدا في ذلك على جيشه الذي تجاوز 120 ألف فارس، وعدد خيوله 100الف فرس[2]، ومن خلفاء دونمه الذين نجحوا في توسيع حدود المملكة أيضا عبد الجليل سالما الذي انتصر على شعب "الصو" وبفضله أصبحت تمتد من فزان الى حوض النيل.

ويأتي الماي دونمه دبالمي (618-658هـ/1221-1259م) على رأس أشهر مايات الكانم أيضا خلال هذه المرحلة، فبالإضافة الى اخضاعه لبلاد الهوسا ووصول دولته الى مشارف حوض النيل شرقا، توسع في الشمال على حساب إقليم كاوار وفزان، وبالرغم من ذلك لا يمكننا الجزم بقوة المملكة وتوسعها الدائم خلال القرن 13م، وذلك حسب حروب الكر والفر مع القبائل المناوئة من الصو والبولالا[3].

عرفت المملكة عقب فترة حكم الماي دونمه دبالمي، اخطارا خارجية عديدة هددت وحدة وتماسك المملكة يضاف اليها الصراع الداخلي على السلطة بين افراد الاسرة الحاكمة، وبلغ التدهور السياسي مرحلة خطيرة من السوء والتعفن فتذكر المراجع ان الماي إبراهيم بن بيري(700-721هـ/1300-1321م) اقدم على قتل ابنه وتعرض هو نفسه للقتل على يد محمد بن كاداي

1-Palmer.opcit.p156.

2-ديرك لانج: ممالك تشاد وشعوبها، موسوعة تاريخ افريقيا العام، منظمة اليونيسكو،1988م، ص257.

3-الرباصي: المرجع السابق، ص37.

حاكم الشمال، وامام هذا الوضع ازدادت مطامع قبائل البولالا والصو التي أصبحت خطرا مستمرا ودائما وتمكنت من قتل أربعة من المايات في منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، فمثل ذلك إيذانا بالقضاء على هذه الدولة في مرحلتها الكانمية[1]،حيث اضطرت الاسرة السيفية في عهد عمر بن ادريس (788-794هـ/1386-1391م) الى مغادرة إقليم كانم والاتجاه الى الغرب حيث استقروا في إقليم برنو، ودخلت قبائل البولالا العاصمة جيمي وسيطروا على إقليم كانم، بينما استمرت الاسرة السيفية في الحكم غرب بحيرة تشاد فيما يعرف بمرحلة البرنو[2].

ج-مرحلة سيادة البرنو:

تبدأ مرحلة سيادة البرنو بقدوم عمر بن ادريس لإقليم البرنو، والاستقرار بالقرب من نهر (يوبيه) ليعرف هذا الإقليم انتقالا تاريخيا من مجرد ولاية تابعة لدولة الكانم الى مركز القوة والسيطرة على الإرث القديم لمملكة الكانم، ولتعرف سلطنة الكانم-برنو ثالث مرحلة من تكوينها التاريخي[3].

اتخذ الماي عثمان بن ادريس (795-829هـ/1392-1425م) من مدينة (كاكا) عاصمة لدولته وشرع في ترتيب ملكه من تنظيم للإدارة وتحصين لحدود الدولة التي عرفت الاخطار منذ ولادتها، بتجدد هجمات البولالا وقبائل جذام العربية[4]، وهو ما دفع الماي عثمان بن ادريس الى

1-الغنيمي مقلد عبد الفتاح: **الإسلام وحضارته في وسط افريقيا، سلطنة البولالا**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م، ص27.

2-الرباصي: المرجع السابق، ص40.

3 -انظر الملحق، (رقم 16)

4-نفســـه: ص41.

مراسلة السلطان برقوق سنة 795هـ/1392م، يشكو اليه اعتداءات هذه القبائل واسترقاقها، واستباحتها لأفراد دولته[1].

لم تكن فترة خلفاء عثمان بنفس القدر من القوة والتحكم في ربوع المملكة الفتية، حيث عرفت الفوضى السياسية التي نجم عنها قتل بعض الحكام ونفي البعض الاخر، على يد حكام الأقاليم ذوو النزعة الانفصالية، استمر ذلك لما يقارب القرن من الزمن حتى تولي الحكم الماي علي القاجي الملقب ب (الغازي)[2] سنة877هـ/1472م ، والذي نجح في القضاء على الاخطار الداخلية بإقصاء منافسيه وإعادة هيبة الدولة، ومن ابرز ما قام به بناؤه لعاصمة ثابتة لدولته وهي مدينة (بيرني/Birni)[3]، وفي عهده زار الرحالة العربي حسن الوزان مملكة البرنو، وقد قام بالعديد من الغزوات ومهاجمة الكثير من البلدان والقبائل المتاخمة لبلده حيث غزا البولالا وبلاد كانو وارض سونغاي الشرقية ولم يزل كذلك حتى بسط نفوذه على امارات الهوسا، وتوفي هذا السلطان سنة 1504م[4].

بعد موت السلطان على الغازي تولى الحكم بعده ابنه الماي ادريس كتركماني (909-933هـ/1504-1526م) الذي نجح في هزيمة البولالا الأعداء التقليديين للأسرة السيفية واستعاد

1-القلقشندي: المصدر السابق، ج08، ص119.انظر الملحق رقم

2-الغازي علي: السلطان الثامن والاربعون في ترتيب ملوك اسرة الكانم، وقد تمكن من استعادة هيبة الدولة، اشتهر بمواهبه الإدارية، ومن اهم اعماله قيامه ببناء مدينة بيرني كما وطد علاقات البرنو مع بلاد المغرب، واستورد منها الخيول لجيشه لاستخدامها في حروبه. انظر الرباصي: المرجع السابق، ص41.

3-الرباصي: المرجع السابق، ص41.

4-صالح بن يونس: **تاريخ الإسلام وحياة العرب في امبراطورية كانم-برنو**، مطبعة مصطفى البابي، مصر،1976م، ص95.

العاصمة القديمة للملكة (جيمي) سنة 1505م[1]، ينقل الينا احمد بن فرتو مؤرخ بلاط البرنو ذلك بقوله "بعد ان أصبح ادريس بن علي خليفة في ارض برنو حشد جيشا من الحمر والسود وتوجه الى ارض كانم وحارب السلطان دونمه بن سالما وانتصر عليه، فهرب دونمه مع فلول جيشه ودخل ادريس (شيما) وهي (جيمي) الشهيرة عند الملوك السيفيين واقام فيها فترة "[2].

الا انه سرعان ما ترك البولالا وشانهم في امر إدارة بلادهم فيما يشبه الاستقلال الذاتي، ولعل السبب في ذلك يعود أساسا الى ان برنو لم تعد قادرة على تحمل مسؤولية الدفاع عن كانم فليس في مقدورها ان تحتفظ بجيشها الضخم في قواعدها هناك، فاكتفت بورنو بأخذ الجزية والخراج من كانم[3]. يقول بن فرتو دائما " ان اهل كانم جميعهم قد خضعوا للماي علي وبذلوا له الطاعة"[4].

ويذكر عن الماي ادريس بن علي انه أرسل بعثة الى طرابلس سنة 1512م حسب هنري بارث[5]، مما يبرز انفتاح هذا الأخير على مناطق الشمال الافريقي، ولا يستبعد ان تكون للأخير علاقات مع غيرها من البلدان، هذا وقد استمر خلفاء ادريس من حكام البرنو السير على نهجه في موقفهم من أعداء السلطنة والمناوئين لها داخليا وخارجيا، حتى ان الماي علي بن ادريس(ت1546م) لقي حتفه وهو يحارب البولالا[6].

1-الرباصي: المرجع السابق، ص41.

2-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص115.

3-صالح بن يونس: المرجع السابق نص97.

4-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص116.

5-Barth,H ,Travels and Discoveries in North and Central Africa(1849-1855),London,1875,p649.

6-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص116.

ومع مطلع القرن 16م ظهرت بوادر تشكيل خطر جديد يهدد السلطنة واستمراريتها، وهي القبائل الفولانية من الجنوب والغرب، لاسيما في عهد الماي عبد الله بن دونمه(ت1536م)[1]، ولحسن حظ هذه السلطنة ان وصل الى عرشها أعظم مايات البرنو وممالك حوض تشاد، وهو الماي ادريس بن علي الملقب ب ادريس الوما.

2- مملكة البرنو في ظل حكم الماي ادريس بن علي (الحاج ادريس الوما) (1570-1603م)

تعد فترة حكم الماي ادريس الوما من أرقي عصور مملكة البرنو الاقتصادية والسياسية والعسكرية وحتى الثقافية، ولن نبالغ ان ذكرنا ان أحد أسباب اهتمام المؤرخين بتناول تطور هذه السلطنة يعود أساسا الى وجود هذه الشخصية التي فتحت بلاد الكانم-برنو على بلاد العالم لربط هذه الأخيرة بمختلف المناطق ويكفي ان يصل صداه الى القوة الأولى في المتوسط آنذاك وهي الدولة العثمانية هذا بغض النظر عن كثرة الحروب التي قادها ضد القبائل الوثنية ومساهمته في نشر الإسلام، فمن يكون ادريس الوما؟

ولد السلطان ادريس الوما بعد وفاة ابيه (ماي علي بن ادريس) وتولت والدته الاميرة (عائشة) تربية ابنها وحمايته من كيد اعداءه من السلاطين من بني عمومته (دونمه نفوفارمه) وابنه (ماي دله

1- Barth, op cit, pp645.650.

دوناماي) حيث انه وبعد وفاة السلطان (دله بن دونامه) المذكور أصبحت الاميرة عائشة والدة الوما ملكة على البلاد بالوكالة[1].

اشتهرت الماجيرا عائشة كما كانت تلقب بالعقل والحكمة وحسن التدبير والحزم، وغرست في ابنها الشجاعة وحب الجهاد فضلا عن العدل[2]، واليها يعود الفضل في بناء مسجد وقصر جاميرو، والذي لاتزال اطلاله قائمة الى اليوم.

تولى السلطان ادريس الحكم بعد فترة من الاضطرابات سيطرت خلالها الماجيرا عائشة على مقاليد الحكم كما أسلفنا وذلك بحكم شخصيتها القوية حيث بسطت نفوذها الواسع على برنو حسب بالمر، تمهيدا لاستلام ابنها السلطة، فقد غرست فيه الشجاعة وحب الحروب والانتصار بالإضافة الى العدل من جانب آخر[3]، وهو ما يؤكد ما ذكرناه آنفا ويعيدنا الى الوقوف على مدى قوة سلطة المرأة او الزوجة في المجتمعات الافريقية برغم الدور الذي لعبه الإسلام في القضاء على الظاهرة.

2-1حروبـــــــــــــــه:

عُرف السلطان ادريس الوما بكثرة حروبه ومغازيه التي لم تقتصر على البلدان المتاخمة له ، بل تعدتها الى أراضٍ بعيدة، فبعد توليه الحكم ب ست سنواتٍ فقط حمل على قبائل البولالا لسبع مراتٍ افلح في الأخيرة منها، وقام أيضا بغزو قبائل (الصو) الوثنية في معاقلهم واخضعهم بعد حروب

1-صالح بن يونس: المرجع السابق، ص100.

2-نفســــــــه: ص101.

3- Barth, op cit, p593.

استمرت لسنين طويلة بينهم وبين اسلافهم من الكانوريين[1]، كما حمل السلطان الوما على وثنيي بلاد (منذره) الى الشمال الشرقي من برنو، ثم توجه الى الغرب حيث امارة كانو، ووصل الى معقلهم الرئيسي على قمة جبل (دالا) واستولى على كثير من بلاد الهوسا، ودمر عددا غير قليل من معاقلها في (كلماسارا ،دولوا،سايا..)وغيرها ، الا انه فشل في السيطرة على المدينة الكبرى (بيرني دالا) المبنية عند سفح جبل دالا الواقعة الى الجنوب الغربي من مدينة كانو الحالية في نيجيريا الشرقية[2]، وتوجه بعد ذلك الى صوب بلاد (أهير) فغزا تلك المناطق التي كثيرا ما ازعجت سلاطين البرنو[3]. وفي جهاده ضد القبائل الوثنية اتجه الى جزائر بحيرة تشاد، وكانت هذه القبائل شديدة التعصب لمعتقداتها ولا سيما قبيلة تلالة، ويناصبون المسلمين العداء السافر، وبلغ من بغضهم للمسلمين انهم كانوا لا يؤاكلون من يعجز منهم عن قتل أحد من المسلمين، ونجح ادريس في طرد هذه القبيلة الى مستنقعات بحيرة تشاد بعيدا عن الحدود المتاخمة للمملكة[4].

وبالعودة الى ما كتبه ابن فرتو عن حروب ادريس الوما، نجدها كثيرة ومتعددة فقد شملت كانم والطوارق، وكاوار وضد القبائل العربية في الشمال وضد الصو[5] ، وجاء في ذكر هذه الحملات ما مفاده " وعندما سار سلطاننا امير المؤمنين هاجمهم في الليل وقتل تسعة من كبار محاربيهم وسبى نساءهم وذراريهم وغنم متاعهم واموالهم وعاد الى برنو حيث خمس الغنيمة بينه وبين رجاله" وواصل

1-صالح بن يونس: المرجع السابق، ص101.

2-طرخان ابراهيم: المرجع السابق، ص121.

3- صالح بن يونس: المرجع السابق، ص101.

4-طرخان إبراهيم: المرجع السابق،121. انظر الملحق رقم 02.

5-Barth, op cit, p650.

حديثه بالإشارة الى "ان الحاج ادريس كان يستخدم في نقل امتعته ومعداته ورجاله الثيران والحمير والبغال والجمال والخيول"[1]، وهي دلالة أخرى تثبت مدى القوة التي وصل اليها جيش الوما سواءً تعلق بالعدة او التعداد خاصة في ظل كثرة الحروب التي يقودها.

تشكل جيش ادريس الوما من خليط متعدد من المرتزقة العرب والأتراك، خاصة إذا علمنا ان هذا الأخير أقدم على شراء الأسلحة النارية –كما سياتي في الفصل القادم–من بلدان الشمال الافريقي والدولة العثمانية، وكان لزاما عليه ان يجلب معها من يعلم جيشه استعمالها في حروبه الكثيرة ضد القبائل الوثنية في الجنوب، لذا يمكن اعتبار ادريس الوما اول من ادخل السلاح الناري الى بلاد السودان، وسبق في ذلك جيرانه من القبائل الأخرى مثل سنغاي[2].

ومما ذكره علماء برنو وكتابها عن ادريس الوما ان نشاطه الحربي قد اقترن بالعدالة والذكاء، كما اقترنت شجاعته بالحرص والحذر والاناة واقترنت قسوته بالمشاعر الرقيقة، ويكفي في ذلك الإشارة السابقة الى ان ما كان يغنمه كان يتم قسمته شرعيا وفق غنائم الحروب في الشريعة الاسلامية[3].

2-2 رحلته الى الحج:

لم تشغل كثرة الحروب والمغازي السلطان الوما عن أدائه لفريضة الحج في السنة التاسعة من حكمه، أي حوالي 1580م ، وقد مثل الحج بالإضافة الى كونه الركن الخامس من اركان الإسلام

1-Palmer ,op cit, p240. انظر أيضا طرخان إبراهيم: المرجع السابق، ص120.

2- شلبي: المرجع السابق، ص293.

3-طرخان إبراهيم: المرجع السابق، ص122.

فرصة لملوك بلاد السودان للتعرف على الإسلام اكثر ولقاء علمائه وملوكه، مما يزيد من فرص ربط علاقات مختلفة ثقافية واقتصادية وتجارية ، فبفضل هذه الرحلة الحجية تمكن ادريس الوما من التعرف الى الأسلحة النارية وقيمتها في الحروب، فاشترى الكثير منها من الاتراك وبلاد المغرب ، كما يعود اليه الفضل في بناء منازل بمكة المكرمة والمدينة المنورة، لتشجيع سكان برنو على الذهاب الى الحج[1].

2-3وفاتـــــــــــــــــــه:

توفي السلطان الوما في احدى غزواته ضد القبائل الوثنية في الجنوب سنة 1603م وهو تاريخ متفق عليه في اغلب المصادر التاريخية، بعد طعنه من طرف أحد الوثنيين، ودفن في "الوا" في مقاطعة "ادوماوا"، وبذلك طويت صفحة من صفحات تاريخ برنو، عرفت خلالها مختلف اشكال التطور والرقي الاقتصادي والعسكري والاجتماعي والثقافي[2].

ثانيا: مظاهر التأثير في الحياة السياسية والعسكرية:

لم يقتصر التأثير المغاربي الإسلامي على التكوين القبلي للمنطقة ، بل تجاوزه ذلك الى لعب أدوار جد هامة في الحياة السياسية، ف بالإضافة الى دورهم في تأسيس مملكة كانم-برنو، نجد ان منهم المستشارين والوزراء، ويعزز ذلك أيضا تلك السفارات والرسائل المتبادلة بين بلاد الكانم برنو والبلاد العربية و حتى الدولة العثمانية، هذا دون ان ننسى المظهر السياسي القبلي المتكرر في اغلب ملوك بلاد السودان الغربي والاوسط وهو ادعاء الأصول العربية الشريفة، او تقريب العناصر العربية والمغاربية

1-عبد الفتاح مقلد: المرجع السابق، ص 31. انظر أيضا احمد شلبي: المرجع السابق، ص293.

Barth,H.opcit,p598. انظر أيضا عبدالفتاح مقلد: المرجع السابق، ص32.

الى بلاطهم سواءً تعلق الامر بكفاءتها وحسن تدبيرها او بهدف إعطاء الشرعية لحكمهم، فاين هي المظاهر التي نقف فيها على التأثير الإسلامي والمغاربي السياسي في هذه الممالك؟

1-نظام الحكم وتقاليده:

يظهر التأثُر البرْنوي بالعناصر الاسلامية والمغاربية في الحكم والإدارة من طريق عاملين رئيسيين أحدهما دخول الحكام الى الإسلام وثانيهما اتصال هؤلاء الحكام ببلاد المغرب، فكان لانتشار الإسلام في أوساط الاسر الحاكمة خلال القرن الخامس الهجري أوائل القرن الحادي عشر ميلادي، ان عرف نظام الحكم تغيرا جذريا من خلال تقلص نفوذ الحكام واستبدادهم، وبالتالي ظهور بواكير نظام حكم يفصل بين السلطات ويجعل الحاكم مسؤولاً امام رعيته[1].

وأول ما تجدر الإشارة اليه من تأثُر حكام البرنو بملوك وحكام بلاد المغرب، نجد تلك الألقاب التي اضْحى ملوك البرنو يحرصون على الاتصاف بها مثل لقب الخليفة او امير المؤمنين[2]، وأول من اتخذ هذا اللقب من حكام الكانم هو دونمه دبالمي (618-658هـ/1221-1259م) وسار على ذلك خلفاؤه من بعده، ومما يؤكد فرضية ذلك ان هذا الأخير كان معاصراً للسلطان الحفصي المستنصر، وقد ارتبط الاثنان بعلاقة وطيدة، ولم يتوقف الامر عند لقب امير المؤمنين بل تعداه الى ان تلقب حكام الكانم-برنو بلقب المتوكل والمستنصر والاسْعد ، ففي رسالة بعث بها الماي عثمان بن ادريس

1-الرباصي: المرجع السابق، ص106.

2-طرخان إبراهيم: المرجع السابق، ص152.

(795-829هـ/1392-1425م) الى السلطان برقوق في مصر عبارة " من المتوكل على الله تعالى سيف الإسلام المستنصر بالله المنصور"[1].

ولم تكن الألقاب الإسلامية الوحيدة التي قلد فيها حكام الكانم-برنو معاصريهم من بلاد المشرق والمغرب، بل نجد ان هناك تشابها كبيرا في أوضاع الحكام وتقاليد الحكم، فقد ذكر القلقشندي في حديثه عن بلاد الكانم "ان ملكهم اذا ركب تضرب امامه الطنابير والطبول والابواق"[2]، وهي نفس الظاهرة لدى السلاطين الحفصيين، الذين كان يصاحبهم حملة الطبول عند جولاتهم الرسمية[3]، وعرف عن حكام البرنو ظاهرة الاحتجاب عن الناس فلا يكلمهم احد الا من وراء حجاب[4]، ولربما انتقلت هذه العادة من ملوك الحفصيين الذين استعملوا الحجاب أحيانا لعزل الملك عن الجمهور اثناء المواكب المقامة في القصر، ولعلهم يرون في ذلك باحتجابهم عن رعيتهم اهْيبُ لمكانتهم وانْفذُ لكلمتهم[5]، على ان هذا الاحتجاب لم يكن بالشكل المستمر الدائم، على اعتبار ان الكثير من المايات عرفوا بالبأس والشدة والتوسع وكثرة الحروب وهو ما يفرض عليهم الخروج الشخصي على رأس الجيوش.

ونلاحظ التشابه الجلي أيضا في مجلس الشورى الذي استحدثه المايات لمساعدتهم على شؤون الحكم وتبعاته، ولاشك انهم اقتبسوا ذلك من تعاليم الإسلام ومن احتكاكهم بنظرائهم من الشمال الافريقي والبلاد العربية، ولم تحدد العضوية في مجلس الشورى بفترة معينة، فأعضاء المجلس يظلون في

1-الرباصي: المرجع السابق، ص109.

2-القلقشندي: المصر السابق، ج5، ص301.

3-الرباصي: المرجع السابق،109.

4-العمري: المصدر السابق، ج2، ص95.

5-الرباصي: المرجع السابق، ص110.

مناصبهم مدى الحياة، وفي كثير من الأحيان يتوارثون هذه العضوية[1]، وعرف بلاط حكام البرنو وظيفة الوزير التي يرجح انها انتقلت من دول المغرب خاصة الحفصيين، فاستمر منصب الوزير قائما طوال فترات مراحل حكم المملكة، وما يعزز وجود هذه الوظيفة الحكومية ما ذكره القلقشندي من وجود الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين بدولة كانم-برنو[2].

هذا ويتكون مجلس الشورى الاستشاري المساعد لمايات البرنو من احدى عشر عضوا، وهؤلاء يتقاسمون السلطة الرسمية للدولة فيما بينهم:

-كيغامة: حاكم المناطق الجنوبية لبرنو

- يريبة: حاكم الأجواء الشمالية لبرنو

- عليديمة: حاكم الأقاليم الغربية

- مسطرامة: حاكم الأقاليم الشرقية.

- فكومة: والي العاصمة او محافظ العاصمة

- شيروما: من ورثة العرش من أبناء الماي او من اخوانه

- يغاريمة: من كبار الضباط يأخذ هذا اللقب زمن الحروب

- سنقلما: يتولى حكم بعض الولايات الشرقية لكانم.

- كاغوستمة: يتولى بعض الولايات الغربية في كانم.

- ارجنومة: يتولى حكم بعض الولايات الشمالية.

1-طرخان ابراهيم: المرجع السابق، ص154.

2-القلقشندي: المصدر السابق، ص488.

- بروما: من خدم القصر وهو كبار الخصيان[1]. وقد خضع هؤلاء للسلطة المباشرة للماي، وتمتع حكام الأقاليم بنفوذ واسع وسلطة كاملة في مقاطعاتهم وبذلك كونوا ثروات طائلة، ومن اجل الحفاظ على هذه المكتسبات، تسببوا في نشوب العديد من الحروب والفتن الداخلية[2].

كانت حكومة برنو في البداية ملكية وراثية، وقد توارث الماغوميين الحكم عن طريق الام، غير انه وبانتشار الإسلام تغيرت هذه المفاهيم والعادات في التوارث، وأصبحت الوراثة عن طريق الاب هي السائدة[3]، ليصبح الحكم بعد ذلك ملكيا انتخابيا، فينتخب الماي الجديد من أبناء الماي المتوفي، وليس بالضرورة ان يكون اكبر أبنائه، وقد جرت العادة عند انتخاب الماي الجديد ان يأتي أبناء الماي المتوفي، وبيد كل منهم ورقة مكتوب عليها اسمه فتلقى هذه الأوراق، ثم يتم ترشيح ورقة واحدة وصاحب الاسم الموجود بها هو الماي المنتخب ويشرف على هذه العملية اعظم ثلاثة من كبار رجال الدولة وعلى راسهم (كيغامة) وعلى اثر ذلك يأخذ هؤلاء القواد الثلاثة الماي المنتخب الى غرفة مظلمة او ذات ضوء خافت حيث يوجد جثمان الماي المنقضى نحبه، وامام هذا الجثمان تؤخذ الايمان والمواثيق على الماي الجديد المنتخب[4].

لكن يجب الإشارة الى ان هذه الطقوس في التنصيب للماي الجديد لم تكن دائمة وملزمة، فكثيرا ما تصارع المايات حول العرش، وتدخل كبار الموظفين مثل كيغامة، وبريمة ورجال الطبقة

1-طرخان إبراهيم: المرجع السابق، ص ص155.156.

2-Basil Davidson, opcit, p103.

3-طرخان إبراهيم: المرجع السابق، ص156.

4-Palmer, The Bournu Sahara and soudan, op cit, p128.

الارستقراطية وطردوا الماي القائم واختاروا غيره، كما حدث مع الماي عثمان بن ادريس (ت1424) والماي عثمان بن داود (ت1425).

يطلق على ملك البرنو لقب (الماي) او MAI او ماغ Magh وكلها مترادفات تعني الملك في لغة الهوسا والكانوري. ظل لقب الماي حتى منتصف القرن 19م، وبوفاة اخر سلاطين او مايات الاسرة السيفية عام1846م، اخذ سلاطين برنو لقب الشيخ، وهو ما اشتهر به محمد امين الكانمي مؤسس الاسرة الحاكمة الجديدة في برنو بعد القضاء على الاسرة السيفية[1].

يتمتع الماي بالحكم المطلق في البلاد، فهو يجمع بين يديه السلطتين الروحية والزمنية، الأولى باعتباره امير المؤمنين كما سبق وذكرنا، والثانية لكونه الحاكم الأوحد في البلاد وبيده تصريف امورها كيفما يشاء[2].

وصل النظام السياسي في برنو درجة من التقدم والرقي، اثارت دهشة الرحالة الاروبيين الذين وصلوا برنو بعد ذلك، اذ لم يتصوروا وجود هذا النظام الدقيق في توزيع المسؤوليات والاختصاصات،

1-محمد امين الكانمي: يدعى الأمين بن محمد الكانمي فقيه من فقهاء الحديث وشيوخه ولد في فزان الليبية لاب كانمي وام ليبية من زويلة صاحب والده في رحلة الحج وانتهل من مختلف العلوم وتاثر بعلماء القاهرة وبلاد الحجاز، تزوج الكانمي ابنة حاكم مقاطعة نجالا ببلاد الكانم، اعتلى عرش سلطنة الكانم بدءا من سنة 1814م. انظر مصطفى بسيوني: برنو في عهد الاسرة الكانمية، المرجع السابق، ص23.

2-دائرة المعارف الإسلامية، مادة برنو، ص589.

وكان هذا النظام أرقي بكثير مما في باقي ممالك بلاد السودان الأخرى، بل ويفوق أحيانا النظم السياسية التي كانت سائدة في الدول الأوربية في تلك الفترة[1].

يذكر عن بعض المؤرخين ان السلطان واسرته كانوا يعيشون عيشة ارستقراطية، عمادها البذخ والابهة في كثير من فترات حكم الاسرة السيفية، ويصف لنا الوزان احدى تلك الصور في فترة السلطان علي غازي بقوله " ان السلطان لديه ثروة عظيمة من الذهب وحتى اطباق الاكل من الذهب والأدوات التي يستخدمها في المأكل والمشرب وسلاسل كلابه كل هذه مصنوعة من الذهب الخالص، وانه لا يدفع ديونه للتجار من العبيد الا بالذهب"[2].

يساعد السلطان في تصريف أمور الدولة مجلس يطلق عليه اسم (توكينا) ويعرف أعضاؤه باسم (كوكناده) يمثل هذا المجلس النظام الارستقراطي في برنو، ويضم ولي العهد المنتظر (بريمه) وأبناء السلطان واخوته واقاربه، ووجوه القوم والاشراف وقواد الجيش وكثيرا ما سلبت من هذا المجلس حرية التصرف في شؤون البلاد، وللسلطان حاشية كبيرة وفي خدمته أمناء عديدون وهؤلاء الأمناء كانوا في أوقات كثيرة يديرون شؤون الإمبراطورية، فنجد السلطان ادريس ألوما ترك إدارة السلطنة للأمناء من بعض أبنائه ووزرائه ومستشاريه، الذين يتكون منهم مجلس شورى السلطان[3]، ويذكر بارت ان مجلس السلطان يتكون من اثني عشر شخصا ويطلق على هؤلاء الاعلام علية القوم وارباب الدولة و الامراء

1-Denham and Clapperton, Narrative of Travels in Nnorthern and Central Africa, in the years1822, 1823, and1824, Third edition, volII, London, 1919, p325.

2-الوزان: المصدر السابق، ص230.

3-حسنين مقلد: المرجع السابق، ص50.

.لا نعلم من المصادر التاريخية ان كان انعقاد المجلس بشكل دوري او يومي، الا انه كان يعقد في أوقات الشدة والخطر التي تحدق بالمملكة او حالة الطوارئ، من صباح كل يوم في القصر السلطاني، وعلى كل أعضائه الحضور في الصباح الى القصر، وكانت الأوامر ان يترك كل واحد منهم ادواته واسلحته امام باب القصر، واذا دقت الطبول وصدحت الموسيقى ففي ذلك إشارة الى ان السلطان في طريقه الى دخول قاعة الاجتماعات يصحبه بعض أبنائه واخوته وحرسه الخاص الذي يتكون من أربعين فارسا، عشرون منهم على يمين السلطان، ومثلها على يساره[1].

ويبدو ان هذا التنظيمات التي عرفتها البرنو في هذه الفترة المبكرة ومنها المجلس قد اخذتها عن بعض البلاد المغاربية او الإسلامية، في حين تشير بعض المراجع الى تأثر البرنو بجارتها الغربية سونغاي.

بقي في الأخير ان نشير الى ان هذا المجلس مثل قوة فعلية موازية للسلطان في إدارة شؤون البلاد، ولم يكن السلطان في أحيان كثيرة سوى منفذا لأوامر هذا المجلس، وفي أحيان أخرى كان المجلس يشرف على تنفيذ أوامر السلطان، ذلك ان معظم أعضائه كانوا من الاسرة المالكة ويعملون في المجلس مدى الحياة، وبقدر ما شكل هذا المجلس من أداة ربط ووحدة للملكة، حمل عوامل التفكك والانفصال خاصة في فترات توسع المملكة ونمو ثرواتها[2].

2 التنظيم الإداري للمملكة:

لم تعرف مملكة البرنو تنظيما إداريا ثابتا مقارنة بالأنظمة الإدارية لدى السنغاي او دارفور وقبلهما مالي، ذلك ان حدود هذه المملكة خضعت للعديد من التغييرات تبعا لقوة المملكة او

1-Barth, H, op.cit, p587.

2- عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غرب افريقيا، المرجع السابق، ص14.

ضعفها، الا انه برغم ذلك يمكن الوقوف على بعض المظاهر الإدارية التي تظهر فيها اللمسة المغاربية واضحة، فالبرنو عرفت في بداية عهدها من حكم الاسرة السيفية مركزية النظام الإداري، وباتساع حدود المملكة وامتداد مجالها الجغرافي تم تقسيم السلطنة الى مجموعة من المقاطعات على راس كل مقاطعة قائد في اغلب الأحيان يكون عسكريا ومن حاشية السلطان او من المقربين منه، ومنح لهؤلاء القادة صلاحيات واسعة في التسيير والاشراف على مقاطعاتهم الإدارية[1]،ولم تكن لهم فترة محددة للإشراف على المقاطعة وكثيرا ما تنتهي بخلاصهم، ولكل مقاطعة جيشها الخاص يقودها بنفسه في حالة الحرب، وعليه أيضا ان يقدم المؤن والذخائر والأموال التي تطلب منه في حال دخول المملكة في حرب مع الأعداء، وعلى حكام الأقاليم ان يلبوا مطالب السلطان في اعداد اقصى امكانياتهم في الاستعداد للحرب[2].

ونجد ان للعرب مشيخات يحكمونها في برنو، وتعرف أيضا ب (الحكومات المحلية) لكل قبيلة شيخ يحكمها ويدير شؤونها، ويكون حكم الشيخ مقصورا على حكومته عادة الا انه يمكن ان تضم المشيخة القبيلة التي يرأسها وحلفاؤها من جميع القبائل، ويعتبر شيخ القبيلة مسؤول عن كل ما يتعلق بقبيلته، من حل للمنازعات وجمع للضرائب، فما من قبيلة الا وتدفع خراجها وضرائبها لشيخها، ثم ان هذا الشيخ برفقة مستشاريه يأخذ من ذلك المال ما يعتقد انه حقهم، ويبعث بالباقي الى سلطان برنو[3].

1-Trimingham, J,S, The History of islam in west Africa,p124.

2-نعيم قداح: افريقيا الغربية في ظل الإسلام، ط 2 ،1974م، ص111. انظر أيضا حسنين مقلد: المرجع السابق، ص64.

3-صالح بن يونس: المرجع السابق، ص269.

والمراتب في مشيخة وحكومة العرب تختلف عن اية مشيخة او حكومة أخرى، فقد كان من بينهم أصحاب الشورى، ولا يبث شيخ العرب في مسالة من المسائل دون استشارة هيئة رجال مجلسه، وهؤلاء الرجال يتمتعون بسلطات كبيرة داخل المناطق التي يسري اليها نفوذ شيخ العرب[1].

وعلى الرغم من بعض النجاح الذي حققه التنظيم الإداري في برنو، من حيث المساهمة في استقرار المملكة من جهة وحسن تسييرها من جهة أخرى خصوصا في فترات حكم سلاطين برنو الأقوياء على شاكلة السلطان ادريس الوما، فان المعلومات عن هذا النظام تبقى قليلة وغير كافية ولا تقدم لنا صورة كاملة عن هذا النظام، ولا كيف تتم ادارته والتواصل بين اقسام المملكة المترامية الأطراف.

3-تنظيم الجيش:

لا شك ان هيبة الدولة ومكانتها ترتبط بمدى قوة جيشها، وقد اخذ الجيش في مختلف فترات حكام برنو أهمية قصوى، فعليه تتوقف عملية تحصين الحدود واستمرارية الدولة وسيادة الامن والاستقرار الداخلي ويظهر الأثر العربي في النظام العسكري للبرنو من خلال اعتمادهم على القبائل العربية في تشكيل جيشهم وتأتي على راس هذه القبائل عرب (الشوا)، المعروفة بالبأس والشدة فضلا عن الشجاعة والاقدام [2]، كما وجد الى جانبهم المرتزقة والرقيق، وضم الجيش أيضا عناصر من قبيلة السلطان والقبائل المتعاونة معه، وكان لبرنو فرقا من الحرس تجوب الصحراء لتقر الامن وتحافظ على سلامة القوافل التجارية[3].

1-حسنين مقلد: المرجع السابق، ص62. انظر أيضا صالح بن يونس: المرجع السابق، ص270.

2-نعيم قداح: المرجع السابق، ص68.

3-حسنين مقلد: المرجع السابق، ص69.

ويبدو ان تطور جيش برنو كان يتناسب واتساع مساحة السلطنة وتقدمها المطرد، فكان لكل فرقة قائد ثم مجموعة من قواد الجيش، وهؤلاء ينتمون الى طبقات مختلفة وصل بعضهم الى مناصب عالية بفضل شجاعتهم وباسهم في القتال، وكانت فرقة الفرسان على راس الجيش يلبسون الحديد ويركبون خيولا عربية استقدموها من بلاد المغرب، ومن شدة حرصهم على هذه الخيول ان كان الفرس الواحد يقايض ب 15 الى 20 عبدا[1]،اما الدروع الحديدية فكانت خاصة بالامراء والقواد، وكان التجرد من الدرع وصمة عار في الحرب، ويظهر ان مناخ المنطقة المعروفة بشدة الحر كانت سببا اخر في عدم اقتناء الدروع ناهيك عن ارتفاع ثمنها[2].

وعلى عهد السلطان الوما بلغ جيش البرنو مرتبة عالية من الاحترافية، حيث أقدم على شراء الأسلحة من الدولة العثمانية وبعض البلاد المغاربية، لتعرف ممالك بلاد السودان لأول مرة استخدام الأسلحة النارية، ولم يكتفي الوما بذلك، بل اعقبه بإحضار مدربين من الاتراك والطرابلسيين بتكوين جيشه على استعمال هذه الأسلحة[3]، وبفضل هذا السلاح نجحت البرنو في فرض منطقها العسكري على المنطقة وتوسعت حدودها في فترة حكم الماي ادريس الوما[4]. حتى انه اشتهر بالسلطان الذي لا يهزم بفعل براعته الحربية في اخضاع قبائل الطوارق والتيبو في الشمال، حيث استغرقت حملاته على الشمال لوحده ما يقارب الاثنتي عشرة سنة[5].

1-الوزان: المصدر السابق، ج2، ص176.

2-Barth, op cit, p594.

3- Palmer, The Burnu and Sahara, p15.

4-الرباصي: المرجع السابق، ص113.

5-طرخان إبراهيم: المرجع السابق، ص120. انظر أيضا الرباصي: المرجع السابق، ص116.

وعن مصادر رزق هذا الجيش فانه لم تكن للجنود رواتب ثابتة سنوية او شهرية، بل كانوا في الغالب يمنحون ارضا يعيشون من غلتها، وقد عرف هذا الامر عند جيوش كثير من البلاد الإسلامية ومن هنا فان برنو كانت تستطيع في أوقات الحروب ان تجهز جيشا بين 25 خمسة وعشرون الى 30 ثلاثون ألف جندي من المرتزقة[1]، حتى أصبح جيش برنو مضربا ومثلا في البأس والقوة، حيث ورد في ديوان البرنو لابن فرتو ان سلاح الفرسان في جيش الماي دونمه دبالمي قد بلغ مائة ألف فارس[2].

وبرغم ما يحمل هذا الرقم من المبالغة قياسا بعدد سكان تلك الفترة وما يمكن جمعه من الجنود والفرسان، يضاف الى ذلك صعوبة الحصول على الخيول وإمكانية اقتنائها، الا انه يبين لنا في كل الأحوال ان تعداد الجيش لم يكن باليسير من جهة ومن جهة أخرى ان هذا الجيش لم يكن برنويا صرفا بل تشكل من خليط من القبائل والاجناس المختلفة من العرب والأتراك وغيرهم.

4-القضـــــــــاء:

قبل انتشار الإسلام وتمكنه في بلاد كانم-برنو كان يُلجا في التقاضي بين المتخاصمين الى زعماء القبائل وباتخاذ الشريعة الإسلامية كمرجعية للتشريع والقضاء، عرف هذا المجال تقدما ملحوظا بفضل انشاء مؤسسات للقضاء، مثل المحكمة العليا ومحكمة القاضي والمحاكم المحلية، التي فرضها توسع المدن وتعدد المعاملات ودخول القبائل المترددة وبعض الوثنية للإسلام.

كما لعبت المساجد والمدارس القرآنية التعليمية دورا أساسيا في تكوين البرنويين في مبادئ الشريعة الإسلامية لاعتمادها الشريعة المرجع الأول في التقاضي، وكان لتنقل الفقهاء والعلماء والقضاة

1-دائرة المعارف الإسلامية، مادة البرنو، ص285. انظر أيضا فضل كلود: المرجع السابق، ص222.

2-الرباصي: المرجع السابق، ص112.

من بلاد المغرب ومصر الى بلاد البرنو عاملا آخر يقف من خلاله حكام البرنو على طرق تنفيذ الاحكام واحلال العدل بين الرعية، ويحدثنا القلقشندي عن العدل في برنو بقوله " ان العدل قائم في بلادهم وهم يتمذهبون بمذهب الامام مالك"[1].

يقيم القاضي الأكبر للبلاد في العاصمة (بيرني)، وهناك قضاة اقل مرتبة منه في مدن البلاد الكبرى ونجد ان المحكمة الملكية برئاسة مباشرة للسلطان، والثانية محكمة القاضي والذي يعينه السلطان، مهمته النظر في الجرائم العامة والجنح والخلافات بين المتخاصمين، ويشترط في القاضي ان يكون فقيها متحليا بالنزاهة والورع، ويعتبر بيت القاضي محرما كالمسجد يلتجا اليه أحيانا زعماء المعارضة خوفا من السلطان وبطشه، وكثيرا ما يجيرهم السلطان على ذلك[2].

ومن الصور التي تبين لنا تطبيق الشريعة الإسلامية في برنو ان أحد سلاطين برنو أقدم على قتل السارق لجهله بالقران واحكام الشريعة، فما كان من والدة الملك الا ان أقدمت على حبسه، مبينة له ان حد السارق بقطع الايدي لا بالقتل[3]، وفيما يتعلق بالإرث فانه بموت الاب يقوم الابن الأكبر بإدارة املاكه، اما ان كان صغيرا، فيقوم بذلك أحد اعمامه حتى يوم تقسيم التركة، ويتم ذلك في مجلس العائلة ويذهب العشر الى رئيس القبيلة والباقي يقسم بين الأبناء حيث يأخذ الذكر ضعف الانثى تطبيقا لأحكام الشريعة الاسلامية[4]. وبالنسبة للرقيق فانه كان يحق للعبد ان يصبح حرا شريطة

1-القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص28.

2-نعيم قداح: المرجع السابق، ص116. انظر أيضا حسنين مقلد: المرجع السابق، ص76.

3-حسنين مقلد: المرجع السابق، ص77.

4- نفســه: ص81.

دفع ثمنه لسيده، وكان سادة القوم يقومون باعتاق اعداد كبيرة من الرقيق خاصة المناطق التي يقيم بها مسلمون متمسكون بتطبيق الإسلام وشريعته، ويقدم لنا بالمر من خلال تحقيقه لما تركه بن فرتو العديد من المواقف التي تبين لنا اخذ السلاطين براي العلماء والفقهاء في القضايا الخلافية، فقهية كانت او جنائية، ولعل من أبرزها عادة الاخذ بالثأر المنتشرة بين القبائل خاصة العربية منها، والتي قضى عليها الإسلام بتعاليمه السمحة[1].

وكانت الاحكام تصدر في فترة قصيرة، ويعلن قرار الحكم بين المتخاصمين امام الملا وتتراوح العقوبة بين السجن والجلد او القتل او مصادرة أموال الجاني في حين كانت الجرائم الجنائية من اختصاص المحكمة السلطانية التي تعقد برئاسة القاضي[2].

تمتع القضاة بمكانة عالية وكان يؤخذ برأيهم في كل الأمور والمسائل التي تمس امن ومصلحة البلاد وفي حالة اعلان الحرب على الأعداء، وليس ادل على ذلك من السلطان عمر بن ادريس الذي عجز عن الوقوف في وجه هجوم البولالا وصده، ولما لم يكن لجيشه قبل بمواجهة هذا الزحف عمد الى عقد مجلس موسع حضره كبار قضاة الدولة فأشاروا عليه بمغادرة المكان والالتجاء الى منطقة أكثر امنا تجنبا لهزيمة محققة في ظل ضعف جيش الكانم وجيشها[3].

هذا وتسجل لنا المصادر التاريخية ان نظام القضاء بدوره عرف تطورا هاما في عهد السلطان الوما حيث عمل هذا الأخير على نقل السلطة القضائية في الأمور المتعلقة بالأمة من زعماء القبائل الى

1- Trimingham,J,S,Islam in west Africa,p134.

2-نعيم قداح: المرجع السابق، ص79.

3-حسنين مقلد: المرجع السابق، ص81.

سلطة القضاة، وأرغم الشعب أيضا على استعمال المكاييل والموازين المتعارف عليها شرعا خشية ابتزاز التجار للأهالي[1]. واتخذ اماما قاضيا كان من خيرة الائمة الذين اشتهروا في تاريخ برنو وهو الامام (احمد بن فرتو) والذي يعود اليه الفضل في تدوين جزء هام من تاريخ هذه المملكة فكان السلطان يشركه في الأمور الهامة التي تخص مصالح البرنو، كما اصطحبه في مختلف الحروب والغزوات التي قادها[2].

وينقل احمد بن فرتو عن اخباره " انه رجل شديد التمسك بالكتاب والسنة، شديد الكراهية لأهل البدع والمحدثات، ولقد حكم الكتاب والسنة في فترة حكمه، وسار على نهج إسلامي خالص، كما انه اناط جميع الأمور القضائية بطائفة من ذوي المعرفة والتحقق من علماء بلده وطلب إليهم ان يقضوا في كل قضية بما لا يتنافى وحكم القرآن والسنة، كما كان يعتقد ان جميع القضايا توجد لها حلول بصورة قاطعة في الكتاب والسنة، ونصائح الصلحاء وآراء الحكماء[3].

وبذلك نجد ان فترة حكم الوما عرفت تقدما في جميع الميادين كان احد عواملها الرئيسة استتباب الامن الداخلي بفضل القضاء العادل والنزيه الذي فرضه هذا الأخير، تأسيا وتأثرا بما عرفته البلاد العربية والإسلامية في هذا الميدان، فضلا على ان إقامة الإسلام وشرائعه ترتبط ارتباطا وثيقا بتحكيم شرع الله في الأرض وذلك ما نلمسه من الصور السالفة الذكر في تاريخ هذه المملكة.

1-عبدالرحمن زكي: المرجع السابق، ص78.

2-كرم الصاوي باز: **دراسات في تاريخ بلاد المغرب والسودان الغربي والاوسط في العصر الإسلامي**، الافريقية الدولية للنشر، ط1، القاهرة، 2016م، ص344.

3-صالح بن يونس: المرجع السابق، ص102. نقلا عن احمد بن فرتوا: تاريخ ادريس الوما، ص13.

5-العلاقات الخارجية لمملكة الكانم-برنو مع البلاد العربية والإسلامية:

ترتبط البرنو بعلاقات متميزة ببلاد المغرب ومصر حتى قبل انتشار الإسلام ولا شك ان الحاجة الاقتصادية كانت العامل الأبرز في ذلك حتى في ظل غياب علاقات رسمية مباشرة في ظل غياب مفهوم الكيان او الدولة لهذه المنطقة من بلاد السودان، الا انه وبدخول الإسلام والعربية المنطقة توطدت هذه العلاقات بشكل رسمي، برز من خلال المراسلات والسفارات المتعددة بين كانم-برنو والبلاد الإسلامية والعربية واليك بعضا من مظاهر هذه العلاقات الرسمية.

5-1 مع مصـــــــــر:

لم نقف من خلال بحثنا على قنوات ربط مباشرة بين بلاد البرنو و مصر، ولا نملك معلومات مصدرية دقيقة توضح لنا مدى قدم وعمق هذه العلاقات ،الا انه ولا شك في ذلك وصول الكثير من المؤثرات عبر مصر الحضارة، وتسجل لنا الصادر التاريخية عمق هذه العلاقات من خلال رحلات الحجاج لملوك الكانم-برنو والتي كانت تمر عبر مصر التي يستقرون بها زمنا ريثما يتهيأ موكبهم للحج، والمعروف ان أداؤهم لهذه الفريضة كان ذو أغراض متعددة، دينية وسياسية وبمقابلتهم لملوك العالم الإسلامي ومن بينها خليفة المؤمنين في القاهرة قبل انتقاله للدولة العثمانية يحصلون منه على تفويض شرعي للحكم في الولايات التي استولوا عليها او قاموا بضمها[1].

ومن الأدلة الكثيرة التي تبين لنا عمق هذه العلاقات السياسية خلال نهاية الفترة الوسيطة وبداية الحديثة ما حفظ لنا ديوان الانشاء رسم المكاتبة التي كان يرسلها الديوان الى سلطان برنو، حيث

1-حسنين مقلد: المرجع السابق ،ص89.

حفظت لنا المصادر نص رسالة بين سلطان برنو والسلطان المصري المملوكي برقوق تتعلق بعرب جذام الذين اجتاحوا مع غيرهم من العرب المهاجرين من مصر جنوب مملكة الزغاوة حتى سيطروا على دارفور، واتخذ أولئك الاعراب هذه المنطقة قاعدة لشن غاراتهم على ما جاورها من أقاليم سلطنة برنو في الغرب[1].

ويمكن ان نستدل من سطور تلك الرسالة المكانة العالية والنفوذ الكبير الذي كانت تحظى به مصر في تلك الديار ونستخلص ايضا ان حكام برنو عملوا على إضفاء شيء من الشرعية على سلطانهم سواء تعلق ذلك بالسلطة الروحية الداخلية او اكتساب الهيبة السياسية الخارجية.

وفي فترة حكم ادريس الوما ازدادت هذه العلاقات أكثر وأضحت أكثر متانة واوسع مجال، في ظل توجه هذا السلطان لأداء فريضة الحج لأكثر من مرة عبر طريق مصر الى بلاد الحجاز، ولا شك ان اقامته بمصر اوبة وذهابا، تزيد من تشعب تلك العلاقة من جهة وصلابتها من جهة أخرى.

2-4 مع طرابلس الغرب:

ان العلاقات الخارجية بين منطقة حوض تشاد وطرابلس الغرب (ليبيا) قديمة قدم التاريخ، بحكم موقع كانم-برنو المتاخم لطرابلس من جهة الجنوب، وقد ورد ذكر الكثير من السفارات بين مملكة الكانم-برنو وطرابلس خاصة في أوائل القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي، ومن أوائل هذه السفارات الرسمية ما قام به السلطان ادريس بن علي (1504-1526م) بارسال سفارة الى طرابلس

1-القلقشندي: المصدر السابق، ج8، ص117.

عام 1512م، وذلك سيرا على سياسة والده في ضرورة تدعيم العلاقات وزيادة روابط المودة وحسن الجوار[1] .

وتذكر لنا المصادر سفارة أخرى بعث بها الماي محمد بن ادريس (933-952هـ/1526-1545م) الى طرابلس سنة941هـ/1534م، وكانت طرابلس آنذاك تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا، ويرجح ان هذه السفارة لم تتجاوز ضواحي المدينة، وذلك ان الماي ادريس طلب خلال هذه السفارة التحالف مع خير الدين الذي وصل تاجوراء لتنظيم المقاومة ضد فرسان القديس في طرابلس[2].

استمرت العلاقات الدبلوماسية بين مايات البرنو والولاة العثمانيون في طرابلس، حيث ارسل ادريس الوما (978-1012هـ/1570-1603م) سفارة الى استانبول عام984هـ/1576م طلبا لربط علاقات مباشرة مع السلطان مراد الثالث، وقد رد هذا الأخير على هذه السفارة بما يوحي بموافقته على توطيد العلاقات مع دولة البرنو، واعقبها الوما بسفارة أخرى سنة987هـ/1587م، تحمل معها بعض الهدايا القيمة وذلك عملا بنصيحة والدته، ولكي يضمن سلامة الطريق التجاري الذي يربط طرابلس بفزان وكوار ثم برنو، على ان يكون مفتوحا امام القوافل التجارية التي تمر به

1-Barth, H,opcit,p590. انظر أيضا طرخان إبراهيم : المرجع السابق،ص174.

2- الرباصي: المرجع السابق، ص ص 120، 121.

والقادمة او الايبة لبلاد برنو ، الا ان هذه العلاقات سريعا ما أصيبت بالفتور والجمود في ظل العلاقة المتردية بين البرنو والدولة العثمانية[1].

اما في عهد محمد باي والي طرابلس الغرب فقد اتصل هو الاخر بسفارة من امير بورنو مع أوائل القرن 17م، وابتداء من أواخر هذا القرن عدد امراء البورنو الزيارات الى فزان، من ذلك زيارة الملك ماي ادريس الذي وصل الى مرزق سنة 1696م، مصحوبا بأكثر من 700 من عبيده، وهو ما يؤكد تواصل الفارات والاتصالات الى زمن متقدم من الفترة الحديثة[2]

3-5 مع تونـــس:

اذا كانت العلاقات السياسية والاقتصادية بين دولة الكانم-برنو وطرابلس الغرب فرضتها عوامل الجغرافيا والمصالح الاقتصادية، فان العلاقات مع تونس فرضتها مكانة وقوة الدولة الحفصية في بلاد المغرب العربي، ويذكر المؤرخون انه ابتداء من القرن 14م دخل بلاد دارفور والكانم عنصر مغربي من تونس يتمثل في شعب التنجور وان اخوين هما علي واحمد من تونس قد استقرا في تشاد كأمراء، [3]وتسجل لنا المصادر اول تواصل رسمي بين الطرفين في قيام الماي دونمه دباليمي، بارسال سفارة الى السلطان الحفصي المستنصر (647-676هـ/1249-1277م) وكانت هذه السفارة سنة 655هـ/1257م وتضمنت بعض الهدايا ومن بينها الزرافة، وقد صور لنا ذلك بن خلدون بقوله "

1- Barth,H,opcit,p593.

2- Michel. Abitbol, Tombouctou et les arma, Maisonneuve, paris, 1980, p214.

3 – حسن إبراهيم حسن: **انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى**، منشورات معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1957، ص112.

فكان لها بتونس مشهد عظيم برز اليه الجفلى من اهل البلد حتى غص بهم الفضاء وطال اعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوته"[1].

ثم توالت السفارات بعد ذلك حيث أرسل الماي عبدالله بن كاداي(721-743هـ/1321-1342م) سفارة الى البلاط الحفصي سنة727هـ/1327م، كما أرسل الماي ادريس بن علي (909-933هـ/1503-1526م) سفارة أخرى سنة 909هـ/1503م[2]، والذي من عهده استمرت العلاقات طيبة، ليرسل سفارة أخرى سنة 1526م، اما ابنه فقد ارسل بعثة الى طرابلس سنة 1534م، كما مرّ بنا[3].

5-4مع المغرب الأقصى:

تحكمت في العلاقات السياسية بين كانم-برنو والمغرب الأقصى في عهد الدولة السعدية مجموعة من العوامل والمتغيرات خاصة في فترة حكم اعظم مايات البرنو، الماي ادريس الوما، حيث استغل هذا الأخير العلاقات السيئة بين السعديين وبلاد سونغاي من جهة ولعدم تحقق مبتغاه من علاقته بالعثمانيين من جهة أخرى، وقد بدأت الاتصالات السياسية بين ادريس الوما والسعديين سنة990هـ/1582م، عندما ارسل الوما سفارة الى المنصور بصحبة بعض الهدايا، وحملت رسالة من

1-بن خلدون: المصدر السابق، ج12، ص652.

2-عبدالجليل التميمي: **العلاقة بين المغرب الأدنى والسودان الأوسط، ندوة العلاقة بين الثقافة العربية والافريقية**، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،1985، ص64.

3- عبد الجليل التميمي: **الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا خلال العصر الحديث**، منشورات المجلة التاريخية المغربية، ع07، تونس، 1981، ص11.

ادريس يطلب فيها تزويده بالأسلحة النارية بغرض مجاهدة القبائل الوثنية[1]، ولعل هذا الطلب يؤكد لنا فشل مساعي ادريس الوما في الحصول على حاجته من الأسلحة النارية من العثمانيين، ثم تكررت السفارات بين الطرفين حيث جاءت السفارة الثانية بناءا على رغبة المنصور في الحصول على البيعة من ادريس.

في حين جاءت السفارة الثالثة لتعلن موافقة ادريس على مبايعة السلطان السعدي[2]، وما يلفت النظر في هذه البيعة المبالغة في مدح المنصور وبيان نسبه الذي اهله لتولي الخلافة[3]، ويبدو من صيغة البيعة ما يوحي بحاجة ادريس لوجود حليف قوي مثل المنصور في ظل الظروف والمتغيرات الدولية التي تعرفها المنطقة[4].

ولئن كان هدف ادريس من هذه البيعة هو عداؤه المستحكم من سنغاي وخوفا من أطماع العثمانيين، فان اهداف المنصور كانت أبعد، ويأتي على راسها ضمان حياد دولة الكانم في حملته ضد سنغاي، والسيطرة على الطرق التجارية الرابطة بينها وبين المغرب الأقصى، هذا دون ان نغفل رغبته الجامحة لإسماع صوته لدى ممالك افريقيا جنوب الصحراء، وخاصة سلاطين سنغاي.

1-الفشتالي: المصدر السابق، ص67.

2-الناصري: المصدر السابق، ج5، ص106.

3-انظر الملحق رقم

4-الرباصي: المرجع السابق، ص127.

5-5 مع المغرب الأوسط (توات):

نقلت الينا المصادر التاريخية تلك المراسلات المباشرة بين مرابطي إقليم توات جنوب الجزائر والدولة وسلطان الكانم–برنو حيث قام السلطان قاضي بن عثمان (1440-1446م) بارسال رسالة الى مرابطي توات[1]، كتبت هذه الرسالة بتاريخ العاشر من شعبان 843هـ/1535م وجاء في هذه الرسالة من السلطان قاضي سلطان برنو، ايد الله ونصره والحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله وصحبه، ثم افاض الكاتب في وصف السلطان من جديد حتى قال اما بعد "فإلى المرابطين الذين من الشيخ مختار وسيدي عمر الشيخ والى سائر إخوانهم المقيمين حاليا بتوات، السلام عليكم جميعا، وبعد فقد عجبنا من امركم لماذا تركتم عادة كبرائكم، لماذا لم تعد قوافلكم تأتي الينا، وارسال البعثات الى بلادنا، منذ عهدكم مع كبيرنا السلطان صغير، فانتم لم تعودوا الينا منذ ذلك الحين لماذا هذا. إني اقسم بالله لن يصيبكم أي شيء من الأذى، فيما لو جئتم لا من جهتي ولا من أحد غيري، فعليكم ان تاتوا اذن كعادتكم وكل من جاء من توات حاملا معه رسالة منكم، لا يسال عن شيء من الرسوم لان البلاد بلادكم كما كانت بلاد اسلافكم"[2].

هذه الرسالة تحمل دلالة واضحة على العلاقات الوطيدة والقديمة بين البرنو وبلاد توات، ولا شك ان في قدوم التواتيين الى البرنو لم يكن للغرض الاقتصادي فحسب وانما الهدف ابعد من ذلك على اعتباران هؤلاء القادمين كان منهم التجار والعلماء والوجهاء، وكان ذلك مما يزيد من عمق هذه

1-نص الرسالة انظر الملحق رقم 08.

2-حسنين مقلد: المرجع السابق، ص110.

العلاقات، يضاف الى ذلك ان مراسلات الوما السابقة كان لابد ان تمر عبر هذا الإقليم، ناهيك عن التجار المتوجهين من البرنو الى بلاد المغرب والعكس باعتبارها محطة تجارية هامة.

6-5 مع الدولة العثمانية:

من المعروف تاريخيا ان العثمانيين بسطوا سلطانهم على مصر والشام في مطلع القرن السادس عشر، وقد اتصل سلاطين برنو بالعثمانيين، سواءا تعلق ذلك بعمالهم في ولاية طرابلس كمرحلة أولى، او عن طريق المراسلات المباشرة بينهم في مرحلة ثانية، وقد تحدثت المصادر التاريخية عن بعض تلك المراسلات التي بعث بها ادريس الوما الى السلطان العثماني مراد الأول يطلب فيها امداده بالأسلحة النارية لمواجهة اعدائه من القبائل الوثنية، وقد كانت الردود إيجابية في بادئ الامر بين الطرفين، الا ان تماطل العثمانيين في تقديم الأسلحة التي طلبها الوما دفع هذا الأخير للاتصال بالدولة السعدية تحقيقا لمبتغاه واعلانا لولائه[1].

وقد كشف لنا التميمي في أرشيف رئاسة الوزراء في إستانبول على نص رسالتين كان الباب العالي قد وجههما الى الملك ادريس الوما وقد جاء في أحدهما " انه نظرا لفرط الموالاة وشدة المصافاة واستدعائكم ان يكون أساس المودة بيننا منشدا وبنيان المحبة والصداقة مؤكدا... وأهالي دياركم في ولايتنا من شاء من الواردين والصادرين وغيرهم من التجار والزائرين، حتى يصير سببا لكمال الوداد وباعثا لشدة الاتصال..."[2].

1-احمد شلبي: المرجع السابق، ص299.

2 - من أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول مهمة دفتري رقم 30، ص13، 14. فرمان تحت رقم 494، بتاريخ 22 ربيع الأول 985هـ (9جوان 1577م)، نقلا عن التميمي المرجع السابق، ص28، 29. انظر الملحق رقم 06، و07.

وقد اظهر الباب العالي استعداده لمد يد المساعدة للملك ادريس وتقديم أي عون وعلى ضوء ذلك طلب الملك ادريس من السلطات العثمانية بالشمال الافريقي وخصوصا تونس ان تمده بفريق من الجنود لتدريب جيشه على مختلف الأسلحة الحديثة والنارية منها على وجه الخصوص والتي كانت متداولة بحكم حركة المد والجزر بين الامبراطوريتين العثمانية والاسبانية طوال القرن السادس عشر[1].

وقد تمكن الملك ادريس الوما بفضل تعليم وخبرة هذا الفريق ان يكسب جيشه تفوقا ملحوظا مكنه من القضاء على نزاعات القبائل والسيطرة على كامل الجنوب الصحراوي وتنشيط حركة الاتصال التجاري والثقافي بين الشمال والجنوب[2].

على ان الدور الذي لعبته الإدارة العثمانية انطلاقا من طرابلس الغرب في خلق حركية تأثيرية حضارية في وسط افريقيا وقلب الصحراء يعتبر رئيسيا وكبيرا، ومع هذا لا زلنا نجهل ابعاده وتفاصيله وخلفياته وهو الدور الذي شوهته الدراسات الغربية وغطت عنه.

ثالثاً: مظاهر التأثير في الحياة الاقتصادية:

بالرجوع للمصادر والمراجع التاريخية التي تناولت تاريخ البرنو، وعلاقته ببلاد المغارب نجد ان هناك شذرات قليلة جدا تناولت الجانب الاقتصادي لإشارات في بعض المصادر لاهم المحاصيل الزراعية وبعض المنتجات الحرفية وكيف أثر العرب المسلمون في هذا المجال، الا انه وبالمقابل يمكننا الوقوف على الكثير من المظاهر التجارية المتمثلة في اشكال التبادل التجاري المختلفة بين المنطقتين، ذلك ما سنحاول الوقوف عليه من خلال هذا المبحث.

1- التميمي: العلاقة بين المغرب الأدنى والسودان الأوسط، ندوة العلاقة بين الثقافة العربية والافريقية، المرجع السابق، ص65.

2 -نفســـه: ص62.

1-الزراعـــــــــــــــــــة:

كانت المحاصيل الزراعية المنتجة كثيرة ومتنوعة، وفدت على المنطقة من بلاد المغرب ومصر على يد الهجرات العربية والبربرية، ومن هذه المحاصيل نجد الحبوب بمختلف اشكالها والخضر، الإضافة الى الحيوانات المستأنسة مثل البقر والماعز والحمار النوبي المستأنس[1].

وتناول كلا من ابن فضل الله العمري والقلقشندي اهم المزروعات التي تنتشر في هذه المملكة فالعمري يذكر"...غالب عندهم الأرز والقمح والذرة وببلادهم التين والليمون واللفت والباذنجان والرطب ...والارز ينبت عندهم من غير بذر وهو ثقة"[2]، ويضيف القلقشندي في نفس المجال بقوله "وببلادهم قحط وشظف وسوء مزاج مستول عليها، وغالب عيشهم الأرز والقمح والذرة، وببلادهم التين والليمون واللفت والباذنجان والرطب ويقال ان الأرز ينبت عندهم من غير بذر"[3].

ويصف مارمول الفلاحة بإقليم برنو فيقول " ينتج إقليم برنو كميات من الحبوب وتتوفر على انعام كثيرة اما المناطق الجبلية فإنها هي الأخرى تزخر بالأنعام الكثيرة وتنتج الذرة وحبوبا أخرى غريبة زيادة على القطن"[4]. كما اشتهرت البرنو بخيولها فملوكها يقومون بشرائها بأثمان غالية من بلاد البربر فقد كان يدفع لمستوردها عشرين عبدا مقابل فرس واحد[5].

1- مارمول كاربخال: المصدر السابق، ج3، ص202.

2-العمري: المصدر السابق، ج5، ص270.

3-القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص270. انظر أيضا إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص164.

4-مارمول كاربخال: المصدر السابق، ج3، ص210.

5-نفســــــــه، ص211.

وبوصول المحاصيل الزراعية المغاربية الى بلاد البرنو، فلا شك ان القبائل العربية والبربرية المهاجرة تأتي على رأس القنوات التي أوصلت هذه المنتجات وبالتالي تدريب وتعليم فلاحي البرنو على كيفيات زراعتها وتحصيلها، وفق الطرق والوسائل المعروفة في بلاد المغرب[1].

2-الصناعـــــــــــــــــــة:

نقلت القبائل العربية والبربرية المهاجرة الى بلاد السودان الأوسط كثيرا من الحرف والصناعات التي عرفت رواجا واستخداما ببلاد المغرب، الا ان انتاجها كان يتماشى وما تتطلبه السوق الداخلية لممالك حوض تشاد، واشتهرت مملكة كانم-برنو بالمنتوجات المجسدة أي المصنوعة بالجسد والتي كانت تصدرها الى الممالك المجاورة لشهرتها، واستعملت من ثياب كانم كعملة عرفت باسم (ندى) او (دندى)[2]، ويذكر القلقشندي في هذا الصدد " ومعاملتهم بقماش ينتج عندهم سمي دندي طول كل ثوب عشرة اذرع فاكثر ويتعاملون أيضا بالودع والخرز والنحاس المكسورة ، والورق لكنه جميعه يسعر بذلك القماش"[3].

كما عرف إقليم البرنو انتاج كميات قليلة من الذهب والنحاس وكان يلجا الى استيراد هذا الأخير من إقليم تكدا على مسير أربعين يوما من برنو حيث يتم استبداله بسلع اخرى[4]، واشتهرت برنو بصناعة الأسلحة من الحديد بفضل قبائل التيدا والتبو، وبذلك تحول جيش برنو الى اقوى جيوش

1-خالدي مسعود: المرجع السابق، ص518.

2-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص165.

3-القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص28.

4-البصيلي: المرجع السابق، ص416.

غرب ووسط افريقيا لقوة سلاحه[1]، وكانت برنو تتوفر على مادة الصودا والرمل لصناعة الزجاج، كما كان يستعمل بيض النعام للزينة اما ريش النعام فكانت تحشى به الارائك والمخاد والوسائد وتستعملها الطبقات الراقية مراوح للتهوية[2].

3-التجـــــــــــــــارة:

لعب موقع كانم-برنو حول حوض تشاد دورا بارزا في ربط هذه الأخيرة مع العالم الخارجي، ولجعلها قاعدة هامة في ربط ممالك السودان الأوسط مع المنطقة العربية والمغاربية تجاريا، وإذا ما بحثنا في تاريخ هذه العلاقات لوجدنا انها تسبق دخول الإسلام الى بلاد السودان، الا انه وبالمقابل لا يمكن ان نغفل الدور الكبير الذي لعبه الإسلام والعربية في توسيع عملية التبادل التجاري، ولن نبالغ إذا وضعنا التجار والقوافل التجارية كأهم عامل من عوامل التأثير المغاربية والإسلامية في المنطقة.

3-1 اهم المراكز التجارية:

اشتهرت بعض المدن الصحراوية من بلاد المغارب، كمراكز او حواضر تربط بين شمال الصحراء وافريقيا جنوب الصحراء، امتهن أهلها التجارة مستفيدين في ذلك من قوافل الحج او التجارة المارة بهم، عرفوا بحراسة هذه القوافل وتأجير الجمال او بيعها للتجار، كما عمل البعض من افرادها كأدلاء لهذه القوافل لمعرفتهم بدروب الصحراء، ومن أبرز هذه المراكز التي ربطت بلاد المغرب ب الكانم-برنو نجد:

1-خالدي مسعود: المرجع السابق، ص526.

2-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص176.

ـ **غدامس:** لعبت غدامس الواقعة الى الجنوب الغربي من طرابلس والقريبة من الحدود الجزائرية من الغرب دورا بارزا في تسيير ومرونة انتقال القوافل التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي والاوسط، حيث تصلها القوافل التجارية القادمة من أربعة اتجاهات عبر مفازات الصحراء الكبرى، فطريق توات تصل غدامس بالسودان الغربي، وطريق غات في اتجاه الشرق والجنوب تصل غدامس مع كوار ثم السودان الأوسط، هذا وتجمع المصادر التاريخية على ان هذه المدينة تتميز عن غيرها بكونها المفتاح لبلاد السودان، تشتهر بصناعة الجلود القادمة اليها من بلاد السودان، كما تشتهر بالتمور والكمأة[1]التي لا مثيل لها وكان اعتماد أهلها على الزراعة عن طريق عين ازلية، يقسمها أهلها قسمة معلومة[2].

ـ **زويلـــــــــة:** فتحت هذه المدينة في عهد عقبة بن نافع، وتعد من أقدم المدن التجارية والسياسية في إقليم فزان، وظلت هذه المدينة مركزا تجاريا مهما وطريقا لعبور تجارة الكانم الى طرابلس وبرقة، واشتهرت بتجارة المنسوجات والرقيق، ومنها تتفرق القوافل التجارية الى جميع اتجاهات الشمال الافريقي[3].

ونظرا لما تميز به إقليم فزان من أهمية تجارية فقد ربطت زويلة بين موانئ البحر المتوسط من ناحية والسودان الأوسط والغربي من ناحية أخرى، ونجد ان هذا الإقليم نفسه وقع تحت السيطرة الكانمية

1- الكمأة، المعروفة عند العامة ب الترفاس ومازال هذا الأخير منتشرا في هذه المنطقة عند سقوط الامطار في مواسم مبكرة

2-علي خليفة: المرجع السابق، ص45.

3-البكري: المصدر السابق، ص11.

ابتداء من القرن السابع الهجري، لتنتقل أهمية الإقليم الى مراكز اخرى مثل تراغن ومرزق، وبالرغم من ذلك حافظ هذا المركز على أهميته التجارية[1].

_ **غات**: تقع غات الى الجهة الجنوبية الغربية من طرابلس، وهي عاصمة سلطنة ازقر التارقية قديما، ومحطة هامة من محطات القوافل التجارية الصحراوية القادمة من الشمال (طرابلس) وغدامس وجنوب الجزائر(توات) لتصلها بالسودان الغربي والاوسط، ومما ساعد غات على ذلك الحماية التي كانت توفرها قبائل الطوارق الذين حرصوا على سلامة القوافل التجارية لارتباط استمرارهم وتواجدهم بما تدره تلك القوافل[2].

_ **مـــــــــرزق**: أسست مدينة مرزق سنة 609هـ/1310م، تقع جنوب غرب مدينة تراغن[3]، وهي من المراكز المهمة في الربط بين الشمال والجنوب، والتي أنعشت الحركة التجارية القادمة من غدامس وطرابلس ومصر الى بلاد الكانم-برنو والهوسا، وفيها يتم تبادل البضائع السودانية مع سلع طرابلس وغدامس، وظلت هذه المدينة حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري /الثامن عشر الميلادي هي مركز السلطة في ولاية فزان[4].

_ **بلمـــا**: تقع بين منطقة فزان وحوض تشاد وهي احدى المحطات الرئيسية لعبور القوافل التجارية التي تبدأ من بلاد المغرب وتنتهي عند دولة الكانم-برنو، وقد ورد ذكرها عند الحموي وهو يصف

1-علي خليفة: المرجع السابق، ص46.

2- الرباصي: المرجع السابق، ص42. انظر أيضا علي خليفة: المرجع السابق، ص49.

3-تراغن، من المراكز التجارية التي اشارت المصادر الى وجود محطة للمكوس والتعشير فيها، فضلا على انها منتجع للتجار ودار للاستراحة وخصوصا في عهد السيطرة الكانمية على إقليم فزان انظر امين الطيبي: المرجع السابق، ص76.

4-بن عمر التونسي: المصدر السابق، ص 68.

سكانها بقوله "يلبسون ثياب الصوف، وفي بلادهم أسواق ومياه جارية ونخل كثير"[1]، ويؤكد لنا الادريسي مرور القوافل التجارية الى بلاد الكانم بمنطقة (كاوار)، اشتهر اهل كاوار بإنتاج الشب الكاواري الذي يصفه الادريسي دائما بانه في غاية الجودة والكثرة[2].

هذه لربما أبرز المراكز التجارية المباشرة التي ربطت بلاد المغرب العربي ببلاد كانم، وما يلاحظ على هذه المراكز ان اغلبها يقع في طرابلس، وبالأخص في إقليم فزان لانفتاح هذا الإقليم على نقاط تماس مباشرة مع بلاد الكانم-برنو، والى جانب هذه المراكز الرئيسة وجدت بعض من المراكز الفرعية على غرار مدن سبها، واوجلة وتراغن وغيرها.

2-3 طرق القوافل التجارية بين بلاد المغرب ودولة الكانم-برنو:

ساهمت العديد من العوامل خاصة منها الطبيعية في تنشيط حركة القوافل التجارية بين طرابلس وحوض تشاد، فمن ذلك ان ساحل المتوسط في جزئه الشرقي خاصة يتعرج الى الداخل في سواحل سرت وبرقة وغيرها، مما يسهم في تقليص المسافة بين بلاد المغرب ووسط افريقيا، يضاف الى ذلك عدم وجود عوائق او تعقيدات طبيعية بين المنطقتين إذا استثنينا جبال تيبستي، وبالتالي انعكس العامل الجغرافي الطبيعي على تعدد الممرات وطرق التواصل بين المنطقتين وهو ما نلمسه في:

- طريق يتجه من سرت شمالا باتجاه مرزق ثم زويله وصولا الى كاوار ليمر عبر جبال تيبستي وصولا الى مدن حوض تشاد[3].

1-الحموي: المصدر السابق، ج4، ص90.

2-الادريسي: المصدر السابق، ج1، ص117.

3-الرباصي: المرجع السابق، ص135.

- طريق طرابلس ثم الجفرة مرورا بسبها وبلما وصولا الى بحيرة تشاد، وهذا الطريق يمر بالكثير من المناطق الأخرى مثل بني وليد وأبو نجم وودان حتى يصل الى سبها ويواصل اتجاهه الى تبستي[1].

- طريق طرابلس —غدامس —غات–مرزق–تادمكة–بحيرة تشاد، ويتفرع عن هذا الطريق طريق فرعي داخلي يربطه بمرزق ليتصل ببلاد المغرب الأوسط عبر غات وغدامس[2].

- طريق بنغازي–الكفرة–ابشه–واداي وهذا الطريق يصل حتى المناطق الواقعة الى الشرق من بحيرة تشاد[3].

لم تكن طرابلس الغرب الوحيدة في نطاق التبادل التجاري وطرق التواصل مع الكانم–برنو، بل عرفت بلدان المغارب الأخرى تواصلا تجاريا مع البرنو، فالمؤرخ يحي بوعزيز في إطار تناوله لاتجاهات الطرق التجارية التي تربط بلاد المغرب مع بلاد السودان يتناول ذلك الطريق الفرعي من عين صالح الى بئر عسيو وتنتيلوست حيث يتفرع الى فرعين أحدهما الى اقادم وماو شرق بحيرة تشاد، واخر الى الجنوب الغربي نحو اقاديس[4].

وقبل هذا الطريق يشير عمار هلال الى الطريق التجاري الشرقي الذي كان يمتد من مدينة تيهرت حتى منحنى النيجر جنوبا، كما ان هناك طريقا تجاريا اخر وهو طريق قسنطينة يمر على بسكرة حتى

1-احمد حسين: **الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر ميلادي كما عرفها الجغرافيون العرب** –رسالة ماجستير– غ م، جامعة القاهرة، كلية الآداب، 1977م، ص139.

2- انظر الملحق رقم 04.

3-الرباصي: المرجع السابق، ص138.

4-يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص41.

تمبكتو ثم الكانم، وكان لتلمسان علاقات تجارية هامة مع الكانم وغيرها من الممالك الافريقية الأخرى التي ازدهرت في نهاية القرون الوسطى وبداية القرون الحديثة[1].

وبالعودة الى تلمسان كأحد اهم المراكز التجارية والثقافية في بلاد المغرب خلال فترة الدراسة نجد ان اغلب قوافلها كانت تمر بتوات كمركز تجاري جد هام، وقد أشرنا الى ترك الرسالة التي بعث بها سلطان البرنو ماي الغازي يترجى فيها تجار توات من اجل العودة للمتاجرة مع بلده.

كما ان هناك القوافل التجارية القادمة من الشرق وبالضبط من القاهرة، والتي كانت تندمج في اغلبها مع القوافل الليبية والمغاربية كونها تتجه من القاهرة صوب اوجله ومرزق ثم الى كانم برنو عبر بلما. وبالمجمل هذه الطرق التجارية وغيرها سواءا كانت فرعية او أساسية ستعرف بعض التقليص وحتى الزوال بوصول الاروبيين الى السواحل الغربية الأطلسية للقارة، كما انها خضعت في الكثير من الأحيان لتغيير مسالكها تبعا للظروف السياسية والاحتياجات التجارية للمنطقة[2].

3-3السلع المتبادلة:

سبقت لنا الإشارة الى المراكز التجارية التي ربطت بين مملكة البرنو وبلاد المغرب ومصر، وتناولنا بالإجمال اهم الطرق التجارية التي ربطت بين المنطقتين ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، لذلك فان دراستنا للحركة التجارية لا تكتمل الا بالوقوف على السلع التي يتم تداولها بين المجالين.

1-عمار هلال: مملكة الكانم-برنو، مجلة المنهل، ع450، السنة 53، مج48 ،1987، ص35.

2- سيد احمد العراقي: **تجارة القوافل بين شمال وغرب افريقيا وأثرها الحضاري**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984، ص ص150، 151.

أ –السلع الصادرة من بلاد السودان الأوسط الى البلاد المغاربية:

_ **الذهب**: شكل الذهب المادة الأساسية الأولى المحركة للتبادل التجاري مع المراكز الشمالية لبلاد المغرب، وبالرغم من ان حجم الذهب في البرنو، لم يكن على شاكلة ما هو معروف في مالي وسنغاي الا ان تجار البرنو كانوا يحصلون عليها من الادغال ومن بلاد السودان الغربي، وقد نقل لنا الوزان أحد صور توفر الذهب لدى ملوك البرنو كما مرّ بنا[1].

_ **النحاس** : يتم تعدين هذه المادة في آهير بالمنطقة الشمالية من بلاد السودان الأوسط، حيث يشير بن بطوطة الى كيفية استخراجه في المنطقة المحيطة خارج تكدا بقوله " معدن النحاس بخارج تكد يحفرون عنه الأرض ويأتون به البلد، فيسكبونه في دورهم بفعل عبيدهم وخدمهم، فاذا سكبوه نحاسا احمر، صنعوا منه قضبانا في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ.."[2].وعلى عكس الذهب فقد كان تصنيع النحاس يتم من عامة الناس، ويحمل تجار هذه المنطقة ما يصنع من هذا المعدن الى كل من المغرب ومصر وشكلت المراكز المغاربية حلقة وصل هامة في هذه التجارة[3].

1- الوزان: المصدر السابق، ج2، ص175.

2- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص305.

3-علي خليفة: **المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط وأثرها على الحياة الاجتماعية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين**، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 2003م، ص94.

ـ **الجلود**: من اهم منتوجات بلاد كانم، نظير توفر أنواع متعددة من الحيوانات، واهمها جلود الثيران السودانية الضخمة وتعرف باسم (كلابو) وجلود الإبل والبقر والمعز، حيث يتم الاستفادة من جلودها محليا، او تصدر الى المراكز الصحراوية المغاربية سواء كانت في مواد خام او مصنعة[1].

ـ **بيض وريش النعام**: من البضائع التي عرفت رواجا واسعا ضمن التبادل التجاري، يبرز بيض النعام وريشه، ويستخدم هذا الأخير كمراوح للتهوية وللزينة في البيوت، اما بيض النعام فقد كان يستعمل في تركيب الادوية وللزينة أيضا، وكانت هذه السلعة غالية الثمن ومن السلع المهمة التي تلقى رواجا واقبالا كبيرا من تجار بلاد المغرب، يشير عمر التونسي الى اقتناء هذه السلعة في بلاد السودان بقوله" وكان جملة ما جاء به أحد تجار فزان دهن النعام، فانه جاء منه بكثير ...وباع في داره الظليم بثلاثة ريالات"[2].

ـ **الشب**: عرفت به بلاد (كاوار) من مملكة البرنو، وذكره الادريسي قبل هذه الفترة في القرن السادس الهجري بقوله " وهي ارض مشهورة وبلاد هم مقصودة ومنها يخرج الشب المعروف بالشب الكواري، وما يعدله شيء في الطيب"[3]. يستخرج الشب من بحيرة كوار وينقل عبر الأراضي الليبية الى مصر، وبلغ شب كوار سمعة عظيمة في كثير من بلدان المغرب واوربا بسبب جودته وعظم كمياته المصدرة ويشكل أحد العناصر المهمة في الاقتصاد الكانمي[4].

1-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص165.

2-عمر التونسي: المرجع السابق، ص295.

3-الادريسي: المصدر السابق، ص 162.

4-علي خليفة: المرجع السابق، ص96، 97.

_ **الرقيـــــــــــــــــق**: تعد الكانم-برنو احد اهم النقاط الرئيسة لتجميع الرقيق بهدف تصديره الى بلاد المغرب واروبا عبر المراكز التجارية التقليدية، وقد سبقت برنو غيرها من الممالك في هذا المجال حسب ما نقلت الينا المصادر التاريخية مثل ابن بطوطة والوزان[1] وغيرهم، وقد لقيت هذه التجارة رواجا كبيرا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين نظرا لحاجة الأوروبيين الماسة الى ذلك، حيث وصل عدد الرقيق المصدر من بلاد السودان الى ما يزيد عن المائة الف سنويا، الا ان هذه التجارة سريعا ما تراجعت بوصول الأوروبيين الى سواحل الأطلسي[2].

كما صدرت البرنو بعض الاقمشة (دندي) والمنسوجات المجسدة ، والخرز وغيرها[3].

ب_ السلع الواردة الى الكانم-برنو من البلاد الإسلامية والمغاربية:

_ **الخيول** : تعد الخيول من السلع الرئيسة في عملية التبادل التجاري والمقايضة بين بلاد المغرب وبرنو ،خاصة بعد ان ادرك سلاطين هذه الأخيرة أهميتها في الحروب من اجل توسيع رقعة ممالكهم، وعادة ما تتم مقايضة الخيول ببعض السلع السودانية وعلى راسها الرقيق، ويحدثنا الحسن الوزان في مطلع القرن السادس عشر عن الكيفية التي تتم بها مقايضة هذه البضاعة من طرف ملك البرنو في تلك الفترة بقوله" وكان الملك الحالي لهذه البلاد جاء بتجار من بلاد البربر ليأتوه بخيل يستبدلونها بعبيد ،يأخذون مقابل كل فرس خمسة عشر او عشرين عبدا"[4]. ولأهمية الخيول لدى سلاطين البرنو يفهم

1-الوزان: المصدر السابق، ج2، ص176.

2-علي خليفة: المرجع السابق، ص98.

3-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص163.

4-الوزان: المصدر السابق، ج2، ص175.

مما ذكره الوزان ان سلطان البرنو كان يشن غارات على الأطراف الجنوبية لمملكته لكي يحصل على العدد الكافي من الارقاء، لتتم مقايضتهم بالخيول التي جلبها التجار[1].

وبرغم ذلك فان هذه التجارة عرفت صعوبات جمة بسبب مشقة الطريق وندرة المياه من جهة، إضافة الى دخول الأوربيين على خط تجارة الرقيق ومغالاتهم في ثمنها مما انعكس بالسلب على تجارة الخيول.

_ **الملـــــــــح**: على الرغم من ان منطقة كوار ببلاد برنو كانت تعد احدى المناجم الرئيسية لاستخراج الملح وتزود بلاد السودان الأوسط بحاجته منها، الا ان الملح المجلوب من الواحات الليبية والمغاربية يعد من اجود أنواع الملح ويكفي ان مبادلته كانت تتم بالذهب، وقد اشار بن بطوطة لذلك بقوله "وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة"[2].

_ **المنسوجات**: وتأتي على راس السلع والبضائع المتبادلة بين المنطقتين[3]، واهمها المنسوجات المجسدة بالزعفران والاقمشة القطنية البيضاء والمصبوغة من النوع المالطي والمحمودي والبرانس والاقمشة التونسية، ومختلف أنواع الشاشية للطوارق والفرسود وهو قماش هندي يصنع من جبة الصوف، وحائك الحرير وحائك بلاد الجريد[4]، كما انفردت المراكز الشرقية من ليبيا بتصدير الاقمشة القطنية لبلاد السودان الأوسط والقادمة اليها من مصر[1].

1-الوزان: المصدر السابق، ج2، ص177.انظر أيضا علي خليفة: المرجع السابق، ص102.

2-ابن بطوطة، المصدر السابق، ج2، ص297.

3-جبريل ابوبكر: طرق القوافل وأثرها في تغذية العلاقات الثقافية بين ليبيا وجيرانها جنوب الصحراء، ندوة التواصل ...كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1995م، ص86.

4-علي خليفة: المرجع السابق، ص103.

_ **العطور وأدوات الزينة:** وجدت العطور وأدوات الزينة رواجا كبيرا خاصة لدى الاسر الموسرة والحاكمة وكانت العطور بمختلف اشكالها ترد من البلاد الأوربية، ومن مواد الحلي والزينة نجد الاساور والخلاخل النحاسية، والخواتم ذات فصوص العقيق وعقود اللؤلؤ الزجاجي، واللآلئ الملونة لصنع العقود، ومن العطور عطر الورد والخشب الأسود المعطر المسمى قماري والمسك[2].

_ **الودع:** حسب ما أورده الوزان فان الودع كان يرد الى بلاد السودان من شرق افريقيا والهند بواسطة التجار المغاربة والمصريين حيث تمثل المراكز الصحراوية المغاربية رافدا أساسيا لوصول هذه السلعة، وقد تعددت استعمالات الودع كحلي بين الاسر الموسرة وكعملة رئيسة في التعامل[3].

_ **المصنوعات الحديدية:** عرفت ممالك السودان الأوسط وعلى راسها كانم-برنو المصنوعات الحديدية من خلال ما يصلهم عن طريق القوافل التجارية، ومثلت تلك المصنوعات أهمية بالغة للأسر الحاكمة خاصة، ومن هذه السلع نجد السيوف والمكاييل والأسلحة منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي[4]، ولذلك فان المصنوعات الحديدية بمختلف اشكالها كانت تشكل جزء كبيرا من احمال القوافل التجارية المتجهة لبلاد البرنو، مما انعكس اقتصاديا وعسكريا لحساب مملكة على أخرى.

1-السراج زين العابدين: **دولة كانم الإسلامية**، رسالة ماجستير، غ م، معهد الدراسات الافريقية، جامعة القاهرة،1975، ص163.

2-علي خليفة: المرجع السابق، ص106.

3-القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص270.

4-فتوح عابدين: الحواضر الإسلامية في غرب افريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، رسالة دكتوراه، غ م، معهد البحوث والدراسات الافريقية، جامعة القاهرة ،1989م، ص404.

_ **سلع أخرى**: ما استعرضناه فيما سبق يمكن ان نعتبرها السلع الرئيسة المستوردة الى بلاد السودان الأوسط عامة والبرنو على وجه الخصوص وبالمقابل وجدت بعض السلع الأخرى وان لم تكن أساسية او ذات أهمية قصوى الا انها تدخل ضمن نطاق التبادل بين المنطقتين ومنها، التمور خاصة منها الجزائرية والليبية إضافة الى المرجان والاحجار الكريمة والعسل والقطران ...وغيرها من السلع[1].

4-النظام المالي الضريبي:

يمثل النظام الضريبي للدول والكيانات قديما وحديثا احد المظاهر المعبرة عن علاقة الدولة مع الرعية ومدى تقبل هذه الأخيرة للنظام سياسيا واقتصاديا، مما ينعكس على امنها واستقرارها، وقد عرفت مملكة الكانم-برنو نظاما ماليا وضريبيا تميزت به عن باقي الممالك الإسلامية في افريقيا الغربية، كان هذا النظام وفق اشراف مباشر من السلطان على بيت المال واحيان كثيرة يوكل احد أبنائه او اخوته للإشراف على موارد الدولة المالية، وتشير العديد من المصادر الى ان تدمير الشيخ عمر بن محمد الأمين الكانمي وحرقه لوثائق الاسرة السيفية حال دون معرفة الكثير عن هذا النظام.

كانت الضرائب والجزية المصدرين الأساسيين لموارد الدولة المالية، والتي كان يقوم رؤساء القبائل والقرى بفرضها على المواشي والمزارع، حيث كان يدفع جزء منها الى مندوب السلطان، والى جانب هذه الضرائب المذكورة وجدت ضريبة الرؤوس التي تفرضها الحكومة، حيث يقوم شعب الكانمبو بتقديم عشر انتاج مزروعاتهم الى الرؤساء كضريبة، اما في مناطق الجنوب فان على الفلاح ان يقدم ما يوازي اثنين كيلو ذرة بيضاء على كل حقل مزروع وذلك لرئيس المقاطعة.

1-علي خليفة: المرجع السابق، ص109.

وهناك بعض الضرائب الموسمية المناسباتية التي يدفعها الفلاح نظير الخدمات المقدمة له، مثل توزيع الأراضي او الاحتفالات الدينية التي تقام بمناسبة البذر والزراعة، وفي حال تسوية النزاعات التي تنشب بين المزارعين، وفي بعض المناطق الشمالية المحاذية لإقليم فزان، فرض ملاك الأراضي على الفلاحين المزارعين سدس مزروعاتهم، كما كان السلطان يحصل الزكاة كل عام من المزروعات والحيوانات وفق الشريعة الإسلامية، كما تواجدت بعض من الضرائب التي فرضت على القوافل التجارية وشكلت مصدر ثروة للسلطان.

وفي فترة حكم السلطان الوما مثلت تجارة الرقيق أحد اهم الموارد الرئيسية لخزينة الدولة، كما فرض على القبائل التي ضمها للبرنو دفع ربع مواردها الاقتصادية سنويا، وفي الفترة المتأخرة من حكمه وضع السلطان الوما نظاما ثابتا لتحصيل الضرائب قائم على الشريعة وتعاليمها وفقا للمذهب المالكي السائد في البلاد والنظم الإسلامية الأخرى، حيث أحل الخراج بديلا عن الضريبة، في حين اقر الجزية على الأقاليم الجنوبية للمملكة[1].

اما في الجانب المالي فلم يكن للبلاد نظام نقدي معين يتعامل وفقه افراد الشعب، الا اننا نجد القلقشندي يذكر ان معاملة بلاد الكانم عبارة عن قطعة من النسيج اسمه دندي، طول كل ثوب عشرة اذرع او اكثر وانهم يتعاملون بالودع والخر ، والنحاس المكسور والورق، ولكنها جميعا تسعر بسعر القماش[2]، وذكر الوزان ان في برنو توجد عملة نحاسية صغيرة، وهي التي يتعامل بها القوم، ويستخدم الذهب أيضا في التعامل، ولكن استخدامه في الزينة اكثر من التبادل ومعاملات البيع

1-حسنين مقلد: المرجع السابق، ص ص66، 67.

2-القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص280.

والشراء، وان تجار الشمال الافريقي الذين يتاجرون مع برنو كانوا يرفضون ان يتقاضوا أي شيء نظير تجارتهم الا ان يأخذوا العبيد، ذلك لان تجارة العبيد في برنو أصبحت هي العملة الرئيسية في البلاد[1].

تمثل مملكة الكانم-برنو صورة للازدهار السياسي والاقتصادي الذي بلغته احدى ممالك بلاد السودان الأوسط وحوض تشاد، ويزيد من أهمية هذه المملكة تلك العلاقات المتميزة التي ربطتها مع مختلف بلدان العالم الإسلامي شرقه وغربه، وبفضل تلك العلاقات امتلكت ترسانة عسكرية قل نظيرها لدى ممالك بلاد السودان في تلك الفترة، ارعبت الصديق والعدو وتمكنت من هزم القبائل الوثنية المناوئة للإسلام وحكم ادريس الوما.

هذا دون نسيان مختلف الإصلاحات والتقسيمات الإدارية والعسكرية التي أبدع فيها السلطان الومه مما مكنه ان يسوس تلك البلاد طوال تلك الفترة من الزمن برغم التجاذبات السياسية التي خلفتها علاقاته الخارجية، بانتقاله من اقصى الشرق وأعني بذلك آل عثمان الى أقصى الغرب واقصد بذلك الدولة السعدية تحت امرة المنصور السعدي ومبايعة الوما لهذا الأخير.

فلئن كانت الجوانب السياسية والدبلوماسية وحتى الإدارية لهذه المملكة بهذا القدر من التطور فما هو حجم التأثير الإسلامي والمغاربي على هذه المملكة في المجالات الاجتماعية والثقافية؟

1- Barth, H, opcit ,vol3, p55.

الفصل الرابع

مظاهر التأثير الإسلامي والمغاربي في الحياة الاجتماعية والثقافية لمملكة البرنو

أولاً: مظاهر التأثير في الحياة الاجتماعية

1- العادات والتقاليد

2- الأعياد والمواسم

3- دور المرأة في مجتمع البرنو

4- طبقات المجتمع

ثانياً: مظاهر التأثير في الحياة الثقافية

1- الحركة العلمية

2- النظام التعليمي وتأثره بالبلاد العربية

3- العلماء ودورهم الثقافي والعلمي

أولاً: مظاهر التأثير في الحياة الاجتماعية:

تتفاعل مجموعة من العوامل المتعددة سواءا منها المتعلقة بهجرة القبائل العربية (عرب الشوا) باتجاه حوض تشاد، أو الناجمة عن مختلف اشكال الاحتكاك والاختلاط والتزاوج التي تجعل من المجتمعات الافريقية في بلاد السودان الأوسط سودانية الطبع، عربية السلوك في كثير من مظاهر حياتها اليومية من عادات وتقاليد واحتفالات بالأعياد وغيرها، ذلك ما سنحاول تناوله من خلال عناصر هذا المبحث:

1- العادات والتقاليد:

امتزجت العادات والتقاليد المحلية السودانية بالعادات والتقاليد العربية الإسلامية الوافدة ونتج عن ذلك انصهار لعادات المنطقتين، تجلت مظاهر ذلك التصاهر في تهذيب الكثير من سلوك وعادات السودانيين وفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية، ولعلنا نلمس بعض ذلك في:

1-1 الـــــــــزواج:

يخضع الزواج في المجتمع البرنوي لأحكام الشريعة الإسلامية على مذهب الامام مالك بشروطه الخمس من القبول والايمان والصداق والشهود والعقد، ويبدا الزواج عادة بعد الموافقة على الخطبة وتحديد موعد الزفاف، ويقام العرس قبل الزفاف بخمسة او ستة أيام، تقام خلالها الاحتفالات والغناء والرقص ، ويحمل المهر الى العروس، ويتمثل في بعض الملابس الفاخرة والقلائد والاثاث والعطور وغيرها ، ثم

تزف العروس الى بيت زوجها بعد خضابها بالحناء ومواد الزينة عصرا أو بعد المغرب، ويحمل جهاز العروس بالطبل والمزمار وغناء خاص بالمناسبة وتستمر السهرة حتى منتصف الليل[1].

لم تكن هناك اية قيود تمنع التزاوج بين التجار المغاربة او المصريين مع قبائل الكانوري والمايا البرنوية، مما خلف مجموعة جديدة من المولدين لكثرة الاختلاط والامتزاج بالقبائل الزنجية، وهذه الظاهرة نجدها في كثير من القبائل السودانية والتي أصبح الكثير منها يدعي النسب العربي او البربري بفعل هذه المصاهرات[2].

ولم يقتصر هذا النوع من المصاهرة على عامة الناس بل امتد الى الاسر الحاكمة ومن امثلة ذلك زواج الشيخ الأمين الكانمي المولود في فزان من اب ليبي وام كانمية من ابنة امير برنو، وزواج أحد امراء برنو المسمى (الماني احمد) من سيدة من طرابلس[3]، ونجد الى جانب ذلك الزواج من القبائل العربية لدوافع سياسية بهدف الاحتواء ودرء الاخطار وتقوية النفوذ وهو ما نلمسه في ام السلطان ادريس الوما حيث نجدها ابنة لاحد سلاطين البولالا المناوئة للأسرة الحاكمة في البرنو[4].

تتزوج الفتيات في برنو في سن مبكرة – الرابعة عشر او الخامسة عشر-كما هو المعتاد في المجتمعات المشرقية الإسلامية، ويذكر دنهام في الفترة المتأخرة عن هذه الدراسة "ان نساء برنو نظيفات ويتميزن بالفم الواسع والشفاه الغليظة والجباه العالية ويعرفن الكحل ويستخدمنه بإسراف ولا تقترب

1- محمد الجهيمي: **الأوضاع الاجتماعية وأثرها على العلاقات السياسة والاقتصادية والثقافية بين طرابلس وممالك وسط افريقيا ما بين القرنين التاسع والسابع عشر الميلاديين،** مجلة فكر وابداع، القاهرة، ع69، 2012م، ص ص522-523.

2-نفســـــه: ص523.

3- إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص68.

4-صالح بن يونس: المرجع السابق، ص75.

النساء من الرجال الا جاثيات على الركب احتراما له، ولا يتكلمن الا من وراء حجاب[1]. ونجد ان مركز المرأة عند الكانوري أفضل من غيرها من القبائل حيث تتمتع هذه الأخيرة بحرية كبيرة ولا ترغم على العمل بالزراعة بعد الزواج، لتتفرغ لأمور بيتها، ويندر ان يتجاوز عدد الزوجات اثنتين او ثلاث في حوزة الراجل الواحد، ويكتفي الفقراء منهم بزوجة واحدة[2].

ولتعاليم الإسلام الراسخة فيهم يندر وجود الخيانة الزوجة، حيث تطبق احكام الشريعة الإسلامية على مرتكبيها، مع اختلاف بسيط، اذ تقيد ايدي وارجل المذنبين مع طرحهم ارضا لتوقع العقوبة عليهم، بمعرفة الزوج المخدوع واقاربه، والذين يستخدمون العصي بدلا من الرجم ولا يترك المذنبان حتى يسلما للموت[3].

ان تأثير الإسلام والمسلمين في بلاد الكانم برنو لم يتوقف عند الزواج وتعاليمه، بل نجد ان ذلك التأثير انتقل لتربية الأطفال، فبعد ان كان هذا الأخير يربى على القتال والدفاع عن القبيلة أصبح يتربى ويتكون ليكون عالما يتصدر المجالس والفتوى من اجل مواصلة مسيرة مجتمعه لما هو أفضل[4].

1-2 اللباس:

قليلة هي المصادر التي تناولت ملابس سكان الكانم-برنو، الا انه يمكن الوقوف على بعض الإشارات التي حملتها بعضا من المصادر في الفترة المتقدمة او المتأخرة عن فترة هذه الدراسة،

1- Denham, Clapperton, H, opcit, 318.

2- علي بسيوني: المرجع السابق، ص147.

3- نفســـه: ص148.

4-الرباصي: المرجع السابق، ص180.

فالحموي يذكر ان ملابس ملوك الزغاوة تعتمد على الصوف، بينما يصف رعاياه بانهم عراة مؤتزرون بالجلود[1]، ويذكر الادريسي اعتماد السكان على الجلود بقوله" ولباسهم الجلود المدبوغة يستترون بها"[2]، ويظهر اثر المغاربة في لباس اهالي الكانم-برنو من خلال عادة اللثام التي اشتهر بها الطوارق يذكر العمري انهم كانوا "اهل لثام وبرقع ازرق لا يزال يمشي الرجال بتلك البراقع والنساء مكشفات الوجوه"[3]، ومن مظاهر اللباس المنتشرة بكثرة في بلاد الكانم لبس العمامة حيث يذكر المسعودي ان الجندي الكانمي كان يضع على راسه العمامة وطرفها يتدلى[4].

هذا وقد حرص الوجهاء وعلية القوم على اقتناء الثياب الفضفاضة امام العامة فاكتسب أهالي تلك الممالك ظاهرة التأنق في الملبس وحسن المظهر، وكان سلاطين الكانم-برنو يحرصون على ارتداء الاثواب العربية ومنها الزي الطرابلسي كلبس الشاشية او لبس الفرملة والجبة بسروالها وخاصة في المناسبات الدينية واثناء خروجهم لصلاة الجمعة[5]، ويؤكد لنا الوزان ذلك بأنهم يرتدون أحسن ثياب ويتلثمون بلثام كبير من قطن اسود وازرق، وان الائمة والفقهاء يتلثمون بلثام ابيض"[6].

بالإضافة الى التأنق في اللباس يشترك الرجال والنساء في اعداد قطع القماش التي يصنعون منها (التوين) وهو الجلباب الخاص ببلادهم، وتعمل النساء بالغزل على اعتاب معظم الاكواخ ويرتدي اهل

1-الحموي: المصدر السابق، ج3، ص142.
2-الادريسي: المصدر السابق، ج1، ص30.
3-العمري: المصدر السابق، ج2، ص95.
4-المسعودي: المصدر السابق، ج1، ص243.
5-محمد الجهيمي: المرجع السابق، ص523.
6-الوزان: المصدر السابق، ج1، ص66.

برنو ملابس عبارة عن اثنين او ثلاثة اورادية فضفاضة وفقا ليسار الفرد، اما علية القوم فيرتدون غطاء ازرق للراس ويحملون عصا غليظة وطويلة ويسيرون بجدية وراء كل منهم عبدان او ثلاثة، ويرتدي الامراء واعوانهم الطرابيش الحمراء والعمامة والتي كانت تستورد من بلاد من طرابلس ومصراته[1].

يذكر القلقشندي، واما عن لباسهم فيبدو انهم متأثرين بزي اهل المغرب، فاللباس في برنو أكثر اتقان وتقدر مكانة كبراء القوم بعدد ما يرتدونه من جلابيب، ومن عادتهم ان يلبس الرجل اثني عشر جلبابا ودراريع وارتداء العمامة حتى كأنهم العرب في ركوبهم[2].

اما عن سلاطين البرنو فملابسهم فاخرة من الحرير المقلم والتيل الملون المستورد من مصر، وفي ميدان القتال يسيرون في موكب يتقدمهم ستة من الرجال ويحملون نفيرا من الغاب طوله عشرة اقدام، وتزين رؤوس السلاطين، والجياد التي يركبونها بكساء من الجلد الملون وكأنهم في عرض مسرحي صامت لا في مهمة في ميدان القتال[3].

وكان لباس المرأة الكانمية عبارة عن قميص واسع فضفاض مطرز له اكمام وتوضع عليه قطعة من القماش تلف به كل جسدها ولونه اسود في الغالب ويسمى "باللو"[4]، وتتميز المرأة الكانمية بالخرز والودع، كما تتزين أيضا بعقود مصنوعة من الخشب توضع حول الرقبة وهناك اقراط تعلق في الاذن على سبيل الزينة، وتلبس نساء البرنو اساور من الخرز المنظوم بشكل بديع، في حين يلبس نساء

1- Denham, Clapperton, opcit, p318.

2-القلقشندي: المصدر السابق، ج8، ص298.

3-علي بسيوني: المرجع السابق، ص136.

4-سعيد الحنديري: **العلاقات الليبية التشادية، مركز الجهاد الليبي**، طرابلس، 1983م، ص51.

الأغنياء اساور وعقود واقراط مصنوعة من الذهب او الفضة، وتشير بعض المصادر الى ان المرأة الكانمية كانت تضع في انفها حلقة تسمى اشناف تحمل دلالة على عزة المرأة وكرامتها[1].

وفي المجمل نجد ان الإسلام هذب من سلوك الفرد البرنوي ومن لباسه الذي أصبح أكثر تحضراً، يستهدف من خلاله ستر عورته وفق ما اقر الإسلام للمؤمن من لباس.

1-3 المأكل:

عرفنا سلفا بان اهل البرنو عرفوا بالتأنق والتكلف في لباسهم، وعلى العكس من ذلك فان مأكلهم عرف بالبساطة، فهم يصنعون من الدقيق عجينا يحلونه بالعسل ويصبون فوقه الدهون، اما استعمال الخبز فهو غير شائع لديهم ويقتصر فقط على الطبقات الميسورة، الذين في استطاعتهم شراء هذه المادة، خاصة إذا علمنا انه كان يتم استيرادها بأثمان باهظة من بلدان المغرب[2].

ولو نظرنا الى الملوك والاغنياء نجد ان غالبية طعامهم من الخبز الذي يصنع من القمح على قلته، اما شراب الملوك فيصنع من الذرة محلاة بالعسل، كما عرف اهل كانم قصب السكر الذي استخدمته العائلة المالكة والميسورين والاغنياء، اما القصعات والاواني التي يوضع فيها طعام الملك وشرابه فكانت تصنع من الذهب الخالص[3].

1-حسن أبو الفضل: **الحياة الاجتماعية في مملكة الكانم**، رسالة دكتوراه الفلسفة في الدراسات الافريقية من قسم التاريخ، القاهرة 2016 م، ص95.

2- علي بسيوني: المرجع السابق، ص134.

3-حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص555.

وكانت الغلة الأكثر شيوعا والتي تتغذى عليها اغلب الطبقات وحتى الحيوانات أحيانا هي "الجسب" ويتم انتاجه بكميات كبيرة ومن دون عناء، يأكله الفقراء على هيئته البدائية او ناضجا بفعل حرارة الشمس، ويستعمل خليطا بالماء كغذاء للمسافرين والحجاج والجنود، وأحيانا تصنع منه رقائق مضافا اليها الدهون والتوابل لأكلة محلية ترف ب (كادل)[1]. ويجفف اهل برنو نوعا من الأعشاب يطلق عليها (الكاشيا) Kashia وهي تنبت بوفرة على جسور المجاري المائية، ويقومون بصحنها بعد تنقيتها من عروقها المتخشبة وعندما تجف تؤكل مثل الأرز او يصنع منها دقيقا، الا ان هذه الاكلة تعد ترفا بين أهالي البرنو[2].

ونجد من بين المأكولات الأكثر شيوعا لدى الفقراء طعام الفول مضاف اليه السمك الذي يصطادونه من البحيرة والانهار القريبة، ويذكر دنهام دائما "ان الجراد موجود بكثرة في برنو، وان الأهالي يأكلونه بشراهة سواءا كان مشويا ام مسلوقا ام على هيئة عصيدة[3].

وقد استفاد أهالي البرنو من تربيتهم للحيوانات في تنويع الغذاء لديهم خاصة لحوم الماعز والاغنام والإبل، ولم تكن الاستفادة من لحومها فحسب وانما اقتاتوا من الباها أيضا وصنعوا من مشتقاتها السمن والجبن الذي أصبح الاعتماد عليه بشكل أساسي في طعامهم خاصة في سنوات متقدمة عن فترة هذه الدراسة[4].

1- Denham, Clapperton, opcit, p317.

2-علي بسيوني: المرجع السابق، ص135.

3-Denham, Clapperton, opcit, p320.

4-حسن أبو الفضل: المرجع السابق، ص97.

وفي المناسبات والاحتفالات الجماعية جرى العرف لدى سكان برنو ان يلتقي الرجال والنساء والأطفال كل فئة على حدى لتناول وجبة المساء في كوخ القرية المشترك، الذي أقيم خصيصا من اجل الاحتفالات الجماعية، ويتم التوزيع في الاكل أيضا وفق الطبقات الاجتماعية كل فئة على حدى[1].

وعرف اهل البرنو عادة إكرام الضيف وهي عادة انتقلت إليهم بعد الإسلام نتيجة مخالطتهم للعرب والبربر وقد اتصف بهذه الصفة غالبية سكان الكانم مما يبرز الأثر العربي والإسلامي في عاداتهم الخاصة وصفاتهم الشخصية[2].

4-1 المساكن:

ترتبط المساكن ومحتوياتها من فرش واثاث ومن حيث الفخامة والبساطة بعديد العوامل تأتي في مقدمتها مكانة وثراء صاحب المسكن وكذا طبيعة عمل ومهنة صاحب المسكن هذا بالإضافة الى البيئة المحيطة وتأثيرها على المسكن فلكل هذه العوامل أثر واضح على الشكل العام في بناء مساكن الكانميين[3].

عرف عن مدن البرنو احاطتها بالأسوار درء الاي هجوم محتمل وقد نقل ذلك الى البرنويين من قبل المغاربة وسكان بلاد الهوسا ، واصبح هذا التقليد لا يقتصر على المدن فقط بل انتقل الى الأبنية والاكواخ التي يسكنونها، كما عرف عنهم تزيين افنية منازلهم بزراعة الأشجار من اجل إضفاء

1-علي بسيوني: المرجع السابق، ص135.

2-عمر التونسي: المصدر السابق، ص160.

3-حسن ابو الفضل: المرجع السابق، ص87.

لمسة من الجمال عليها، ولهذه الافنية جدران أربعة وبها أماكن لبيت الحريم وأخرى لمبيت العبيد، ولسيد المنزل المكان الأعلى، وجدران المنزل في العادة تقام من مادة صلبة تشبه الفخار الناعم الملمس ويميل لونها الى الحمرة، والسقف من عرائس منحنية ومتجاورة الى خارج حدود الجدران على النحو المعتاد في المناطق المغاربية والبربرية[1].

أما ملوك البرنو فقد سكنوا في قصور بنيت من الطوب المحروق أي الطوب الأحمر، وكانت هذه القصور من طابقين تحاط بأسوار ضخمة، وكانت هذه القصور على هيئة قبة مربعة الشكل، وهنا يظهر التأثير الخارجي في شكل البناء في المملكة لان بناء القباب ذات الشكل المربع لم يعرف في منطقة السودان الأوسط ولا السودان الغربي، حتى مجيء المهندس المغري ابي إسحاق الطويجن الذي بنى للملك قصرا تزينه قبة مربعة الشكل وزخرفه بالوان عديدة فجاء القصر غاية في الجمال والروعة المعمارية[2]، ونظرا للصلات الثقافية والتجارية القوية بين المملكتين انتقل هذا النمط الى مملكة البرنو.

وقد استخدم سكان البرنو ريش النعام في حشو المقاعد وفرشت الأرض بالحرير وهو دلالة على مدى الثراء والرفاهية التي عاش فيها هؤلاء الملوك، فكانت لهم الهيبة في نفوس شعبهم ولهم المكانة العالية والاحترام من كل من يرد الى القصر من خارج مملكة البرنو[3].

وتنقل لنا المصادر التاريخية استخدام أهالي البرنو أيضا لقرون الغزال والوعول بديلا عن المسامير ، وتوجد متناثرة في الجدران كالمشاجب ويتدلى منها السهام والاقواس والدروع ، ويشتمل المنزل على

1-علي بسيوني: المرجع السابق، ص132.

2-حسن أبو الفضل: المرجع السابق، ص87.

3-فضل كلود الدكو: المرجع السابق، ص282.

حظيرة للجياد والحيوانات الأخرى التي يربيها الفرد البرنوي، وفي القرى البعيدة عن العاصمة توجد أنواع متعددة من المساكن من بينها (كوزي) وهي كوخ صغير من القش، و(بونجو) وهي اكواخ ذات جدران مستديرة من طمي وقش ،و(نجيم كولونبي، وفاتوسوجديبي) وهذين النوعين الأخيرين من اسوء الاكواخ للعيش، مصنوعة من حصير خشن واعشاب ذات سيقان خشبية وبعض الحشائش التي تنبت على شواطئ المجاري المائية.

وتعيش اغلب القبائل المقيمة في الغرب وجنوب برنو في قرى مسورة بأعشاب النباتات، ويبنون اكواخهم في العادة من اخشاب الأشجار، بسبب شيوع الاعمال السحرية بينهم التي تفضي في كثير من الأحيان بالتخلي عن المكان وهجره، ولهذا السبب يعتقد ان القبائل لم تستخدم الطين في بناء اكواخها وكان اثرياء برنو من اهل الحظوة يحصلون على مساند مصنوعة من الجلود يستقدمونها من بلاد النوبة، كما عرف عنهم اقتناء السجاد التركي للنوم والجلوس وللصلاة[1].

وبذلك تنوعت مساكن بلاد البرنو ما بين قصور وبيوت وخيام وأخصاص (اكواخ) وارتبط ذلك بالتفاوت الاجتماعي من حيث المكانة والطبقة الاجتماعية وعامل الغنى والفقر بالإضافة الى تأثير البيئة المحيطة.

أ الاحياء السكنية المغاربية في البرنو:

ان التأثير الاسلامي والمغاربي لم يتوقف عند شكل البناء والمواد الطوبية التي عرفها العرب قبل السودانيين والتي يكون إسحاق الاندلسي الغرناطي قد اوصلها الى هذه الأراضي، بل تجاوز الامر

1- فضل كلود: المرجع السابق، ص133.

ذلك الى إقامة بعض الاحياء العربية في البرنو ونجد من بين هذه الاحياء حي فزان في مدينة كوكا، واحياء غات في زندر، وغدامس في مدينة اقاديس، وأهالي هذه الاحياء على الرغم من انصهارهم داخل المجتمع البرنوي الا انهم لا زالوا يحتفظون بالكثير من عاداتهم وتقاليدهم وصنائعهم، التي قدموا بها مثل صناعة السروج والشاشية[1].

وكانت القبائل المغاربية القادمة من الشمال الى حوض تشاد خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين اقامت احياء رعوية في كل من الكانم-برنو والتي نجد منها حي عرب الشوا في الكانم وبنو حسان في منطقة نهر النيجر، وأهالي هذه الاحياء لازالوا يمارسون حرفة الرعي في المناطق الواقعة شرق النيجر وغرب بحيرة تشاد[2].

2- مظاهر الاحتفال بالمواسم والاعياد:

ترتبط الأعياد في احايين كثيرة بالمعتقدات الدينية لدى المجتمعات والافراد، وهو ما ينطبق أيضا على بلاد كانم-برنو، قبل وبعد انتشار الإسلام، وقد ذكر البكري في معرض حديثه عن الزغاوة وهي أحد أكبر القبائل في حوض تشاد كما مر بنا، انهم كانوا عبدة اوثان تعرف ب الدكاكير[3]، واحتفل الكانميون بصنم (ميون) الذي يرتبط بالنصر على الأعداء لديهم[4].

1-علي خليفة: المرجع السابق، ص142.

2-عمر موسى: العرب وافريقية، مجموعة بحوث، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1989م، ص70.

3-البكري: المصدر السابق، ص172.انظر الملحق...

4-صالح بن يونس: المرجع السابق، ص81.

وبدخول الإسلام وتمكنه من عقول وقلوب أهالي البرنو حلت محل هذه الاحتفالات أعياد المسلمين المعروفة وهي عيدي الفطر والاضحى، يضاف الى ذلك احتفالهم بمولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، حيث يرتدي الناس أحسن الثياب في هكذا مناسبات[1]. وتبدأ احتفالات الكانميين في العادة من ليلة العيد حيث يقضي الناس جزءا من ليلهم في السهر والطرب، وفي أحيان كثيرة يمتد ذلك الى بزوغ الفجر[2].

وقد جرى العرف العام ان يمنح الخدم والحشم قمصانا جديدة في هذه المناسبات، ومن الملاحظ أيضا ان هذه الأعياد كان يحتفى بها في كثير من الابهة والتهويل، ويبدو ان اهل برنو قد نقلوا بعض مظاهر هذه الاحتفالات عن المصريين[3]. وبرغم تمسك الكانميين بأعيادهم الدينية الإسلامية، الا ان ذلك لا يعني بالضرورة تخليهم عن بعض اعيادهم القديمة والتي عرفوها قبل الإسلام، فقد استمرت بعض هذه الاحتفالات كما ذكر بعض الرحالة الاروبيين الذين زاروا برنو في القرن التاسع عشر الميلادي، من ذلك نجد الاحتفال بمواسم الزراعة والحصاد، وانتهاء السنة القديمة (لديهم في سبتمبر) وابتداء اخرى جديدة وغيرها من المناسبات[4].

اما الاحتفالات الدينية في المملكة بعد انتشار الإسلام فقد ظهر فيها التأثير المغاربي جليا وواضحا وأصبحت لا تختلف كثيرا عما تعرفه بلدان العالم الإسلامي الأخرى، فنجد ان الاحتفالات

1-فضل كلود: المرجع السابق ،230.

2-الرباصي: المرجع السابق، ص175.

3-علي بسيوني: المرجع السابق، ص ص149، 150.

4-نفســــــه: ص175.

في العيدين الفطر والاضحى تبدأ من ليلة العيد حيث تعم الفرحة كل ارجاء المملكة ويستمرون في الرقص والفرح طوال الليل حتى بزوغ الفجر، وفي الصباح يلبسون أفضل الثياب ويتوجهون الى المساجد[1].

ونجد من المظاهر الخاصة في الاحتفال بالأعياد في مملكة الكانم رؤية الملك عيانا في يومي العيدين (الفطر والاضحى) حيث ان ملوك الكانم لا يظهرون للناس طوال العام الا في هذين اليومين فيراهم الناس عيانا دون حجاب مرتين صباحا وعصرا[2]، فاذا كان يوم العيد خرج الملك في موكب عظيم الى طرقات المملكة، وامامه الطبول والابواق لكي يشارك اهل المملكة فرحتهم بالعيد ويجلس بعد ذلك الملك في قصره وامامه العبيد يلعبون بالسيوف وبجوار الملك يجلس العلماء وكبار رجال المملكة، ويقوم الملك بتوزيع العطايا على الحاضرين من العلماء والفقهاء وسائر اهل المملكة، وذلك ابتهاجا بفرحة العيد، وتستمر افراح المملكة بالعيد لأيام متتالية[3].

3- دور المرأة في المجتمع البرنوي:

لعبت المرأة البرنوية دورا بارزا في الحياة الاجتماعية والسياسية للمملكة البرنو، ففي الجانب الاجتماعي، قامت المرأة في مملكة البرنو بتولي أمور بيتها، تطحن وتصنع الطعام وتهتم بتربية الأولاد وتحيك الصوف والقطن وتجلب الماء من الآبار كما كانت تهيئ الوقود بجلب الحطب من الغابة، وفي

1-فضل كلود الدكو: المرجع السابق، ص184.

2-شكري **صالح**: **السودان الأوسط مملكة كانم، برنو 1085-1600م**، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2004، 164.

3-حسن أبو الفضل: المرجع السابق، ص103.

القرى تعمل النسوة مع ازواجهن في الحقول، بل ان البعض منهم تولى القيام ببعض الاعمال التجارية[1].

اما سياسيا فيظهر حضور المرأة في ذلك الدور الذي لعبته بعض النساء في تسيير الحكم من خلال النفوذ المخول لهن قانونا او نتيجة لقوة شخصيتهن، ومن أولئك النساء نجد الماجيرا عائشة ام السلطان الوما، والتي تولت العرش وحكمت البلاد لمدة سبع سنوات (1563، 1570م)، وكان على عاتق هذه المرأة أيضا اعداد ابنها وتأهيله لحكم البلاد[2]، ويشير بارث ان هذه الأخيرة هي من أمرت بإرسال سفارة الى طرابلس[3].

لم تكن الماجيرا (والدة السلطان) الوحيدة ذات النفوذ السياسي، بل كانت الى جانبها الزوجة الأولى للسلطان والتي لعبت دورا هاما لا يقل عن دور الملكة الام، حيث كانت تلقب ب (جوسمو) ولها نفوذ قوي يتعدى السلطان نفسه أحيانا، وتأتي بعدها في البلاط السلطاني من حيث الأهمية (الماجرام) وهي المسؤولة عن الاشراف على طعام السلطان وتقديمه له، وتتولى العناية بأبناء السلطان ورعايتهم، وعندما يكبرون يرسلون الى أجزاء مختلفة من السلطنة ولا يسمح لهم بالبقاء في العاصمة الا في حالات نادرة مثل تعرض البلاد للخطر او التهديد[4].

1-محمد الجهيمي: المرجع السابق، ص ص524،525.

2- Palmer ,R, Sudaness memoires, opcit, p42.

3- Barth, H, opcit, 593.

4-حسنين مقلد: المرجع السابق ،75.

4-طبقات المجتمع:

لم يكن نظام الطبقات بارزا وواضحا في المرحلة الأولى من تكوين دولة الكانم-برنو، الا انه وبعد اندماج القبائل واختلاطها بدأت تظهر بعض الملامح التي تبين ان هناك بعض الفوارق الاجتماعية بين هذه الفئات خاصة في المدن والقرى الكبيرة سواءا كان ذلك على أساس مهني ومالي او على أساس علمي، وبذلك أمكننا ان نميز بين الطبقات التالية:

4-1 الطبقة الحاكمة ورجال البلاط:

وتشمل الماي او السلطان الذي كان يحظى باحترام وتعظيم كبير من قبل رعاياه، ويصفه الحموي بان يده مطلقة وكأنه ملكا للبلاد، فهو المتصرف في رعاياه وما يملكون من انعام وماشية ومن خيل واغنام برضىً كامل منهم مستسلمين لقيادته[1]، فلو نظرنا لجلوس الملك على العرش مرتديا أفخم الثياب المطرز بالخز السوسي والديباج الرفيع[2]، وحوله حاشيته وخدمه ينظرون اليه نظرة اجلال وتقدير يتلقون أوامره بالفرح والسرور ويسعون في تنفيذها بكل دقة وإخلاص فأوامر ملكهم مقدسة[3].

اما إذا حدث ودخل أحدا أيًا كان مجلس الماي، فإن على الداخل ان يلقي بنفسه امام الماي ويكب وجهه في التراب ويضرب الأرض بيديه ويضع التراب على جسمه وراسه ليؤكد بذلك تذلله للملك وانه طوع امره، وكانت هذه عادة الدخول على كل ملوك وسلاطين بلاد السودان الغربي

1-الحموي: المصدر السابق، ج3، ص142.

2-ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص195.

3-فضل كلود: المرجع السابق، ص210.

والاوسط قبل تمكن الإسلام منهم، الا انه وبعد انتشاره أصبحوا يكتفون بالتصفيق باليدين عند السلام على الملك او عند دخول مجلسه[1].

وكان لملوك الكانم بعض الطقوس التي تخص حياتهم الخاصة مثل طعام الملك وشرابه، حيث كانت الابل التي تحمل الزاد وما يتعلق بطعام الملك وشرابه تدخل الى قصر الملك سرا، ولعل ذلك ما جعل الشعب الكانمي يتوهم ان الملوك لا يأكلون الطعام، وكان شراب الملك يعمل من الذرة المحلاة بالعسل، كما ملئت قصور ملوك الكانم بالعبيد والجواري فكان الملك يستعبد من يشاء من شعبه، بالمقابل ينظر شعب كانم الى خدمة قصور الملك على انها شرف كبير لمن يحظى بذلك[2]، وقد انعكس الاحترام والتقدير الذي حظي به ملوك الكانم في داخل بلادهم على شخصيتهم في الخارج[3].

وتضم هذه الطبقة بالإضافة الى الماي اسرته وحاشيته، فوالدته كانت تحظى بمكانة عالية كما مرّ بنا، لمشاركتها الشخصية في إدارة الحكم، والى جانب هؤلاء نجد أعضاء مجلس الشورى الاثني عشر، الذين لم تكن عضويتهم محددة بفترة معينة مما مكنهم من جمع ثروات طائلة[4]، فقد كان لأعضاء هذا المجلس مكانة اجتماعية راقية، فهم محل تقدير من كل فئات المجتمع الأخرى لمكانتهم وقربهم من الماي، وكان مايات البرنو يكافئون من يرضون عنه من حكام الأقاليم ومستشاري الماي بأن يهبوهم أراضي كبيرة

1-حسن أبو الفضل: الحياة الاجتماعية في مملكة الكانم، رسالة دكتوراه الفلسفة في الدراسات الافريقية من قسم التاريخ، القاهرة 2016 م، ص63.

2-حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص554.

3-حسن أبو الفضل: المرجع السابق، ص64.

4-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص156.

من المملكة، وقد أثرت هذه الاقطاعات على وضعهم الاجتماعي فاصبحوا من اغنى الفئات الاجتماعية في المملكة، إضافة الى نفوذهم السياسي[1].

2-4 طبقة التجار والعلماء:

تشكلت هذه الطبقة نتيجة للتأثيرات الاقتصادية والدينية التي عرفتها بلاد الكانم برنو، وتتكون في اغلبها من التجار بالدرجة الأولى خاصة القادمين منهم من بلاد المغرب الذين استقروا بشكل نهائي وقد أشار الوزان الى ذلك في حديثه عن إقليم البرنو بوجود قرى عديدة يسكنها قوم متحضرون وتجار أجانب من السود والبيض[2]، وكان لهذه الطبقة علاقة متميزة مع الطبقة الحاكمة حيث تبادلت الفئتان المصالح، فالأولى وفرت الحماية للتجار وطرق القوافل، وبالمقابل اغدقت الثانية بالهدايا والسلع الثمينة على الحكام وذويهم[3].

وقد مارس التجار عملهم بحرية مطلقة دون قيود فملأوا الأسواق بسلعهم التي تحتاجها كل فئات المجتمع الكانمي، وبذلك اكتسبوا احترام الجميع وأصبحوا ضمن أرقي فئات المجتمع مكانة ورقيا[4]، وهذا الاهتمام من قبل ملوك المملكة لم يحظى به التجار المحليون فحسب، بل يظهر ذلك أيضا في الرسالة التي بعثها الماي الى تجار توات يحثهم ويترجاهم فيها من اجل العودة الى بلده.

1-فضل كلود: المرجع السابق، ص222.

2-حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص176.

3-الرباصي: المرجع السابق، ص182.

4-حسن ابوالفضل: المرجع السابق، ص78.

اما فئة العلماء فقد حظيت بالتقدير والتبجيل والاحترام، خاصة في ظل حاجة الحكام الى مستشارين وفقهاء يساعدونهم في تسيير أمور دينهم ودنياهم، وقد برز كثير من العلماء ممن كان لهم ارتباط ببلاط الحكم في الكانم-برنو، ويأتي على رأس هؤلاء (محمد بن ماني) الذي لعب دورا هاما في نشر الإسلام في أوساط الاسر الحاكمة، والى جانبه نجد (محمد بن مسبارمة بن عثمان) الذي استقر في البرنو أيام الماي علي حاجي (881-909هـ/1476-1503م) وأصبح وزيره ولازمه ليل نهار[1]. ومما يؤكد الحظوة التي نالها العلماء في بلاط الكانم-برنو صدور ما يعرف بالمحارم كتكريم من الحكام لهؤلاء العلماء واولادهم من بعدهم[2].

3-4 قادة الجيش والجنود:

نظرا لأدوارهم المتعددة في حماية حدود الدولة والزود عن حماها ومكانتهم الكبيرة اهتم ملوك الكانم بقادة وجنود جيش المملكة حتى يضمنوا ولاءهم من جهة ويأمنوا جانبهم من جهة أخرى، فمن مظاهر اهتمام مايات البرنو بقادة الجيوش ان أسندت اليهم إدارة الأقاليم يقابل ذلك خضوعهم التام للماي، ومما يظهر أيضا اهتمام المايات بقادة الجند انهم لم يحددوا لهم رواتب معينة لقادة الجيش او للجنود، بل اغدقوا عليهم الأموال فمنحوهم اقطاعات كبيرة من الأراضي الزراعية التابعة للملكة حتى يزرعوها ويعيشوا من انتاجها، وبذلك استثمر القادة هذه الأراضي بتشغيل الفلاحين في زراعتها مقابل

1- Palmer, The Bornu Sahara and Sudan, p14.

2- انظر الملحق، رقم11.

الخمس او مقدار معين من المحصول، وهذه الاقطاعات جعلت قادة الجيش والجنود من الفئات الغنية في المجتمع الكانمي[1].

وقد تشكل هذا الجيش من مختلف الفئات والقبائل، كلا حسب مقدرته وبراعته في فنون القتال المختلفة، فتشكل اغلب سلاح الفرسان من قبائل الكانوري والكانمبو، وذلك لخبرتهم الكبيرة بفنون الفروسية التي تعلموها بدورهم من عرب الشوا[2]. اما قبائل التيبو فشكلوا سلاح الرماة فهم ذو حذق ومهارة فائقة في الرمي وكذلك السكين الراشقة[3].

وبفضل الخيول العربية التي تم جلبها من بلاد المغرب طور الكانميون جيشهم بالرغم من ارتفاع أسعارها، وكان الكانميون قبل ذلك يستخدمون البقر في القتال نظرا لصعوبة تأقلم الخيل والجمال مع طبيعة مناخهم الصعبة وبيئتهم التي تكثر بها الحشرات القاتلة.

لقد انعكس الاهتمام البالغ الذي حظي به جيش وقادة البرنو ان جعل منهم مضرب المثل في القوة والشجاعة، لذلك تسيد هذا الجيش جيوش بلاد السودان الغربي والاوسط طيلة القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين[4].

1-حسن ابوالفضل: المرجع السابق، ص74.

2-Lange, D, Progress de l’islam et changement politique au Kanem du X1 au X111 siècle, vol 19, 1978, p115.

3-حسن ابوالفضل: المرجع السابق، ص75.

4-Palmer, The Bornu Sahara and Sudan, op cite, p15.

4-4 الطبقة العامـــــــــة:

تتكون من صغار التجار والحرفيين والمزارعين والرعاة، ولم تكن الفئات المشكلة لهذه الطبقة بنفس المستوى المعيشي تبعا للظروف الاقتصادية والاجتماعية للمملكة، والمؤثرة على المهن التي احترفوها، يضاف الى ذلك ان هذه الطبقة عرفت حركة تصاعدية بفعل انتقال التجار الصغار الى كبار التجار وبالتالي فهي طبقة غير ثابتة الا اننا نجدها تشكل غالبية المجتمع البرنوي.

وقد كان للحرفيين حياتهم الخاصة داخل المجتمع الكانمي، حيث عاشوا في شكل طوائف ولكل طائفة مسؤول ينوب عن الطائفة لدى بلاط الملك، وكانت مهمة النائب هي المطالبة بحقوق طائفته فهو بمثابة الوسيط بين الحرفيين ورجال البلاط، كما كان لكل طائفة طقوس اجتماعية واعتقادات معينة، فتمثيلا لا حصرا لا يتزوج الحرفيون الا من أبناء وبنات طائفتهم[1].

ولم نعثر للحرفيين على دور في الحياة السياسية لبلاد البرنو، اذ لم يكن لهم اية مطالب خاصة من السلطة سوى توفير الامن لتتمكن كل طائفة من مزاولة عملها والابداع في ذلك وسط مجتمع آمن يسوده الامن والاستقرار، وقد ارتبطت هذه الفئة بغيرها من الفئات ارتباط مصلحة يحقق التكامل بين افراد المجتمع فلا غنى لأي فئة عن باقي الفئات.

ان التأثير المغاربي العربي على مجتمع الكانم برنو يبدو واضحا وجليا في نظام الطبقات الاجتماعية فباستثناء الطبقة الحاكمة المتعارف عليها في كل العصور والازمنة والمجتمعات، فان باقي الطبقات يتوقف ظهورها وتكوينها على العناصر المغاربية، فطبقة التجار تعود أساسا الى الحركية

1-حسن ابوالفضل: المرجع السابق، ص81.

التجارية للمغاربة اتجاه بلاد البرنو، ونجد ان اغلب العلماء والفقهاء يعودون الى أصول عربية او بربرية، وهم بالأحرى من نقل ذلك التبجيل والتعامل الراقي الذي حظي به العالم وكيف وجب علينا ان نوفر له ما يغنيه عن لقمة العيش[1].

وبذلك أمكننا ان نعبر عن الحياة الاجتماعية لبلاد الكانم–برنو على انها انعكاس للحياة الاجتماعية في بلاد المغرب بحكم العلاقات المتعددة والاحتكاك المباشر بين المنطقتين، حيث أسهم ذلك في مرور مختلف المؤثرات الاجتماعية من عادات وتقاليد واحتفالات ولباس وغيرها.

ثانياً: ملامح التأثير في الحياة الثقافية:

بالعودة الى مختلف المؤثرات التي مرت بنا نجد ان المؤثر الثقافي والعلمي يأتي على راس هذه المؤثرات باعتباره المتحكم الأساسي فيها، وهو المعيار الذي من خلاله نقيس مدى تأثر مجتمع بآخر خاصة اذا علمنا ان الحاضن لهذه الثقافة هو الإسلام، فالإسلام نقل هذه المجتمعات من البدائية الى طور الحضارة، جاعلا منها مجتمعات ذات رصيد ثقافي وحضاري، نلمسه في مواطن كثيرة علمية ودينية ولغوية، فاين تجلت مظاهر هذا التأثير؟

1– الحركة العلميـــــــــــة:

لم تحدثنا المصادر التاريخية عن وجود نماذج للتعليم او التكوين في ممالك بلاد السودان ومن ضمنها مملكة الكانم–برنو، خاصة اذا علمنا ان كتابة تاريخ هذه المناطق أصلا يرتبط بوصول الإسلام، فبفضل الإسلام تمكن أهالي الكانم–برنو من تعلم القراءة والكتابة لان هذا الدين اوجب

1–الرباصي: المرجع السابق، ص184.

على من يدخله، ان يتعلم فلا يمكن الصلاة بغير القرآن، ولا يمكن قراءة القرآن بغير اللغة العربية، ونظرا لهذه الأهمية البالغة نجد ان ملوك الكانم برنو لم يدخروا جهدا في سبيل التشجيع على التعليم الديني خاصة والحث عليه والترغيب فيه، بل الأكثر من ذلك كله ارسال الطلبة الى المعاهد الكبرى في الشمال الافريقي كالأزهر والقيروان والقرويين وتلمسان[1].

وفي الفترة السابقة لهذه الدراسة تنقل لنا المصادر التاريخية الدور الذي لعبه العالم العربي محمد بن ماني الذي اقنع خمسا من مايات البرنو بالدخول الى الإسلام وعلمهم آيات من القرآن، وكافأ هؤلاء الحكام بدورهم محمد بن ماني بمنحه امتيازات مادية كبيرة اشتملت على الابل والقطع الذهبية والعبيد، الا ان التكريم المعنوي الأهم هو المتمثل في اصدار الماي اومى جلمى (478_491هـ/1085-1097م) اول محرم في سلسلة المحارم التي أصدرها مايات الكانم-برنو لحماية حقوق العلماء ، واخر هذه المحارم ، المحرم الذي أصدره ادريس الوما في حق العالم نور مختار[2].

وبرغم تعدد واختلاف صور هذه المحارم الا انها حملت هدفا واحدا يتمثل في المحافظة على الامتيازات الممنوحة لهؤلاء العلماء ولأبنائهم من بعدهم مع اعفائهم من الضرائب المفروضة على بقية الفئات، ولعل ما يؤكد تلك الصلة الوثيقة بين الحكام والعلماء في دولة الكانم-برنو ان كثيرا من هؤلاء العلماء اصبحوا ملازمين للبلاط بشكل دائم، مبشرين ومنذرين لهم فيما يسود به الحكم والعدل، ومن بين هؤلاء العلماء محمد بن مسبارمة بن عثمان الذي مر بنا، والذي استوطن الكانم أيام الماي علي

1-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص68.

2-الرباصي: المرجع السابق، ص 187. انظر أيضا علي يعقوب: الثقافة الإسلامية في مملكة برنو الإسلامية، مجلة قراءات افريقية، ع5، يونيو 2010م، ص22. انظر الملحق، رقم

حاجي ، واضحى وزيره الأول ولازمه ليل نهار، وكان مجيء هذا العالم بدعوة من الماي علي عندما تناهى الى اسماعه تضلع هذا الأخير في علوم الشريعة حيث عينه اماما لمسجد القصر لتعليم اهله وأولاده[1].

يضاف الى من اشرنا اليهم من علماء البرنو خلال هذه المرحلة الامام احمد بن فرتو او فرطو الذي عاصر السلطان ادريس الوما، ويعد مؤلفاه (غزوات السلطان ادريس الوما) و(كتاب شان برن) اهم مصدرين يمكن الرجوع اليهما حتى مطلع القرن السابع عشر الميلادي، وقد تم ترجمتهما للإنجليزية من قبل ريموند بالمر ووضع لهما عنوان مذكرات سودانية سنة 1928م. وكان هنري بارث الرحالة الألماني اول من لفت انتباه الباحثين لهاتين المخطوطتين، وتطلعنا مجمل الروايات التاريخية ذات الصلة بالبلاط البرنوي، على ان ابن فرطو كانت له مكانة مرموقة بين رجال السلطان وبطانته، وتتجسد هذه المكانة في امامته للسلطان الوما وحاشيته في الصلوات الخمس، ومرافقته في غزواته، ولا يخفى على احد ان المكانة العلمية لابن فرطو ومعرفته بشرائع الإسلام فضلا عن درايته بالحديث النبوي والسنة المطهرة ،كانت كفيلة لان تنزله تلك المنزلة لدى السلطان الوما[2].

ومن علماء البرنو المشهورين الشيخ ابوبكر الباركوم الذي وصفه الشيخ محمد بلو بقوله" كان الشيخ عالما بالمنقول والمعقول صالحا تقيا بارعا والحاصل انه بلغ مبلغ الرجال"[3]، وللعالم تآليف عدة

1-فضل كلود: المرجع السابق، ص161.

2-احمد الشكري: الذاكرة الافريقية في افق التدوين الى غاية القرن 18م، منشورات معهد الدراسات الافريقية، الرباط 2010م، ص200.

3-محمد بلو: المرجع السابق، ص56.

منها نظمه على الكبرى وشرحه، ومنار الجامع في علم التصريف، وله عديد القصائد في نصح الامراء والحكام، ومنها قوله للسلطان معاتبا له لما اغلق دونه الباب بفعل وشاية الحساد

اتركت بابا لا يحد مسافـــــــــة واتيت بابا سده بواب

باب يقول فلا تلج وتول مـــــــن بخل وكل ضم هذا الباب.

ونجد الى جانب من تم ذكرهم الشيخ محمد البكري الذي وصفه محمد بلو بقوله "من علماء هذا البلد كانم الامام العالم العلامة المتقن الفهامة شيخ الشيوخ محمد البكري اخذ العربية والبلاغة..."[1]، والشيخ عمر بن عثمان كان في زمن ماي علي بن الحاج (1544-1580) الذي وصف في المحرم الذي خلده بانه عالم واسع الاطلاع غزير العلم والمعارف، اتقن اللغة العربية والمنطق والبلاغة والشريعة والتوحيد فضلا عن القران والحديث[2].

2-النظام التعليمي وتأثره بالبلاد المغاربية والعربية:

2-1 المراكز التعليمية:

أ- المساجد:

يعد المسجد الركيزة الأولى في التكوين والتعليم الديني والدنيوي في بلاد البرنو وغيرها من بلاد السودان الغربي والاوسط، فهو يعنى أساسا بتدريس القران الكريم وقواعد الصلاة وكيفية الكتابة وتدريس كتب التوحيد وبعض كتب التصوف وغيرها، ويذكر المستشرق الإنجليزي ترمنجهام عن دور المسجد ببلاد الكانم قوله" ان من ابرز خصائص انتشار الإسلام وثقافته في غرب افريقية... هي التعليم المسجدي

1-محمد بلو: المصدر السابق، ص38.

2-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص177.

او التعليم في المساجد، وذلك في الخطوات الأولى التي يقوم بها انصار الدعوة الإسلامية، وهذا النوع من التعليم هو الذي اتبعه سكان كانم منذ اعتناقهم لهذا الدين"[1].

وكانت مادة البناء الأولى في البداية من الحجارة والخشب والطوب اللين، وهي تشكل مواد البناء المعروفة والمتوفرة آنذاك لدى الكانميين في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، اتسمت بالتصميم المتقن والبساطة في الشكل[2]، وفي فترة حكم السلطان الوما عرفت مساجد بلاد البرنو تطورا واضحا بإدخال مادة الطوب المحروق في البناء، كما اخذت المآذن الشكل الهرمي في البناء، وقد امتزج بذلك الطابع الاندلسي المغاربي مع فن البناء الافريقي في ظهور الشكل النهائي للمساجد، فمنها ما بني على شكل مستدير يشبه الكوخ، ومنها ما كان مربعا، ومنها ما كان مستطيلا[3].

لم تطلعنا المصادر المحلية او العربية على مساجد بعينها يشار اليها بالفضل والتأثير فاقت غيرها كما عرفت بلاد السودان الغربي في صورة مسجد سنكرى، لكن ما يمكن الوقوف عليه في هذا الشأن ان عملية بناء المساجد عرفت انتشارا كبيرا في ظل حكم السلطان الوما الذي اهتم ببنائها وانتقاء خير الائمة للقيام بأمرها.

وبالرغم من بساطة شكلها ومادة تكوينها وكونها مغمورة وغير معروفة لدى المصادر التي كتبت عن بلاد البرنو، فانه وبفضل هذه المساجد عرفت المملكة مجموعة من العلماء والمشايخ اناروا طريق العلم والدعوة في بلاد البرنو بشكل خاص والسودان الأوسط بشكل عام.

1-Trimingham, a history of islam in West Africa, op.cit, p159.

2-فضل كلود الدكو: المرجع السابق، ص156.

3-نعيم قداح: افريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق، ص32.

ب-المسيج[1]:

من اهم وابرز الأماكن التعليمية في بلاد الكانم-برنو المسيج او المسج واللفظ اصله مسيجد تصغير لكلمة مسجد، ثم حذفت منها الدال ربما بحكم اللهجات المحلية، وهو في اصل تشكيله الاولي بني لتعليم وتحفيظ القران الكريم في القرى الصغيرة او في منازل البدو الرحل ومضارب خيامهم[2]، وقد لعب المسيج دورا هاما في عملية تعليم النشء في السودان الأوسط فهو بمثابة المسجد في القرى الصغيرة التي لا تحتوي على مساجد جامعة، كما كان يجتمع فيه اعيان القرية وعقلاء القوم للتشاور في الأمور الخاصة والعامة كفض النزاعات والخصومات بين القبائل فضلا عن إقامة الصلوات[3].

ج-الكُتّاب:

من أماكن التعليم المعروفة في بلاد البرنو وسائر البلاد الإسلامية "الكتاب" الذي تعود جذوره الأولى الى صدر الإسلام، وللكتاب دور مماثل الى حد كبير للمسيج في القرى والمدارس، فكان الأول "الكتاب" يحوي الطلاب في سن مبكرة، حيث يبدأ الطالب يومه بحفظ جزء من القران الكريم، ثم يتبعه بالنسخ والكتابة ليقوم بعد ذلك بتجويد ما حفظ بالتلقين الى وقت الظهيرة، ثم يعاود القراءة

1-المسيج: في عرف اهل البرنو عبارة عن ارض فضاء تحاط بسياج من سعف النخيل او القصب او بعض اغصان الأشجار ويكون غالبا في القرى او منازل البدو الرحل، ولبساطة تكوينه وتركيبه سهل ذلك إمكانية نقله من مكان الى اخر، ويستغل لتعليم الأطفال القران الكريم، انظر الرباصي: المرجع السابق، ص198.

2-فضل كلود الدكو: المرجع السابق، ص157.

3-صالح بن يونس: المرجع السابق، ص28.

من بعد صلاة الظهر الى صلاة العصر، فيأخذ استراحة قصيرة ليعود بعدها للمدارسة والمذاكرة حتى صلاة العشاء، وذلك دأب معلميهم واساتذتهم ايضا[1].

2-2 النظام التعليمي:

لم تخرج دولة الكانم–برنو عن النظام التعليمي والمؤسساتي الذي عرفته بقية البلاد الإسلامية المغربية منها والمشرقية، وحتى الممالك السودانية المجاورة، خاصة ما تعلق منه بكيفيات التعليم ومراحله المختلفة، والكتب المدرسة للطلاب والمؤسسات المخصصة لهذا التعليم من المساجد والكتاتيب والمسيج وغيرها.

فكانت البداية تقوم على تلقي الصبي المتعلم للمبادئ الأولى بقراءة القران وحفظ بعض سوره القصيرة متزامنة بتعلم بعض قواعد اللغة العربية، لينتقل بعد سنوات من الدراسة في المسيد او المسيج (الكتاب) الى المساجد وكان الطالب يتلقى فيها جميع العلوم العربية والإسلامية النقلية منها والعقلية مثل التفسير والحديث والفقه والنحو والصرف والبلاغة والبيان والمنطق والتاريخ وغيرها من المعارف التي تشكل الدعائم الأساسية للحضارة الإسلامية[2].

وقد حرص ملوك الكانم–برنو ببناء المساجد في بلادهم نظير وظائفها المتعددة من نشر الدعوة الى تعليم القرآن والصلاة،[3] وتذكر المصادر ان اول مسجد تم بناءه في دولة الكانم أقامه دونما بن

1–فضل كلود الدكو: المرجع السابق، ص164.

2–سعديوه بن محمد: **التواصل الحضاري بين العرب والأفارقة مقاربة لبعض ملامح التبادل،** مجلة دراسات موريتانية، ع03، مارس2014م، ص113.

3–عبدالعزيز العبيدي: انتشار الإسلام في إقليم كانم، مجلة دراسات افريقية، ع46، السنة27، ديسمبر2011م، ص50.

اوم(491-545هـ/1097-1150م) شرق بلاد الكانم، وبنى الماي عبد الجليل سالما (591-617هـ/1194-1220م) مسجدا عظيما واستعمل الاجر المحروق في بنائه[1]. وازداد عدد المساجد أكثر في عهد دونمه دبالمي(618-657هـ/1221-1259م) الذي عرف بدوره الكبير بنشر الإسلام في المناطق الوثنية والجنوبية[2]. كما اهتم ادريس الوما، بالإكثار من بناء المساجد التي استعمل الطوب المحروق في بنائها ايضا[3].

ومن الأماكن الهامة التي درست فيها العلوم الإسلامية والآداب في كانم-برنو منازل العلماء وقصور الحكام، اذا ان الكثير من علماء البرنو كانوا يلقون دروسهم في منازلهم وذلك نظرا لقلة المساجد او مواقفهم من الامراء والحكام، وهناك من الامراء من اتخذ لنفسه واهل بيته من يقوم بتعليمه في قصره[4]، ومن العلماء الذين درسوا في قصور السلاطين الامام "عبدالله دكي بن يكورو"، وقد تتلمذ على يديه السلطان "نجا لمادوكو"، الذي حكم الفترة ما بين (1196-1221م)، ويقال ان هذا العالم درس السلطان مائة وخمسين كتابا من كتب الفقه والشريعة والآداب[5].

وأورد لنا بالمر في "تاريخ البرنو والسودان" قصة العالم عمر بن عثمان المشهور ب"مسبارما" في زمن السلطان علي بن ادريس الذي حكم الفترة (1545-1546م)، حيث سمع هذا الأخير بقيمة ومكانة العالم مسبارما فارسل في طلبه، واستقدمه من بلدته في "ديف" الى قصره واعجب به كثيرا

1-صالح بن يونس: المرجع السابق، ص67.

2-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص72.

3-صالح بن يونس: المرجع السابق، ص91.

4-فضل كلود: المرجع السابق، ص159.

5-palmer, op cit, p546.

وجعل منه اماما لمسجده بالقصر ليصلي بحاشيته واهل بيته، ولتعليم أبنائه وتنشئتهم على أسس الشريعة والدين القويم[1]. ونقل الينا بالمر دائما ان عدد من كان يصلي وراء هذا العالم في مسجد القصر تجاوز السبعين بينهم النساء والجواري وذلك في عاصمة الملك "غسرغمو"، وبذلك أصدر السلطان حرما يجعل أملاك هذا العالم والامتيازات التي حظي بها في حرمة لا يعتدي عليها أحد، وتسري هذه الامتيازات على ذريته من بعده[2].

اما ما تعلق منه بفترة الدراسة فلم يكن هنالك زمن محدد لبدء الدراسة والانتهاء منها، بل كانت تخضع خضوعا تاما للمعلم او الشيخ حسب ظروفه المعيشية، فالمعلم الذي يعتمد على فلاحة ارضه في اعالة اهله يبتدأ تعليمه وتدريسه بعد الانتهاء منها، ونفس الامر نجده عند العالم التاجر وغيره، في حين نجد ان العلماء الذين حظوا برعاية الملوك والامراء أكثر انتظاما في شؤونهم التعليمية مقارنة بغيرهم من الطوائف[3].

والبرنامج التعليمي المتعارف عليه الذي غلب على بلاد الكانم كغيرها من بلاد السودان الغربي والاوسط هو ان الدروس كانت تستمر اغلب اليوم عدا أوقات الصلوات، وكان البعض من الشيوخ والمعلمين لا يجدون اوقاتا بالنهار لانشغالهم بأسباب العيش كما أشرنا سلفا، يعلِّمون في الليل على ضوء نار الحطب الذي يجلبه التلاميذ من الخلاء او الغابة نهارا، تماما كما كانت تعرفه بلاد المغرب[4].

1-palmer, opcit, p547.

2-انظر الملحق رقم11.

3-فضل كلود: المرجع السابق، ص 166.

4-نعيم قداح: المرجع السابق، ص142.

3-2 تأثير اللغة العربية:

اللغة وسيلة الاتصال الأولى بين الشعوب والوعاء الذي يوحد مختلف المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي المساهم الأول في نقل التجربة الحضارية من مكان الى اخر، وفي الممالك الافريقية الإسلامية ومنها مملكة البرنو نجد ان الإسلام والعربية شكلا خطا متوازيا في الانتشار، فاللغة العربية هي الرافد الأول للإسلام، ومن دونها لا يمكن فهمه، ولا قراءة القرآن ولا إقامة الصلاة، وبذلك نستطيع القول ان تعلم اللغة العربية اوجب من واجب، وسلاحا لا غنى عنه لمن يريد الدخول لهذا الدين او المساهمة في نشره.

ولذلك عم التعريب بلاد الكانم–برنو فظهر في النسب واللغة والتاريخ، وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، كما انها لغة العلم والثقافة[1]، وحظي العلماء والفقهاء الذين تعلموا في البلاد العربية بمكانة مرموقة لدى الحكام وعامة الناس ومنحوا الامتيازات الكبيرة كما أحاط الملوك أنفسهم بمن يفقهون اللغة العربية وعلومها، وغدت هذه الأخيرة لغة المكاتبات الرسمية للدولة، ومنها المراسيم والمحارم الحكومية التي تحوي تعيين الائمة والقضاة ورجال الإدارة في مناصبهم تصدر باللغة العربية[2].

لقد كانت اللغة العربية إضافة الى المكاتبات الرسمية لغة التعليم فضلا عن كونها لغة المعاملات التجارية، وقد بلغ الأسلوب العربي درجة كبيرة من الرقي كما يظهر في المؤلفات التي كانت تصدر وفي المكاتبات والسفارات الرسمية لحكام البرنو، وهو ما نلمسه في مراسلات مايات البرنو التي

1-كرم الصاوي باز: المرجع السابق، ص346.

2-عبد العزيز العبيدي: المرجع السابق، ص53.

كانت تصدر باللغة العربية فقد أورد القلقشندي نص كتاب من ملك البرنو وكانم عثمان بن ادريس (794-828هـ/1392-1424م) الى السلطان المملوكي الظاهر برقوق (784-801هـ/1382-1399م) وذلك سنة اربع وتسعين وسبعمائة وكان بالخط العربي ويحتوي على مصطلحات وصيغ واوصاف بلغة عربية فصحى، يقول في مطلع الرسالة " الحمد لله الذي جعل الخط تراسلا بين الاباعد، وترجمانا بين الأقارب ومصافحة بين الاحباب، ومؤنسا بين العلماء".

ونفس القوة من اللغة والأسلوب السليم ودقة التعبير، مع الاستلهام بآيات القران الكريم والأحاديث النبوية نجدها عند رسائل ادريس الوما الى المنصور السعدي بهدف مبايعته والحصول على مساعداته سنة990هـ/1582م[1]، ولم يقتصر الامر على اللغة فحسب بل نجد ان هذه المراسلات كتبت بالخط المغربي وهو المعتمد في الكتابة لديهم، وهو ما يؤكده القلقشندي بقوله " ان كتابهم بالخط العربي على خط المغاربة"[2].

الا انه وبالرغم من المكانة التي بلغتها العربية لدى أهالي البرنو فان ذلك لا يعني بالضرورة تمكن الجميع من نطقها والتعامل بها، فهناك الأساليب الركيكة والبسيطة التي يصعب فهمها واستيعابها نظرا لعسر الاعاجم عامة والأفارقة بالأخص في النطق السليم للغة الضاد[3].

ويشير بارت في الفترة الحديثة (زيارته لبرنو كانت مابين1851/1855م) الى انه في الكثير من مناطق وسط افريقيا التي يشكل المسلمون غالبية سكانها تحولت اللغة العربية الى لغة عامية، بينما ظل

1-الفشتالي: المصدر السابق، ص61.

2-القلقشندي: المصدر السابق، ج8، ص119.

3-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص176.

استخدام اللغة العربية الفصحى للأغراض الرسمية والدينية، كما يتناول بارت دائما ظاهرة الاعداد العربية في بعض اللغات المحلية ومنها لغة الكانوري انهم يستخدمون العدد العربي (ميه) بشكل عادي دون الحاجة الى الكلمة القديمة عندهم (بيرو) التي تعني مائة، ومن التعابير العربية المتداولة في التجارة نجد ذراع و ودع وغيرها من التعابير التي تمثل وسائل الدفع والمقايضة[1].

لقد وجدت اللغة العربية مكانتها الطبيعية في الامة التشادية ورسخت وتوطدت جذورها، وانبثقت عنها لغة عربية محلية، وهي العربية البدوية التشادية (اندقو وحقونا) وعربية عامية تشادية يفهمها كل مواطن تشادي، اصهرت هذه اللغة الفصيحة في كيان هذا الشعب وشخصيته وابعاده الفكرية والتواصلية، بل في كل المجالات الحيوية وعلى جميع المستويات، وارتبطت بطموحات واهداف وغايات اقتصادية وسياسية وتربوية وثقافية وحضارية ارتباطا وثيقا، جعل منها جزءا لا يتجزأ من شخصية الفرد البرنوي قديما والتشادي حاليا[2].

4-2 انتشار المذهب المالكي:

ينتسب المذهب المالكي كما هو معلوم للإمام مالك بن انس (93-179هـ/711-795م) ظهر في المدينة المنورة أولا لينتشر في بلاد الحجاز ثم يشق طريقه الى بلاد المغرب عن طريق مصر، وانتقلت تعاليمه من بلاد المغرب الى افريقيا جنوب الصحراء ومنها بلاد السودان الأوسط كنتيجة حتمية للروابط القوية التي تربط المنطقتين كما مر بنا سلفا.

1-محمد صالح أيوب: المرجع السابق، ص ص35،36.

2-محمد ادم ادريس: اللغة العربية لغة الممالك التشادية، ندوة التواصل، مرجع سابق، ص112.

ويظهر ان حركة القوافل التجارية وارتحال العلماء والطلاب بين بلاد المغرب والسودان الأوسط عاملا رئيسيا في هذا الانتشار، ويؤكد ذلك القلقشندي في سياق حديثه عن كانم بقوله " ان العدل قائم في بلادهم ويتمذهبون بمذهب الامام مالك رضي الله عنه"[1]. ويذكر السعدي أيضا ان الكتب المتداولة في المؤسسات التعليمية في بلاد الكانم يميل اغلبها الى المذهب المالكي ومنها كتب القاضي عياض وموطأ الامام مالك وغيرها[2].

ان انتشار مذهب الامام مالك في بلاد السودان لا يعني بالضرورة عدم انتشار المذاهب الأخرى وبالأخص المذهب الشافعي نظرا لعلاقات المملكة المتميزة بمصر، ولوجود مدرسة خاصة (ابن رشيق) للكانميين هناك حيث يذكر القلقشندي دائما " وسلطان كانم من بيت قديم في الإسلام، وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن وتمذهب بمذهب الشافعي"[3].

5-2 قوافل الحج ودورها الثقافي:

يعد الحج خامس اركان الإسلام، ووجب على المؤمن قصد بيت الله تعالى لمن استطاع الى ذلك سبيلا، ولئن كان أداء الفرض مقدم على كل شيء فانه والى جانب ذلك يعتبر الحج ملتقىً عالميا للمسلمين للتعارف وتبادل الأفكار والثقافات، ولقد اتجه بعض مايات الكانم والبرنو لأداء فريضة الحج بعد اعتناقهم للإسلام مباشرة بهدف تقوية الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية مع

1-القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص281.

2-السعدي: المصدر السابق ،29.

3-القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص271.

مختلف بلاد الإسلام، والأكثر من ذلك نجد ان مايات البرنو ، كانوا يكتسبون صفة الشرعية والسلطة الروحية في بلدانهم بالإضافة الى صفة الهيبة والوقار بين رعاياهم بعد أداء الفريضة .

ويعد الماي اومى جلمى (479-491هـ/1086-1097م) اول سلاطين الكانم توجها لبيت الله وتوفي في طريق العودة بمصر[1]، ويعرف عن ابنه دونمه بن اومى (491-542هـ/1098-1174م) بالأكثر اداء لهذه الفريضة حيث حج مرتين، وكان يترك بمصر ثلاثمائة عبد في كل حجة، وفي الثالثة مات في طريق العودة غرقا بالبحر الأحمر.

لم يقتصر الحج على المايات والسلاطين، بل تبعهم في ذلك ميسوري الحال والقادرين على تحمل تبعات الحج من أهالي كانم-برنو، وما يحمل على دلالة ذلك حاجة هؤلاء الحجاج للإقامة بمصر مما استدعى بناء بعض الفنادق والمدارس ومن بينها مدرسة (ابن رشيق) التي استخدمت للتدريس ولإقامة الحجيج الكانميين عند مرورهم بمصر[2]، وقد تحدث المقريزي عن بناء هذه المدرسة ومواردها المالية فقال "مدرسة ابن رشيق بخط حمام الرستى من مدينة مصر وكان الكانم من طوائف التكرور لما دخلوا مصر في سنة بضع وأربعين وستمائة قاصدين الحج، دفعوا للقاضي علي الدين بن رشيق مالا بناها به ودرّس فعرفت به وصار لها في بلاد التكرور سمعة عظيمة فكانوا يبعثون اليها في غالب السنين

1-الرباصي: المرجع السابق، ص204.

2-فضل كلود: المرجع السابق، ص109.

بالمال"[1]. وذكره لإرسال الأموال من قبل مايات البرنو الى هذه المدرسة طوال السنين يعني ذلك انها لم تقتصر على فترة انشائها وانما استمرت بعد ذلك لسنين طويلة.

وتظهر جهود مايات البرنو في اعانة الحجاج وتعظيمهم لهذه الشريعة بإقامتهم لبعض الدور والفنادق في بلاد الحرمين الشريفين، حيث أقدم السلطان الوما على بناء بعض الفنادق في مكة المكرمة[2].

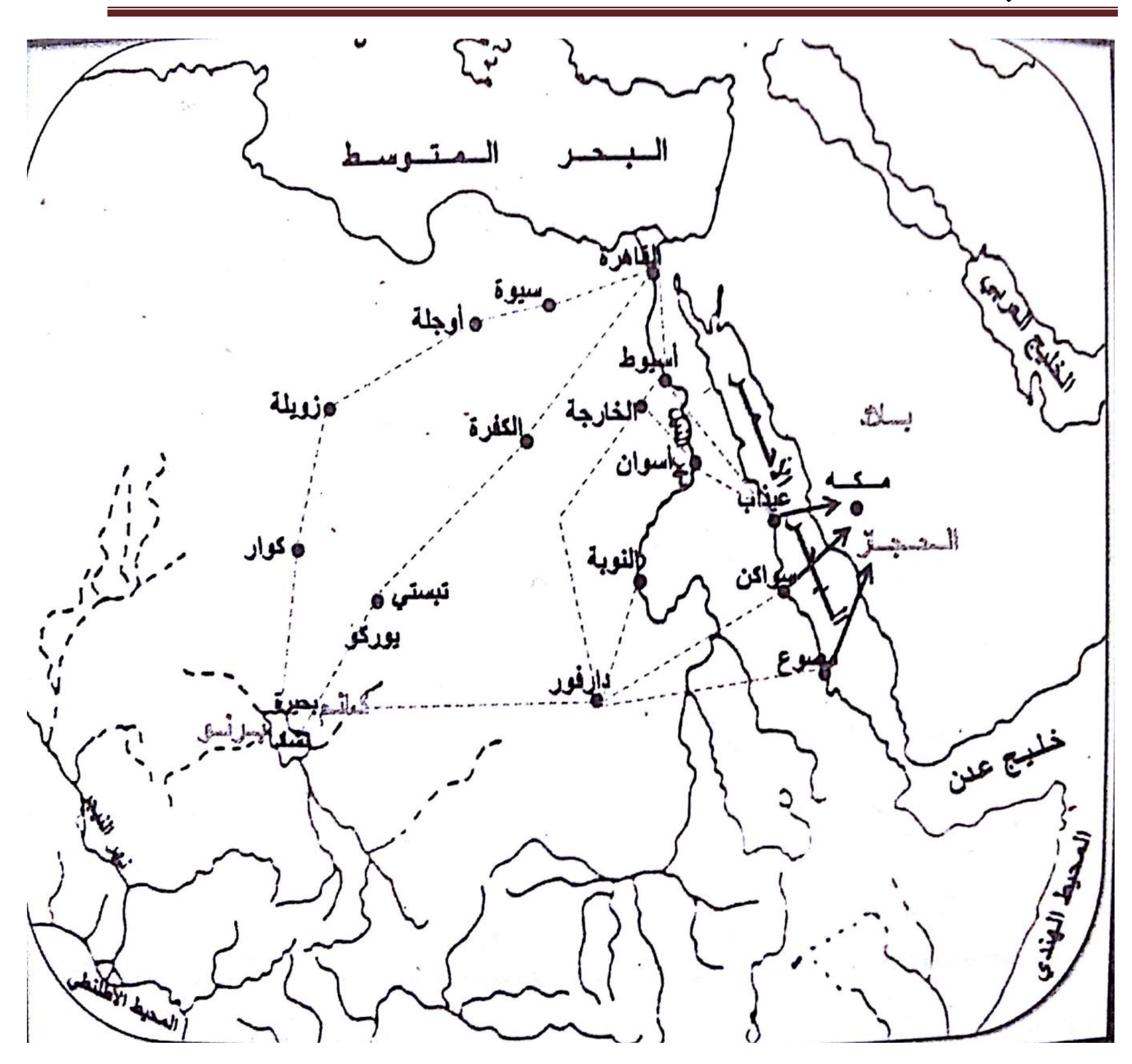
لقد تمكن حجاج الكانم-برنو من توطيد علاقاتهم وروابطهم الأخوية والدينية وحتى الثقافية بفضل التقاءهم مع الحجاج من مختلف بقاع العالم الإسلامي، وليس هناك مجال للشك في ان هذه اللقاءات والحلقات والتجمعات التي كانت تعقد تناولت أوضاعهم الدينية والثقافية والاقتصادية مما يتيح لهم فرص تدارس الحلول والبحث عن قنوات التعاون التي ما فتئت تنتفع بها بلاد السودان ومنها بلاد الكانم برنو.

بقي ان نشير الى ان طريق الحج من كانم-برنو الى بلاد الحجاز كان يتبع في اغلبه طرق القوافل التجارية المعروفة حيث ينطلق الركب من (بلما) ليلتئم بالحج المغربي في واحة (مرزق) مع بقية الحجاج القادمين من بلاد المغرب والسودان الغربي، ليتجه الركب مجتمعا الى مصر ومنه الى بلاد الحجاز[3].(انظر الخريطة الموالية).

1-المقريزي: **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي**، القاهرة، 1955، ص335.

2-فضل كلود: المرجع السابق، ص110. انظر أيضا، احمد شلبي: المرجع السابق، ص293.

3-الرباصي: المرجع السابق، ص207.



خريطة تبين طرق قوافل الحج من برنو الى بلاد الحرمين الشريفين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين[1]

1 – انتصار جابر: المرجع السابق، ص170.

3-العلماء ودورهم الثقافي والعلمي:

لا يمكن باي حال من الأحوال ان نقارن ما بلغه الإنتاج العلمي والثقافي لبلاد كانم ببلاد سنغاي، ولعل حركة التأليف تأتي على راس الأولويات التي تجعل من بلاد كانم وعلمائها غير ذي مكانة في التاريخ الحضاري لإفريقيا مقارنة بتراث تمبكتو وجني وغاو وغيرها، الا ان ذلك لا يمنعنا من ايراد بعض شذرات من العلماء الذي خلفوا بعضا من تراثهم العلمي او سجلتهم لنا المصادر الافريقية والعربية ومن هؤلاء تمثيلا لا حصرا نجد:

أ-محمد البكري:

من أشهر علماء كانم الشيخ محمد البكري، ذكره الامام محمد بللو في كتابه إنفاق الميسور ما نصه" من علماء هذا البلد كانم الامام العالم العلامة المتفنن الفهامة، شيخ الشيوخ ذو الفهم والرسوخ الشيخ محمد البكري، اخذ العربية والبلاغة في مدينة جاندوت وصدر منها عالما متفننا"[1]

و جاندوت هذه تقع الى الإقليم الشرقي من بلاد الهوسا، كانت ذات شهرة كبيرة وبها مدارس كبرى يتولى التعليم فيها العلماء الكبار، ارتحل اليها كثير من الطلاب والعلماء من غرب افريقية، وبها تعلم الشيخ محمد البكري، ولما نال بغيته من العلم عاد الى بلاده وتصدر للتعليم في بلاد كانم حتى وفاته حوالي (905هـ)[2]، وقد خلف العديد من الطلبة الذين حملوا لواء الدعوة والتعليم بعده ومن

1-محمد بللو: المرجع السابق، ص34.

2-لم يذكر لنا محمد بللو الذي ترجم لهذا العالم مسقط راسه ولا تاريخ ميلاده، حيث ذكر انه ولد في إقليم برنو التابع لإمبراطورية كانم الإقليم الذي يقع على الضفة الغربية لبحيرة تشاد.

اشهرهم الشيخ النجيب محمد بن سليمان الفولاني، والشيخ الطاهر بن إبراهيم الفولاني، والشيخ بن اجروم (الباركوم) والشيخ عبدالله مسك البكاوي وغيرهم[1].

ب–ابوبكر الباركوم:

من علماء كانم المشهورين أيضا ابان القرن السادس عشر الميلادي نجد الشيخ ابوبكر الطاهر بن إبراهيم الباركوم يقول عنه محمد بللو انه كان نسيجا وحده عالما بالمنقول والمعقول صالحا تقيا بارعا والحاصل انه بلغ مبلغ الرجال، نشا بموضع يقال له ذات البقر واخذ يتنقل بين مدن غرب افريقية وحواضرها من اجل طلب العلم والاستزادة، تتلمذ على الشيخ يد الشيخ البكري واستفاد من علمه الكثير ثم عاد الى بلاده يمارس مهنة الوعظ والتدريس، ترك بعضا من المؤلفات منها:

ـــ الدرر اللوامع ومنار الجوامع في علم التصريف.

ـــ كتاب نظم على الحكم.

ـــ نظمه على السنوسية الكبرى.

ـــ شرح السنوسية[2].

وللشيخ الباركوم العديد من القصائد في نصح الامراء والحكام، وفي أخرى يصفهم بالظلم والبعد عن الدين، فيقول عنهم انهم ضلوا السبيل وانتشر بينهم الظلم والفجور ويذكرهم بان عقبى هذه الطريق وخيمة، فانشد قائلا:

ان كانوريـــــــــــن كانوا اهل قهر واعتلاء

1–محمد بللو: المصدر السابق، ص41. انظر أيضا فضل كلود: المرجع السابق، ص184.

2–فضل كلود: المرجع السابق، ص185.

الاراجيف لديهـــــــم كأراجيز الثنـــــاء

والأساطير اليهـــــــم من أساطين البنـــاء

والأكاذيب اليهـــــــم من اعاذيب الحـــداء

والأساطير والأراجيـــــز كبساتين الغنـــــــاء

يابنيكانوريـــــــــن هذا من فنـــــون الازدراء[1].

ولئن كانت هذه الابيات ليست بتلك القوة اللغوية، بل وتفتقد الى الكثير من الالفاظ المعبرة عن الوضع الا انها ترسم لنا بعض ما وصل اليه البرنويين من الالمام ببعض فنون الادب ومنها الشعر حتى وان جاءت بتلك الركاكة والضعف في الوصف والتعبير.

ج_ عمر بن عثمان:

عاش الفقيه عمر بن عثمان زمن السلطان علي بن الحاج عمر(1544-1580م) وهو من أصول فلانية ومن كبار العلماء الذين وفدوا الى البرنو قادمين من بلاد فوتا تورو، وتذكر احدى الوثائق النادرة المتعلقة بهذا العالم والتي ترجمها بالمر برفقة المحارم السلطانية، ان عمر بن عثمان من مواطني بلدة" غرمبل"، وان هذا الأخير من قراء القرآن الكريم ومن الراسخين في العلم الى جانب علوم الشريعة الأخرى مثل الفقه والتوحيد واللغة والتصوف وغيرها[2].

وعند حلول هذا العالم ببلاد البرنو وتناهى الى اسماع الناس غزارة علمه وورعه، تقاطر عليه طلاب العلم والمعرفة يدارسونه الفقه ويسالونه عما شكل من أمور دينهم، وأمضى الشيخ في ذلك خمسة

1-محمد بللو: المصدر السابق، ص50.

2-إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص77.

عشر عاما، ثم طلب الاستزادة فرحل الى مصر حيث التحق بحلقات الازهر الشريف ومكث به زمنا اخذ فيه من منابع العلم ومصادره، وبعد فترة من الزمن اتجه من مصر الى بلاد الحجاز ومكث مدة في بلاد الحرمين مكة والمدينة المنورة للتبحر أكثر في علوم الشريعة[1].

وبرجوعه الى بلده استقبله امير مدينة "غسرغمو" بالترحاب واسند اليه امامة مسجد القصر السلطاني، وجعل منه مستشاره الخاص وأصدر في حقه محرما يخصه بالامتيازات الكثيرة ويشمل ذريته من بعده وكتب هذا المحرم السلطاني، كاتب القصر محمد صالح بن العالم اشاركو، وكان المحرم الثالث[2] من نوعه الذي يمنح لاحد افراد اسرة عمر بن عثمان[3].

د_ احمد بن فرتو:

من أشهر علماء ومؤرخي بلاد الكانم-برنو احمد بن فرتوا او فرطوا مؤرخ ومستشار البلاط زمن السلطان ادريس الوما (1570-1603م) لم نعثر على تاريخ ميلاده ولا ما يتعلق بحياته من خلال ما خلف من كتب، وما هو معلوم انه توفي سنة 1583م، اقتصرت اغلب كتاباته على الجانب الحربي والعسكري ومختلف المعارك التي قادها السلطان ادريس الوما، وافرد لذلك كتابا اسماه "تاريخ الاثنتي عشرة سنة الأولى من حكم ألوما" وقد وفقني الله تعالى للحصول عليه والاستعانة به في كتابة ثنايا هذا البحث[4]، وللمؤرخ كتاب آخر اسماه "الحرب بين كانم وقبائل البولالا"، وتمت ترجمة الكتابين

1-فضل كلود: المرجع السابق، ص187.

2 - انظر الملحق رقم 11.

3- palmer, the Bornu Sahara and Sudan, opcit, p156.

4 - انظر الملحق رقم 09، و10.

الى الإنجليزية اول الامر من قبل المستشرق الإنجليزي "رتشمون بالمر" ونشرهما سنة 1926م، ولا غنى لدارس تاريخ كانم في ازهى عصورها من العودة الى الكتابين[1].

وبالرغم من اهتمام ابن فرتو بتسجيل الاحداث التي عاصرها، لم يهتم بالحديث عن نفسه فلم نعرف عنه الا القليل النادر، ويبدو من قراءة الكتابين خاصة الأول منهما ان ابن فرتو تقلب مناصب عديدة في بلاد البرنو غير كونه كاتبا للسلطان، حيث نقف على بعض القضايا والشرائع التي كان يفصل فيها للسلطان في كثير من غزواته الحربية، مما يدل على باعه الفقهي والسياسي، إضافة لكونه كاتبا أولا للسلطان الوما[2].

هـ–ابن يعقوب الكانمي:

لم تسجل لنا عنه المصادر والمراجع التاريخية الا النذر اليسير، واسمه أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الذي دخل على المنصور الموحدي يوما وانشده قائلا

أزال حجابه عني وعيني تراه من المهابة في حجاب

وقربني تفضله ولكن بعدت مهابة عند اقترابي

و–محمد الوالي:

يعرف ب محمد الوالي بن سليمان، من علماء الكانم برنو الذين تبحروا في شتى علوم الشريعة واللغة العربية والآداب لا سيما نظم الشعر، وقد ترك المؤلف من تراثه في علم التوحيد كتاب المنهل،

1-Palmer, the Memoirs, op cit,p15.

2–فضل كلود: المرجع السابق، ص190.

وكذا كتاب الدراية لقراءة النقاية، ونظمه على النقاية للسيوطي، وللمؤلف عديد القصائد الشعرية في التصوف والنصح والإرشاد تداولها العديد من علماء بلاد السودان الأوسط والغربي منها:

أوصيكم يا معشر الاخوان عليكم بطاعة الديان

وانما غنيمة الانسان شبابه والخسر في التواني.

وهي قصيدة من أكثر من أربعين بيتا في الوصايا والزهد والتصوف، ولرفضه لحالة اهل بلده الذين انشغلوا عن الكتاب والسنة، واستغرقوا اوقاتهم في الخرافة والتنجيم والدجل نظم قصيدة ناصحة جاء فيها:

من عذيري من أناس نجموا أفسدوا الدين وأبدوا كل ضر

تركوا علم الكتاب المنـــــزل وحديثا جاء من هادي البشر

وعلوم الشرع والفقـــه التي تنفع المرء وتحميه الخطــــر

صرفوا الهـــــم مكسبهم لحطام زائل لا يستقـــــــر

آثروا الدنيا على اخراهـم لم يبالوا لما يوديهم لضــــر

وعلى افق رووه حيلــــة لاكتساب المال والجاه المضر

جعلوه وصلة تدنيهـــــم لبنى الدنيا فآبوا بضـــــــر

لقبوه علم سر كذبــــوا ماله والسر ولكن علم شر

إنما السر علوم بثهـــــا أولياء الله أصحاب النظر

سلهم هل يعرفون حكمها قد تعاطوه لدى أهل البصر[1].

وبتتبعنا لمصادر تاريخ المنطقة لم نعثر لا على تاريخ ميلاد العالم ولا على وفاته، غير ان بعض المراجع ترجح انه في عاش في القرن الرابع عشر الميلادي، تزامنا وكثرة المشتغلين بعلوم النجوم والفلك حسب هؤلاء المؤرخين[2].

ل-شمس الدين التكداوي:

واسمه الكامل الشيخ النجيب بن محمد شمس الدين التكداوي، شيخ شيوخ زمانه، كما كان يلقب شرح مختصر خليل في الفقه المالكي بشرحين أحدهما في جزأين والثاني في اربة أجزاء، وله أيضا تعاليق وحواشي على بعض الكتب منها "تخميس العشرينيات للفزاري، والمعجزات الكبرى للسيوطي تذكر بعض المراجع ان هذا العالم توفي سنة 1006هـ[3].

ن-الشيخ محمد بن مسني:

تذكر المصادر المحلية ان هذا الشيخ برع في علوم الفقه والشريعة، واخذ العلوم عن ابن الصباغ، ترك مجموعة من التأليف منها، كتاب النفحة العنبرية في شرح العشرينية، وبزوغ الشمسية في شرح العشماوية، وكتاب ازهار في اخبار بلاد يوربا، وان كنا لم نقف من خلال ما توفر لنا من مصادر ومراجع على تاريخ ميلاده فان الألوري يؤرخ لوفاته بسنة 1078هـ[4].

1-محمد بلو: المصدر السابق، ص ص30،31.

2-عبدالله الألوري: **الإسلام في نيجيريا**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2014م، ص259.انظر أيضا فضل كلود: المرجع السابق، ص ص193،194.

3-فضل كلود: المرجع السابق، ص194.

4-عبدالله الألوري: المرجع السابق، ص259.

م-محمد بن عمر البرناوي:

من العلماء المجددين الذين تركوا اثرا بارزا في الحياة الثقافية لمملكة البرنو الشيخ محمد بن عبدالرحمن البرناوي (ت. 1755م) وهو من العلماء الفقهاء المجددين، دعا الى ترك البدعة وإقامة السنة في جميع مناحي الحياة، ومما جاء في بعض قصائده الإصلاحية

أصل الحلال الكسب بالزراعـــة وبالتجارة وبالصناعــــــــة

بورع والصدق في المعاملـــــة والعلم والمطلب والمجاملـــــة

وكل ما من الحقوق انحـــــلا والتبعات ذا الحلال حـــــلا

من حق ربنا وحق غيــــــره بلا تعلق به فاستـــــــدره

أنواع بيت الله خمسة عشـــــر فالجزية الخراج فيء وفـــــر

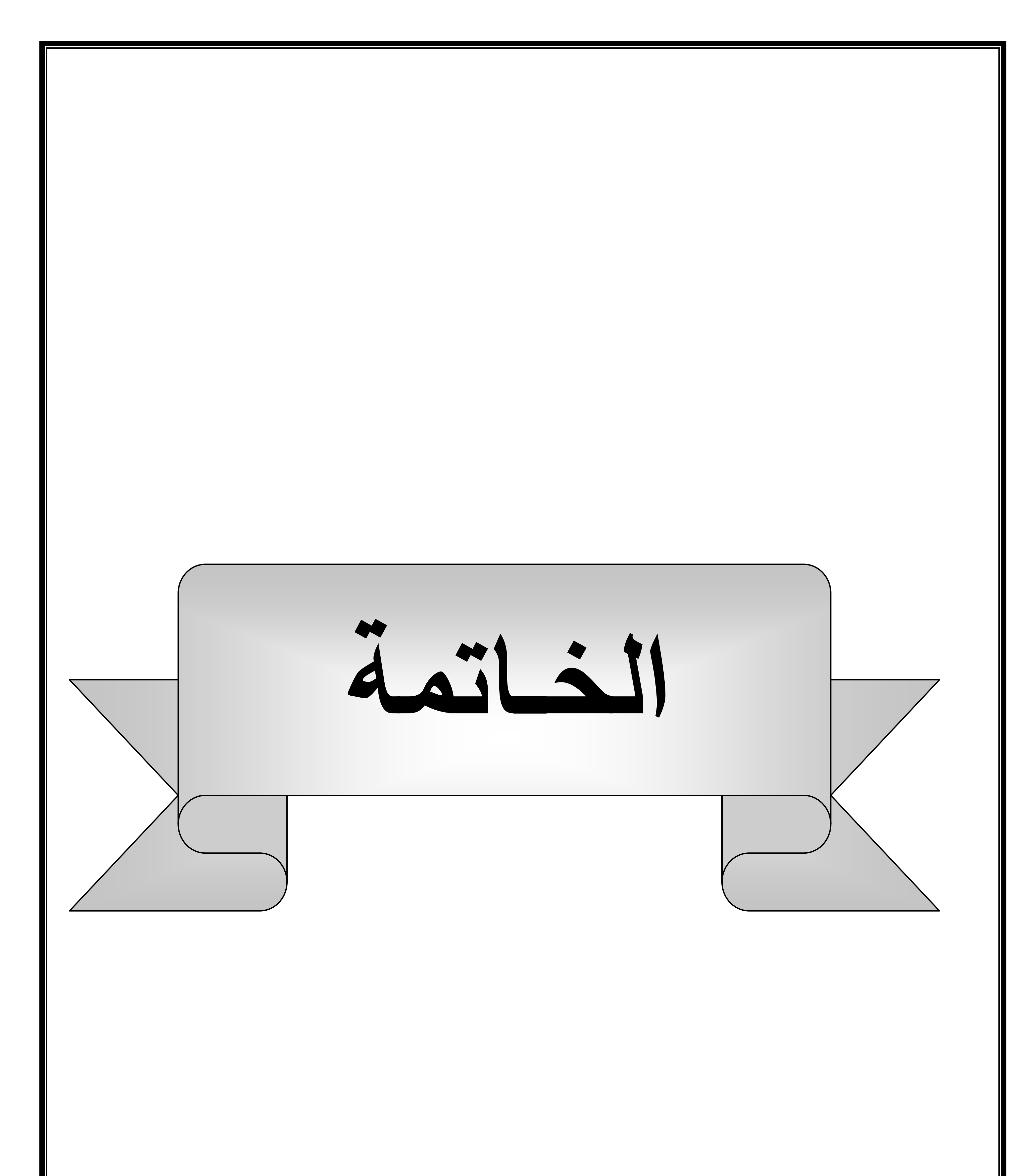
وما الذي جهلت اربابـــــه وارث مال لا له أصحابـــــه

فهذه السبعة بيت المـــــال لمن له المداخل في الحـــــلال[1].

في الأخير وجب ان نشير انه لا مجال للمقارنة بين مملكتي سنغاي والكانم-برنو من حيث التأثير المغاربي والإسلامي في المملكتين وعلى وجه الخصوص الجوانب الثقافية والعلمية، حيث انه وبالرغم من المظاهر العلمية التي لمسناها من خلال ثنايا هذا البحث نجد ان التفاعل الثقافي والتأثير الاجتماعي في المملكة لم يكن في حجم الجوانب الإدارية والسياسية والعسكرية للملكة، وقد يعزو ذلك بالدرجة الأولى الى الطبيعة العسكرية والحربية لأزهى فترات السلطنة هذا من جهة ومن جهة

1- احمد كاني: **الجهاد الإسلامي في غرب افريقيا**، الزهراء للأعلام العربي، القاهرة، ط1، 1987م، ص22.

أخرى نجد ان مناطق التأثير الشمالية حتى وان اتصف بعضها بالقرب مثل طرابلس(ليبيا) وحققت بعض التأثير فان ذلك يعد ضئيلا وجانبيا في ظل ما عرفته سنغاي في الغرب ولعل للحركة الثقافية الداخلية لمراكز الشمال دورا هاما في تحديد حجم وقدرة التأثير.


الخـاتمة

خاتمـــــــــة

في خاتمة هذا البحث نقف على مجموعة من النتائج العامة والخاصة اوجزها مجتمعة للملكتين وفي فترة زمنية تجاوزت القرنين ونيف من الزمن ترك فيها المسلمون آثارا جمة على مختلف الأصعدة والميادين من الثقافة الى الاقتصاد الى المجتمع، برغم محاولات التشويه المختلفة للإسلام وما خلفه في هذه الفضاء ولا يزال، محاولة من أولئك التمييز بين عالمين للإسلام أحدهما ابيض والآخر اسود، من هذه النتائج تمثيلا لا حصراً.

–تميز موقع بلاد السودان الغربي عامة ومملكتي سنغاي والبرنو على وجه الخصوص بمميزات إيجابية جعلت منهما منطقة عامرة بالسكان وجاذبة للعديد من الهجرات من الاجناس البشرية المختلفة وتأتي في مقدمة تلك المميزات المجاري المائية المتمثلة في الأنهار الهامة وفي مقدمتها نهري النيجر والسنغال ونهر غامبيا وفولتا العليا بالإضافة الى البحيرات وبالأخص بحيرة تشاد.

– توافد على المنطقة وعاش فيها منذ فترات مبكرة خليط من الاجناس البشرية من اعراق وطوائف مختلفة منها القبائل السودانية المحلية (الفلان، الماندنجو، الصوصو، الولوف، اليوروبا، الموسي، السرير) بالإضافة الى القبائل الوافدة البربرية الصنهاجية، والعربية من قبائل بني حسان وبني معقل وكنتة وغيرها.

– عرفت المنطقة وحتى قبل وصول الإسلام نشأة بعض الكيانات السياسية الوثنية وان كان تأثيرها محدودا حتى مجيء الإسلام واتصالهم بالمغاربة العرب منهم والبربر مما أسهم في ذيوع صيتها واتساعها ومن ذلك امبراطورية غانا الإسلامية.

- لم تكن الصحراء الكبرى الافريقية، او طبيعة السودان الغربي والاوسط يوما عائقا او حائلا امام انتقال المؤثرات المختلفة للعرب والمسلمين وفي مختلف المجالات وحتى قبل وصول الإسلام وذلك ما لمسناه في كثير من الاثار والشواهد اقتصادية منها او اجتماعية.

- تعود العلاقات المغاربية السودانية الى ما قبل الإسلام، حيث كانت الأخيرة محط جذب اقتصادي نظير ما تمتعت به من ثروات ثمينة وفي مقدمتها الذهب، حتى وان كانت تلك العلاقات والروابط محدودة فإنها مهدت ويسرت لانتشار الثقافة المغاربية في تلك الفترة المبكرة.

- بدأ تسرب بواكير الحضارة الإسلامية الى بلاد السودان منذ أواخر القرن الأول للهجرة السابع للميلاد فترة توطين الإسلام في بلاد المغرب، حيث تميزت المرحلة بان كان للتجار والدعاة والفقهاء دورا بارزا في إرساء دعائم العبادات والمعاملات، وقد استمرت هذ المرحلة حتى أوائل القرن الثامن للهجرة الرابع عشر للميلاد.

-لعبت طرق ومعابر التجارة بين الشمال والجنوب دورا بارزا في تعزيز الروابط بين العرب والسودانيين حتى قبل دخول الإسلام المنطقة، ليزداد نشاطها التجاري والدعوي أكثر مع انتشار الإسلام وسيادته.

-تعددت وسائل وطرق انتشار الإسلام في بلاد السودان من التجارة الى الدعاة والعلماء والطرق الصوفية الى دور زعماء بلاد السودان وفقهائهم في التمكين لهذا الدين.

-لا شك ان طيبة السودانيين من جهة وما شاهدوه من صدق وامانة التجار والدعاة زاد من تقبلهم واعتناقهم لهذا الدين وبالتالي الغوص في ثقافته والنهل من علومه.

– يمثل القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ذروة ما وصلت اليه المؤثرات المغاربية الإسلامية في مملكتي سنغاي والكانم برنو في مختلف مناحي الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ولا شك ان ملوك تلك الامبراطوريات لعبت دورا في ذلك، ان تعلق ذلك بسنغاي في شخص الاسكيا محمد التوري، او بالبرنو في صورة السلطان ادريس الوما.

وبالمجمل يمكن الوقوف على مجموعة من التأثيرات المغاربية والإسلامية في المملكتين حسب المجالات التالية:

سياسيـــــــــا:

–يبرز التأثير السياسي الإسلامي والمغاربي في تلك الممالك في عديد الصور من التقسيمات الإدارية واتخاذ الوزراء والحجاب الى تبني القاب الامراء والملوك والسلاطين مما قضى ذلك بالضرورة على التقديس والتأليه الذي كانت تعرف به ملوك بلاد السودان الغربي والاوسط، فبعد ان كان ينظر للملك من وراء حجاب ولا يأكل مع الناس ولا يخرج اليهم الا في المناسبات والاعياد اضحى الملك يرعى مختلف شؤون المملكة ويراقب الأسواق ويقود الحروب، بل يعمل على نشر الإسلام في الممالك الوثنية ولا ادل على ذلك من الدور الذي لعبه الاسقيا محمد الكبير والسلطان ادريس الومه.

–مراسيم تنصيب الملوك والامراء في السنغاي والبرنو كانت متأثرة الى حد كبير بما تعرفه المراسيم في بلاد المغرب والمشرق العربيين منها قسم يمين الولاء للملك في المسجد وعقب تأدية الصلاة بالمبايعة وحرص هؤلاء الملوك على استتباب الامن والإحسان الى الفقراء والمحتاجين وتوزيع الصدقات حال تسلمهم للسلطة.

-حرص هؤلاء السلاطين على تدوين سير حياتهم وانجازاتهم، ان قاموا بتأسيس دواوين لذلك وهو ما نلمسه في عهد الاسقيا التوري الى محمود كعت بتسجيل سيرة حياته وجهاده وهو ما قام به الفقيه في كتابه تاريخ الفتاش، ونفس الامر عهد به السلطان الوما الى احمد بن فرتو، وذلك ما دونه في كتاب شأن برن.

- عمل ملوك سنغاي والكانم برنو على نشر الإسلام في الادغال الافريقية وبين القبائل الوثنية وهو دلالة واضحة على تمكن الإسلام منهم ولم تكن هذه الحملات الجهادية ضد القبائل الوثنية فحسب بل شملت القبائل المرتدة والتي تزعم الإسلام بتأدية بعض الشعائر دون غيرها.

-في المجال العسكري حرص ملوك سنغاي وبلاد البرنو على تقوية جيوشهم بالاستعانة بالخبرة المغاربية والإسلامية من حيث استقدام الخيول والدروع والأسلحة من بلاد المغرب والعالم الإسلامي، حتى وان سبقت البرنو سنغاي في ذلك وهو ما نلمسه في لجوء السلطان ادريس الوما الى السلطان العثماني مراد الثالث من اجل تزويده بالأسلحة النارية، وأيضا التجاؤه الى الطرابلسيين والتونسيين كمدربين لجيشه على استعمال هذه الأسلحة.

-ربطت هذه الممالك علاقات دبلوماسية متميزة مع العالم الإسلامي وبلاد المغارب، ولا ادل على ذلك من تلك السفارات والمراسلات والمراسيم التي كانت تنتقل بين الضفتين وقد أبرزنا صورا مختلفة لبعض تلك المراسلات، إن في صورة ابداء الطاعة والولاء وكسب الشرعية، او في الاستنجاد والاعتراف بها كجزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، مثل مبايعة السلطان الوما للمنصور السعدي او

الاعتراف قبل ذلك بالباب العالي، ونفس الامر يتكرر مع الاساكي الأوائل خاصة الاسكيا التوري وعلاقته بالباب العالي والدولة السعدية.

-حظي سلك القضاء والقضاة بمكانة عظيمة في نفوس السودانيين، لذا عمل ملوك سنغاي والبرنو على انتقاء من تتوفر فيهم شروط ذلك من العلم والأمانة والفقه والحكمة، بل كثيرا ما تولى ذلك فقهاء وعلماء قدموا من بلاد المغارب وقارا وتجلة لهم ولمكانتهم في نفوس اهل السودان مثل الأنصمني والمغيلي وابا القاسم التواتي وغيرهم.

-لعبت المرأة دورا بارزا في الحياة السياسية في ممالك بلاد السودان وبالأخص مملكة الكانم-برنو، حيث نقف على الماجيرا عائشة ام السلطان ادريس الومه تتولى أمور المملكة بكل اقتدار في ظل قصور ابنها وحداثة سنهن كما نقلت لنا المصادر صورا أخرى بتدخلها في شؤون الحكم والدعوة الى العدل والمساواة

اقتصاديا:

-في المجال التجاري توسعت عمليات التبادل التجاري بفضل الطرق التجارية المنطلقة من أسواق الشمال الافريقي باتجاه غرب ووسط افريقيا والعكس، وبفضل ذلك تراجعت التجارة الصامتة واستمرت تجارة المقايضة وأضحى تجار سنغاي والبرنو يتعاملون بالنقد والعملات المغربية السائدة وبالودع وغيرها، كما انتقلت المصطلحات العربية والمغاربية المتعلقة بالمقاييس والمكاييل والموازين مثل الشبر، والمد، والذراع.

-في المجال الزراعي تأثرت الزراعة المعاشية لهذه الممالك بالخبرة المغاربية ان في تنوع المحاصيل او في طرق الزراعة وانتقاء البذور، ونفس الامر ينطبق على الثروة الحيوانية في توافد سلالات جديدة مثل الخيول والاغنام والابقار، واستفاد بذلك أهالي المنطقة في الاستفادة منها في التصنيع كدباغة الجلود والالبسة والاحذية.

-في مجال الحرف تنوعت هذه الأخيرة وتطورت بفضل التأثير المغاربي وبالأخص صناعة النسيج وحياكة الملابس بالإضافة الى الحرف ذات الاستعمال المنزلي مثل صياغة الحلي من الذهب والفضة، والصناعات الحديدية مثل السيوف والأسلحة والخناجر والدروع، وعن الصناعة الخشبية عرفت المملكتين صناعة السفن في ظل توفر الأنهار والبحيرات، وان كانت توسعت هذه الصناعة في ظل حكم الباشوات المغاربة في بلاد سنغاي. كما عرفت مملكة سنغاي بالأخص حرفة الوراقين تقليداً وتأثُراً ما كانت تشهده بلاد المغرب والمشرق العربيين حيث كثر نُسّاخ الكُتُب والورّاقين على نِطاق واسع، ولا ادلّ على ذلك من مخطوطات تمبكتو التي تعد بالآلاف، وإلى يومنا هذا.

- في مجال الصناعة دائما نجد وانه اسوة ببلاد المغرب واسواقها عرفت سنغاي نظاما حرفيا يقوم على وجود امين خاص لكل حرفة يعرف باسم الالفا، يكون رئيسا لتلك الطائفة يسهر على شؤونها واحتياجاتها يتولى جمع المكوس والضرائب الخاصة بها كما يكون وسيطا لها عند الملك او السلطان.

اجتماعيا:

-أسهم الاندماج القبلي المغاربي والافريقي (السوداني) في زيادة التلاحم والاندماج بعيدا عن كل اشكال التمييز والعنصرية، مما أثمر مجتمعا متجانسا تداخلت فيه المؤثرات الاجتماعية الوافدة بالعادات

والتقاليد المحلية انعكست على حياة سكان بلاد السودان في مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والثقافية والسياسية.

-اثرت العناصر المغاربية والعربية الوافدة في كثير من عادات وتقاليد مجتمع سنغاي ومملكة البرنو، وذلك ما نلمسه في الزواج ونظام الاسرة حيث تقيدت هذه المجتمعات بضوابط الشريعة في مراحل القران المختلفة كما ابطلت كثير من اشكال الزواج الباطلة كزواج الشغار وتعدد الزوجات فوق الأربع، وأصبحت المرأة السودانية (سنغاي-البرنو) تحظى بمكانة عالية محفوظة الحقوق مصونة العرض.

-أصبح الاقبال والتشبه بالمغاربة في الملبس والاكل والمسكن السمة الغالبة على مجتمع سنغاي وسكان بلاد البرنو، ولئن كانت المصادر العربية لم تتناول ذلك بالتفصيل والاهمية فان المصادر الأوربية تناولت ذلك بشيء من الدقة والتعبير من أنواع الألبسة الى الأطعمة التي ادخلها المغاربة وصولا الى المساكن من طوابق، فضلا عن عادات استقبال واكرام الضيف التي استلهمها السودانيون عن العرب والمغاربة

-انعكس التأثير الإسلامي المغاربي أيضا على سلوك أهالي سنغاي والكانم-البرنو حيث أصبح لباسهم مهذبا ومحتشما ساترا لعوراتهم ومحصنا لنسائهم بعد كان المرء في هذه المجتمعات يكاد لا يلبس الا نادرا، وان لبس فانه يظهر من عورته أكثر مما يستر.

-اتخذ السودانيون القابا وأسماء عربية تأثرا بالإسلام ولغته، ولم يتوقف الامر عند هذا الحد بل ادعت الكثير من القبائل السودانية اصولا عربية او انتسابا الى آل البيت من اجل المكانة والوجاهة التي يحتلها العربي في نفوس هؤلاء.

ثقـــــــــافيا:

-توصلنا من خلال هذه الدراسة الى ان أبرز واهم تأثير مغاربي واسلامي في السودان الغربي والاوسط (سنغاي والكانم-برنو) كان في الجوانب الثقافية والتعليمية، حيث كثر حفاظ القران الكريم وعلماء الفقه والحديث من امثلة (احمد بابا التمبكتي، ومحمود كعت، وعائلة اقيت، وبغيغ، واحمد بن فرتو، ومحمد بن ماني) وغيرهم الكثير، هؤلاء وبفضل تأثير الإسلام والمغاربة تعلموا وتفقهوا، وبدورهم أسهموا بشكل كبير في نهضة بلادهم ورسموا معالمها الحضارية التي شكلت جزءا من التراث الإسلامي المادي النقلي بلغة عربية خالصة.

-تعد اللغة العربية رافدا هاما وعاملا أساسيا في انتشار الإسلام وزيادة الروابط بين بلاد السودان والمنطقة العربية والمغاربية، ولا ادل على ذلك من تقبل الافريقيين لهذه اللغة كونها لغة القرآن والعلوم في تلك المرحلة، بل الأكثر من ذلك ان غيرت هذه اللغة اللسان الافريقي التي تدخلت في كثير من مصطلحاته وكلماته وبالأخص لغات ولهجات الماندنجو، والهوسا، والولوف وغيرها.

-توصلنا من خلال الدراسة دائما ان علماء بلاد السودان وبالأخص في مملكة سنغاي خلفوا تراثا علميا فقهيا ولغويا، نجده في تلك المؤلفات العديدة والمخطوطات المتنوعة التي جعلت من حاضرة تمبكتو تراثا عالميا ضمن اليونيسكو، رغم ما تعرض له هذا التراث ولا يزال من الحرق والنهب، إن في فترة الاستدمار الفرنسي، او جراء الحملة الفرنسية المسعورة على شمال مالي في العقد الحالي.

-من خلال البحث وجدنا ان النظام التعليمي في بلاد سنغاي والبرنو، لا يخرج عن ذلك الترتيب الذي كان سائدا في بلاد المغارب، من التدرج في التعليم، الى مسميات التكوين، وصولا الى نظام

الاجازات، وكذا المواد المقررة والسنوات المتطلبة لكل مرحلة من الكتاب الى المسيد ثم المسجد فالتعليم العالي في المساجد الجامعة على غرار مسجد سنكوري، الذي شبهه البعض مبالغة بالمعاهد الكبرى في القيروان وفاس وغيرها.

-لم يكتفي طلبة العلم من المملكتين بما تزودوا به محليا بل توجهوا صوب منابع ومصادر ذلك الاشعاع من الازهر الى القيروان والقرويين والزيتونة وتوات وغيرها، بل الأكثر من ذلك ان أجرى علماؤهم صدقات على إقامة أروقة علمية مخصصة كرواق التكارنة لأهالي سنغاي، ومدرسة ابن رشيق لطلبة وحجاج البرنو.

-عظم السودانيون شعيرة الحج كغيرهم من سكان بلاد المغرب والمشرق ومثلت عيدا حقيقيا للعائلات من خروج الحاج حتى لحظة رجوعه، وبرغم مشاق السفر والتكلفة نجدهم يقبلون عليها سنويا خاصة في ظل حج الملوك، دون ان نغفل الدور الديني والتجاري لموسم الحج حيث تلتقي القوافل المغاربية والسودانية في الصحراء الليبية لتأخذ درب الأربعين وجنوب مصر مسلكا لذلك وتعبر بذلك عن احدى صور الاندماج والوحدة بين شمال القارة وجنوبها.

-لعبت قوافل الحج وتوجه ملوك بلاد السودان الى البقاع المقدسة نقل كثير من المؤثرات السياسية لهذه البلدان، يقابل ذلك التعريف ببلاد السودان لدى مختلف بلاد الإسلام وما وصلت اليه من رقي اجتماعي وثقافي وازدهار اقتصادي.

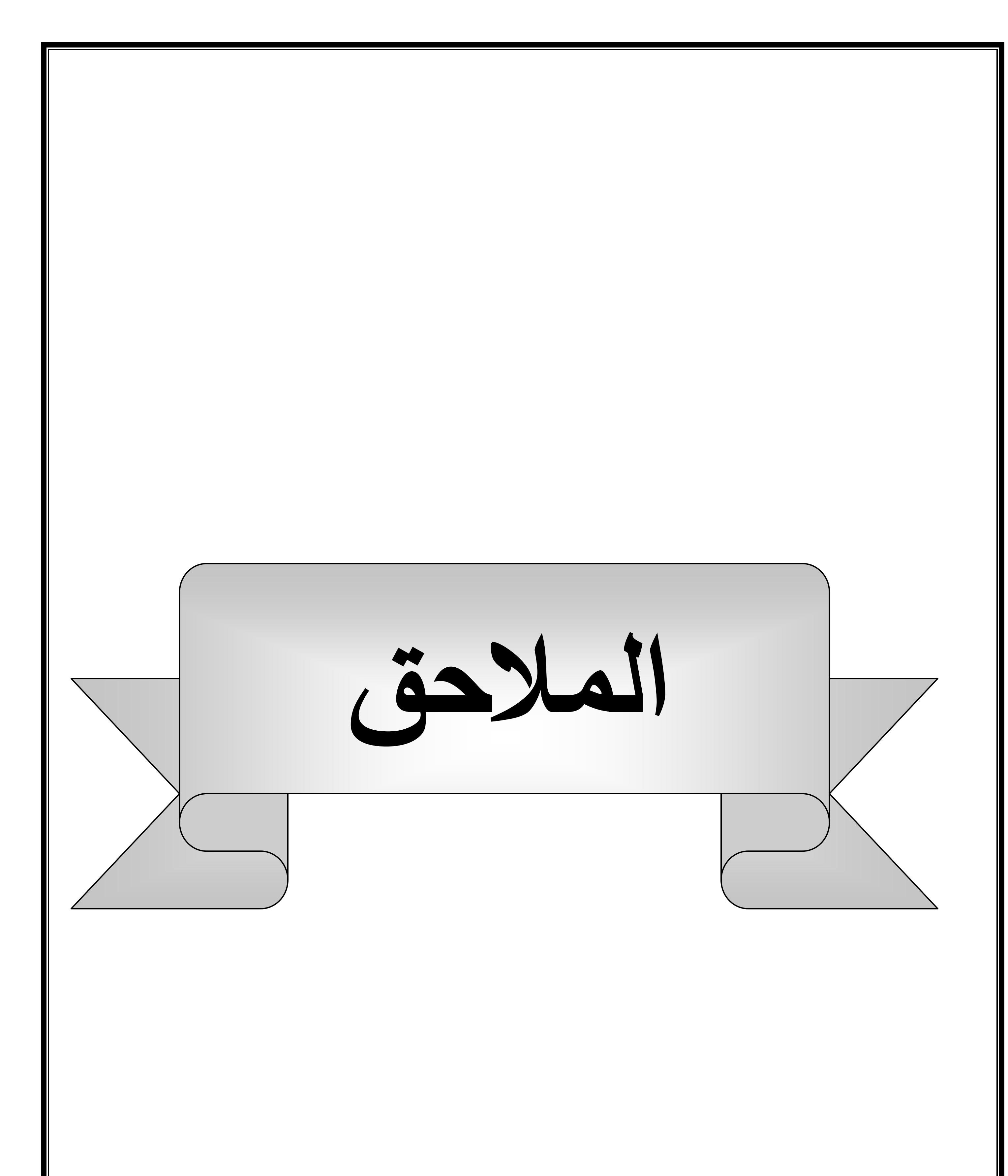
– لقد كان لانتقال الفقهاء والعلماء من بلاد المغرب الإسلامي ومصر في صورة المغيلي والسيوطي وغيرهم، ان أسهموا بقدر كبير في تنوير الحياة السياسية والثقافية لهذه الممالك على حد سواء، وتمثل أسئلة الاسكيا واجوبة المغيلي منهاجا ونبراسا سياسيا وقضائيا سار عليه اغلب ملوك السودان من الاسكيا وحتى سقوط دولة سونغاي.

–لم ينتهي تأثير هؤلاء العلماء والفقهاء برحيلهم ولا بزوال تلك الممالك، بل استمر تأثيرهم في عقول ونفوس السودانيين لمئات السنين والى اليوم، ومما يظهر ذلك في القرون القليلة الماضية تأثر اسرة آل فودي بكتابات المغيلي والانتحال الكامل منها دون زيادة أو نقصان.

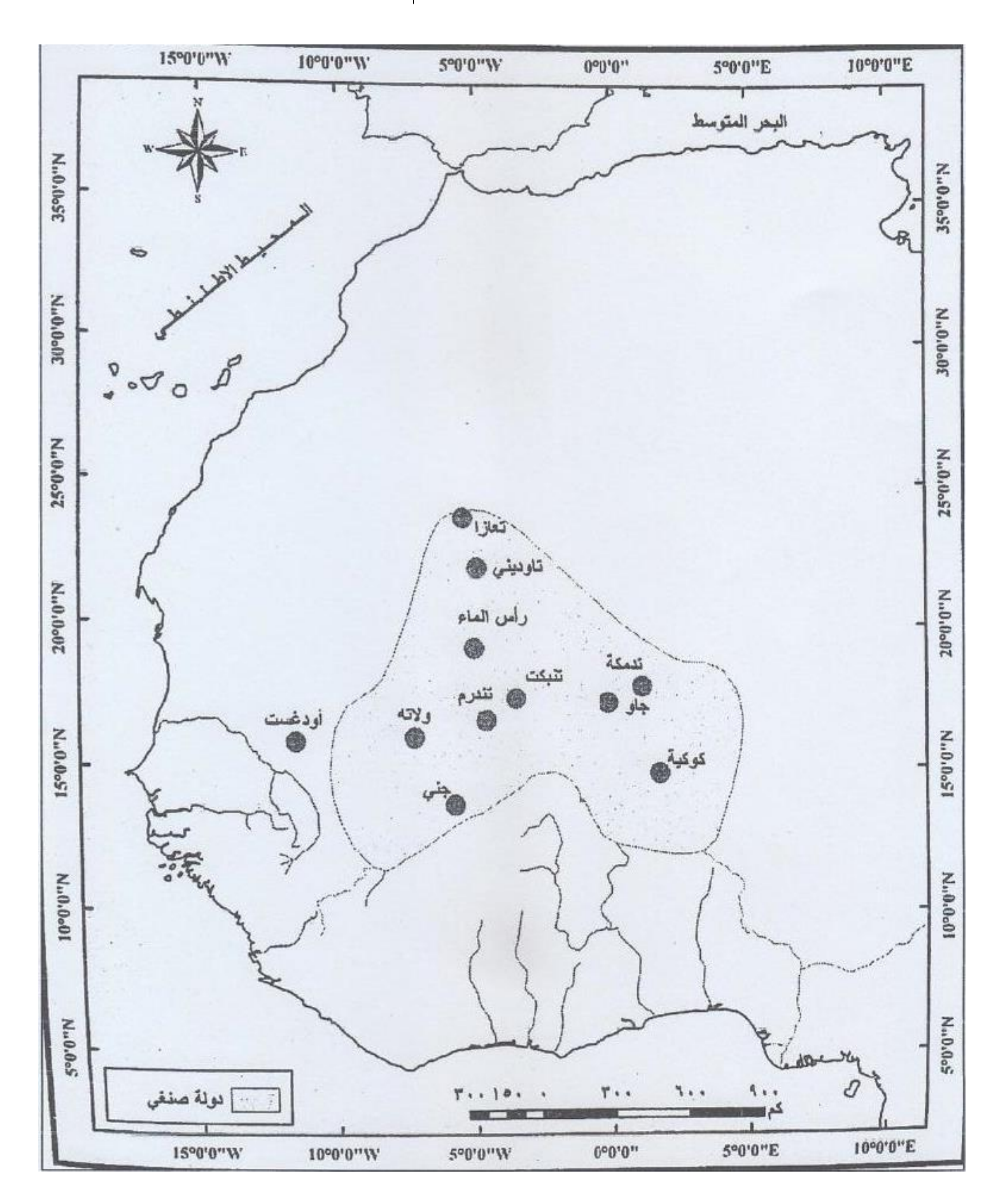
–ان تركيز الدراسات على جوانب التأثير الثقافية دون غيرها قد أفقد الدور الإسلامي العربي جانبا هاما كان يعد ولايزال ارضا خصبة بكرا لمزيد من الدراسات، الا وهو الجانب الاجتماعي والاقتصادي الذي حاولنا من خلال هذه الدراسة جاهدين ان نتبين دور العرب والمسلمين في هذا الميدان وكيف استفاد السودانيون من الخبرة العربية في الزراعة والحرف والتجارة وغيرها.

– ان التأثير الإسلامي والمغاربي في بلاد السودان الغربي لا يعني بالضرورة فقدان الهوية والشخصية الافريقية لدى أهالي تلك الممالك، فقد استمرت لديهم والى اليوم الكثير من العادات والتقاليد العتيقة الموروثة عن الفترة التي سبقت التواجد الإسلامي، ولعل ذلك ما دفع كثير من الغربيين منهم والعرب الى تقديم تفسيرات خاطئة حول الإسلام وترسخه في ممارسات السوادين وعقولهم.

-اشير الى ان هذه الدراسة ركزت على التأثير من الشمال نحو الجنوب، وفي ثنايا البحث وقفت على كثير من اشكال التأثير المعاكس التي وجب على الباحثين في تاريخ المنطقة ان يبعثوا منها آفاقا جديدة للبحث في الهوية والانتماء المغاربي للقارة الافريقية ولبلاد السودان للعالم الاسلامي.


الملاحق

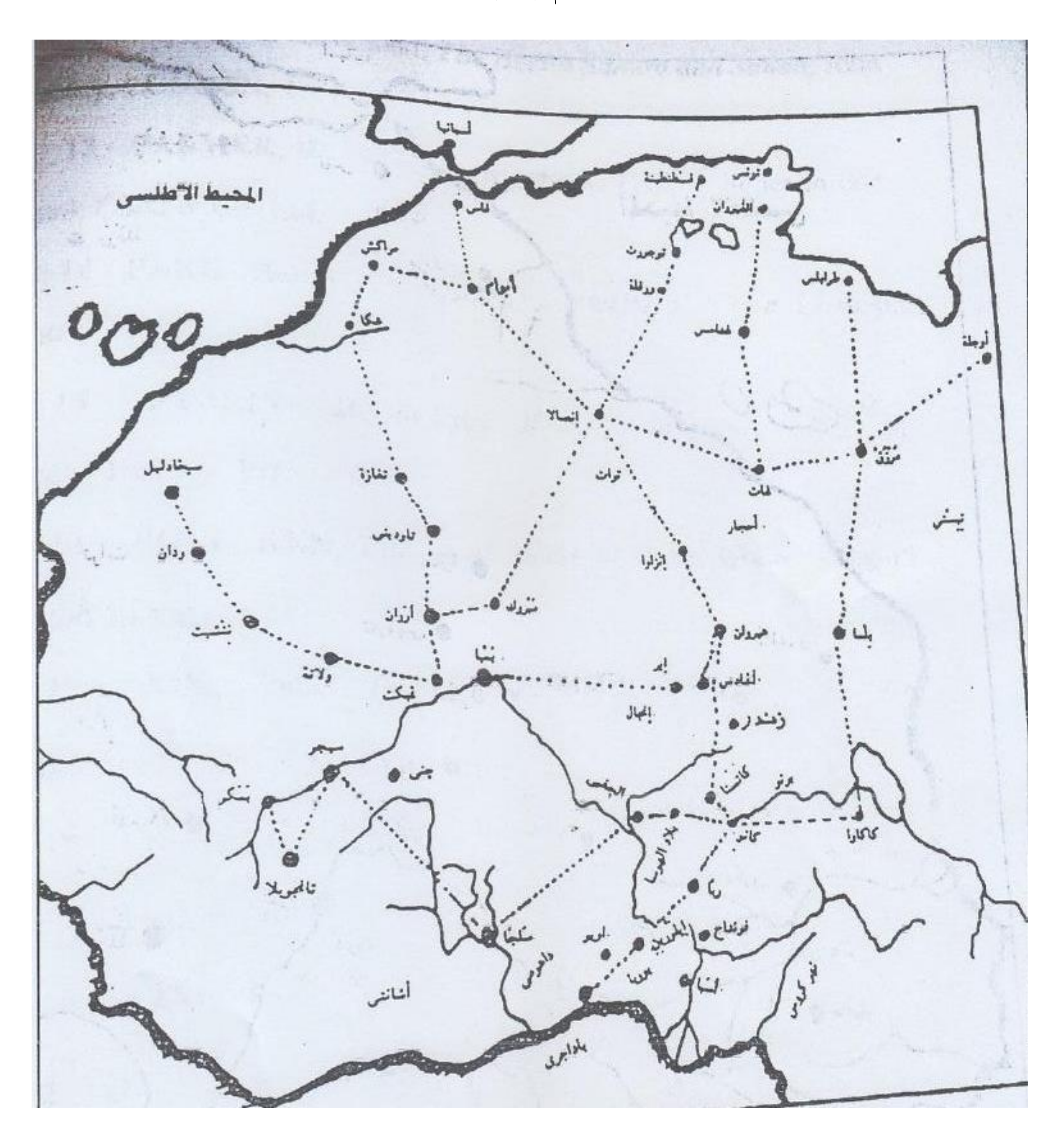
الملحق رقم (01)



خريطة تبين حدود مملكة سنغاي في اقصى اتساعها[1]

1 – احمد فتوح عابدين: الحواضر الإسلامية في غرب افريقيا في القرنين 16و17م، دكتوراه الفلسفة في التاريخ الحديث، معهد البحوث والدراسات الافريقية، 1989م، ص492.

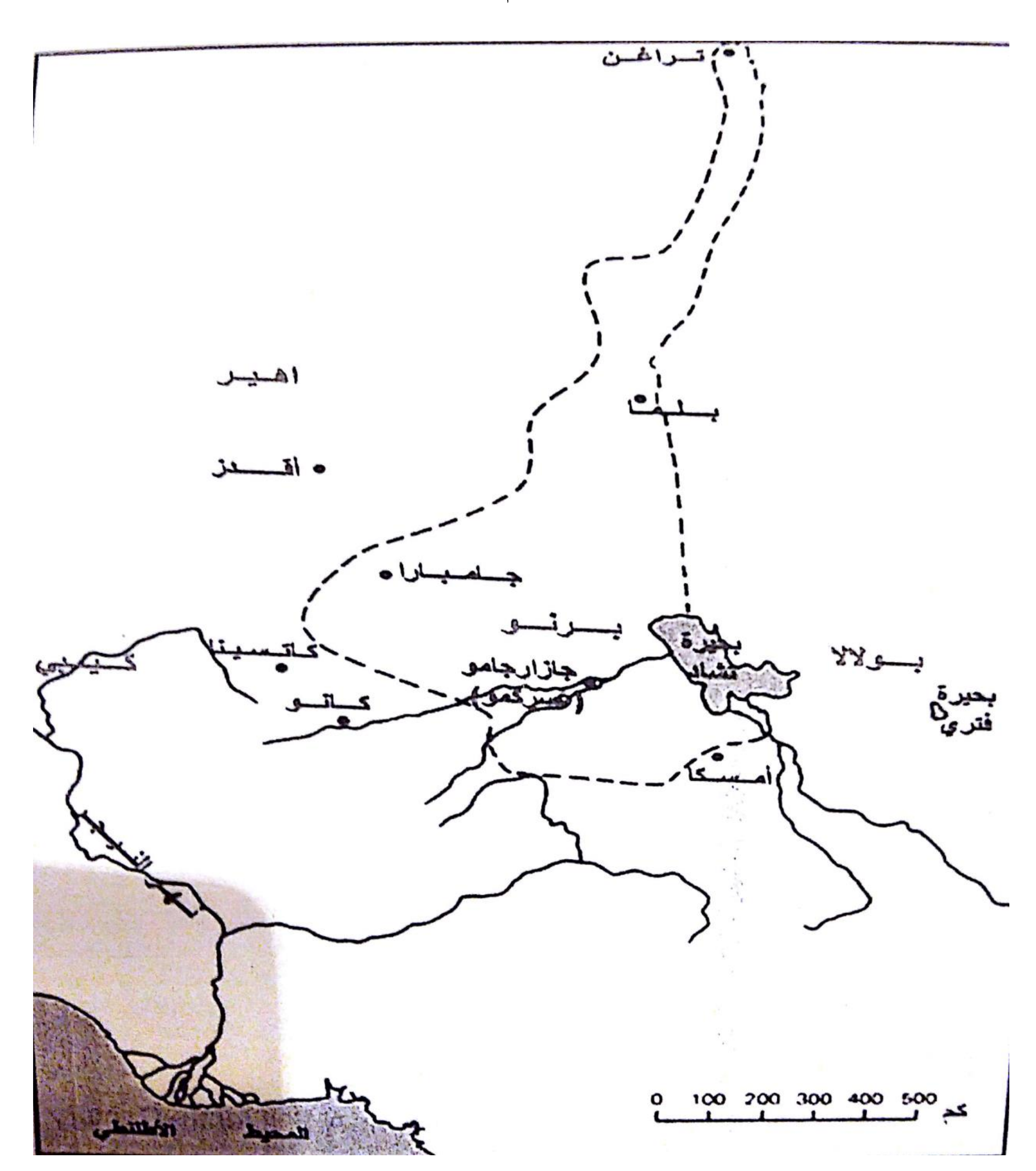
الملحق رقم (02)



خريطة توضح اهم المدن والطرق التجارية بين بلاد المغرب وافريقيا جنوب الصحراء[1].

1- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص18.

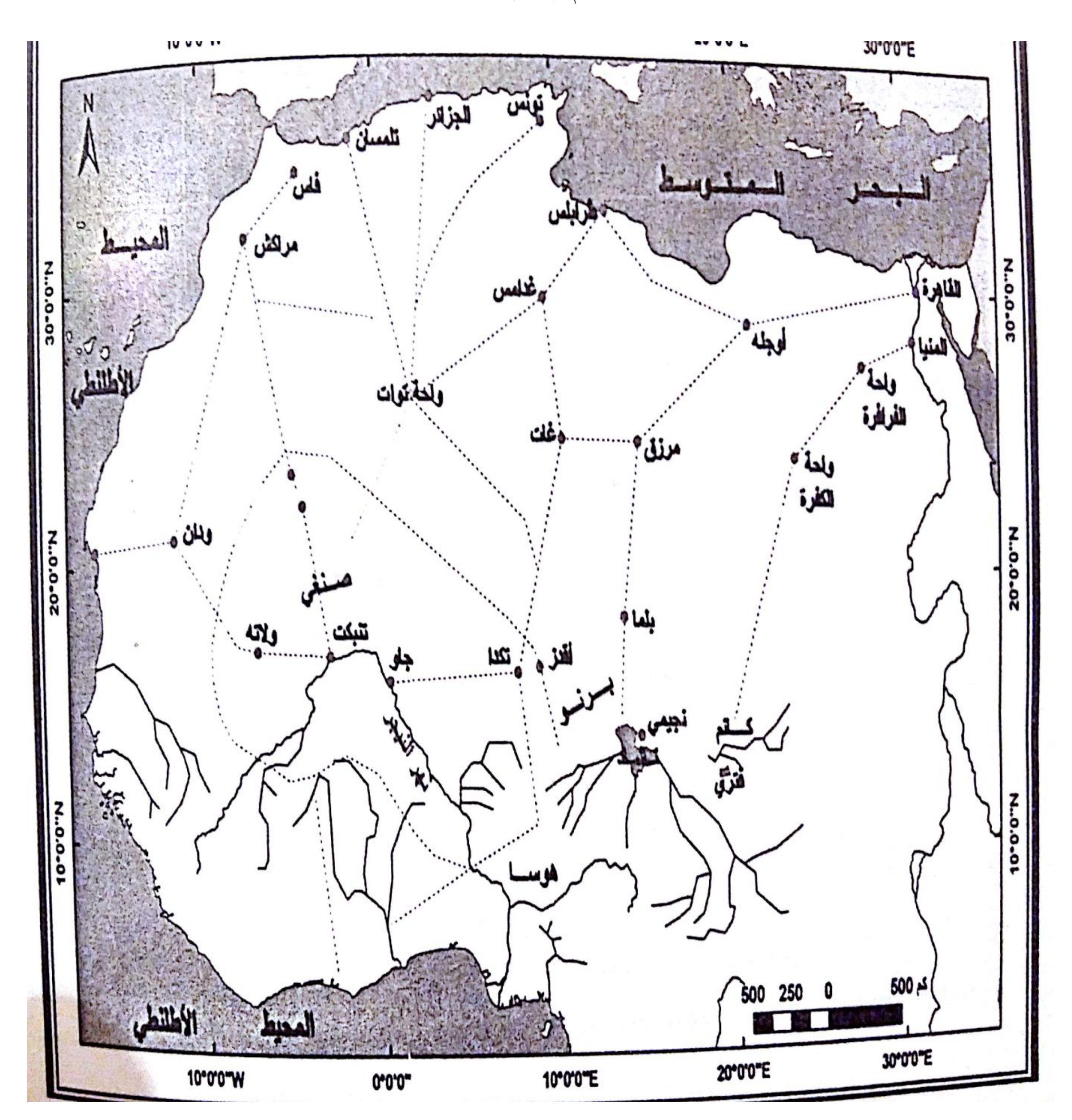
الملحق رقم (03)



خريطة توضح اقصى توسعات السلطان ادريس الوما[1]

1 – انتصار جابر: الحياة السياسية في سلطنة البرنو خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، ماجستير في الدراسات الافريقية، معهد البحوث والدراسات الافريقية، جامعة القاهرة، 2016. ص168.

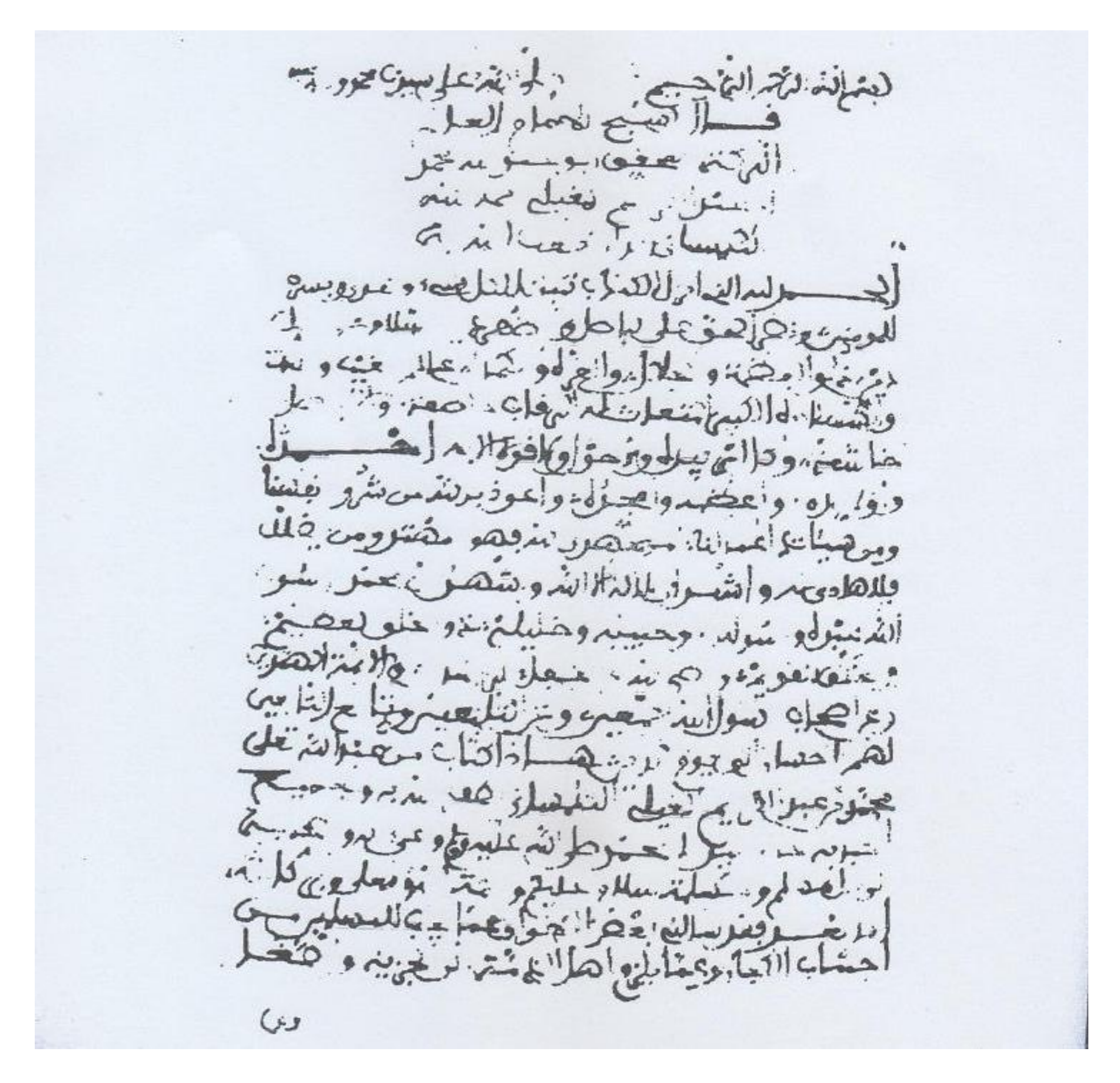
الملحق رقم (04).



خريطة تبين اهم الطرق التجارية التي تربط بلاد البرنو مع بلاد المغارب خلال القرن 16م[1]

1 –انتصار جابر: المرجع السابق، ص169.

الملحق رقم (05)



صورة لمخطوط المغيلي مصباح الأرواح بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1602[1].

1 –صورة من مخطوطة المغيلي (مصباح الأرواح) بالخزانة العامة بالرباط رقم 1602، ص702. نقلا عن انتصار جابر: المرجع السابق، ص495.

الملحق رقم (06)

هذا كتابنا الشريف السامي السلطاني وخطابنا المنيف العالي الخاقاني
لا زال نافذا مطاعا في الأطراف والأكناف بامداد امداد خفي الألطاف
أرسلناه إلى جناب المكرم الأميري الكبيري الأكرمي الأفخمي الأمجدي
الأرشدي الأكملي الأولوي الأماني الهمامي نصير الغزاة والمجاهدين
ظهير الملوك والسلاطين المختص بمزيد عناية الملك المعين ملك ادريس الوالي
بوسعيد مولاي [illegible] ادام الله تعالى سعده وانجح مقصده يهدي سلاما
جميلا وثناء جزيلا وينهى انه قد وصل كتابكم الشريف الى سدتنا السنية
التي ملتجأ السلاطين العظام ومحتوي بانتساب الخواص الكرام من [illegible]
في الأماثل والأعيان الحاجي زيد قدره وتبين عند حضرتنا العالية الشأن
ما يحتويه من فرط الموالاة وشدة المصافاة واستدعائكم ان يكون
أساس المودة بيننا مشيدا وبنيان المحبة والصداقة مؤكدا وتيسروا أهالي
دياركم في ولايتنا من شاء من الواردين والصادرين وغيرهم
من التاجرين والزائرين حتى يصير سببا لكمال الوداد وباعثا لشدة الاتصال
والاتحاد وما عدا هذه المواد المذكورات من باقي الملتمسات ندبا [illegible]
وظهر وأحاط علمنا الشريف جميعا وامتاز مفردات الأعداد كيفما
وكما ليس معلوما لديكم ومفهوما بين يديكم ان أعتابنا السامية الخاقانية
وأبوابنا العالية السلطانية مكشوفة على وجوه الأولياء والأعداء
لا مرد لمن التجأ إليها من الأحباء والأصدقاء وقد ورد أحكامنا المرعية
وأوامرنا المنيفة الى حكامنا الحارسين لثغور الحدود والمنازل
والحافظين لجميع الموارد والمراحل حيث لا يمنعون ورود التجار
والزائرين ولا يجوز لمن أراد الدخول في الممالك المحروسة من المؤمنين
والمستأمنين وقد أخبر قاصدكم المزبور بالتماسكم من جنابنا الشريف
ان يعطى لكم القلعة المسماة بوهران ولا يخفى عليكم انه ليس من قواعد آبائنا العظام
وأجدادنا الكرام ان يعطوا قطعة من القلاع التي كانت

نص الرسالة الأولى التي رد بها السلطان العثماني مراد الثالث على مطالب السلطان ادريس الوما في يوم 05 ربيع الثاني985هـ/ 23 يونيو1577م.[1]

هذا كتابنا الشريف السامي وخطابنا المنيف العالي الخاقاني لا زال نافذا مطاعا في الأطراف والاكناف بامداد امداد خفى الالطاف، ارسلناه الى جناب الكريم الاميري الكبيري الاكرمي الاضخمي الامجدي الارشدي الاكملي الاولوي الامامي الهمامي نصير الغزاة والمجاهدين ظهير الملوك والسلاطين المختص بمزيد عناية الملك المعين ملك ادريس الوالي يومئذ بولاية بورنو ادام الله نعم سعده وانجح قصده يهدي سلاما جميلا وثناءا جزيلا وينهى انه قد وصل كتابكم الشريف الى سدتنا السنية التي تلتجئ اليها السلاطين العظام ويفتخر بانتسابه الخواقين الكرام...قاصدكم فخر الاماثل والايمان الحاجي ...زيد قدره وتبين عند حضرتنا العالية السنية ما يحتويه من فرط الموالاة وشدة المصافاة واستدعائكم ان يكون أساس المودة بيننا مشيدا وبنيان المحبة والصداقة مؤكدا ويمر وأهالي دياركم في ولايتنا من شاء من الواردين والصادرين وغيرهم من التاجرين والزائرين حتى يصير سببا لكمال الوداد وباعثا لشدة الاتصال والاتحاد، وماعدا هذه المذكورات من يأتي الملتمسات نوبانن وظهر واحاط علمنا الشريف جما وامتاز مفردات الاحسان كيفا وكما، فليكن معلوما لديكم ومفهوما بين يديكم ان اعتابنا السامية الخاقانية وابوابنا العالية السلطانية مكشوفة على وجوه الاولياء والاعداء لا ترد لمن التجئ اليها من الأحباء والأصدقاء وقد ورد احكامنا الشريفة واوامرنا المنيفة الى حكامنا الحارسين تقرر الحدود والمنازل والحافظين لجميع الموارد والمراحل، حيث لايمنعون ورود التجار والزائرين ولا يحجبون لمن أراد الدخول في الممالك المحروسة من المومنين والمستامنين وقد اخبر قاصدكم المزبور بالتماسكم من جنابنا الشريف ان يعطي لكم القلعة المسماة بفزان ولا يخى عليكم ...التي كانت.

1- من أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول مهمة دفتري رقم 30، ص13، 14. فرمان تحت رقم 494، بتاريخ 22 ربيع الأول 985هـ (9جوان 1577م)، نقلا عن التميمي المرجع السابق، ص28.

الملحق رقم (07)

من ذكرنا بناء الشريف العلي السلطاني وخصصنا بالمنيف الخاقاني [illegible]
[illegible] الله احكامه في تيسير المآرب لكافة اهالي المشارق والمغارب
ضددنا، وارسلنا مكتوبا مطويا على [illegible] على اتحاف تحية يفوح
طيب ذكرها في البلاد ومحتويا على اهداء تسليم ينعطر نشرها مشام [illegible]
الى جناب الامير الاعدلي الكبيري الاكملي الاكرمي الامجدي الافخمي الارشدي
المؤيد بنصر غزاة المؤمنين ظهير كماة الموحدين المحفوف بصنوف عواطف الملك ذي الملك
والتقديس الحاكم بولاية بورنو بوشيش مالك ادريس ادام الله سعده وانجح مقصده
ينهى اليه ويوضح وسي ويفصح ورود كتابكم على يد قاصدكم العابد
بهذا الجواب المستطاب الفاتح من الموالات احسن الابواب الحاج [illegible] كتب الله
سلامته وتيسر بالسرور واعادته نبتنا وثناء وفضضنا باليمين ونظرنا الى
جواهر الفاظه التي فاقت الدر الثمين وفهمنا جميع ما فيه واطلعنا على كل ما احتوى به من عرض
اخلاص الطوية لسدتنا السنية والمباهات بروايات احاديث من الانس
الحاصلات بين ملوك تلك الولايات سالكا مسالك رضى خواطرها مبادرا
لتمهيدها وامنها وترددا لعوافل وورواحل التجار من البراري والاقفار وسائر الزوار
المترددين في البحار بالامن والطمانينة حيث ما يشاء، ويحمانا الحصن
من امصار ممالكنا المحمية الشاسعة الاقطار ومنع كف المدافعة من الذهاب وكف
يد الممانعة عن الاياب وتشييد بنيان الموالات ورفع تشييد اركان المصافات
وغير ذلك من الملتمسات جما وامتلأت مفردات الاخبار لدينا كيفا وكما
فلا يخفى عليكم ان الله تبارك وتعالى شانه علوا كبيرا لما اتانا من لدنه سلطانا
نصيرا وفتح الى مبايعتنا بالسلطنة الزاهرة ومتابعتنا بالخلافة الباهرة
اساطين السلاطين العظام وصناديد الخواقين الكرام وكل من توطن وذا في الدنيا [illegible]
المحيط حدائقها البهية من ممالك الشرق والغرب ومسالك السلم والحرب فلا [illegible]
شكر تلك النعم الجليلة واداء ثناء سد الالاء الجزيلة بسط جناح العدل

الوثيقة رقم (02) التي بعث بها السلطان مراد الثالث الى السلطان ادريس الوما ملك البرنو[1]

1 – من أرشيف رئاسة الوزراء مهمة دفتري رقم 30، ص215، 216. فرمان تحت رقم 496. بتاريخ 22 ربيع الأول 985هـ/ 09 جوان 1577م، نقلا عن التميمي: المرجع السابق، ص32.

الملحق رقم (08)

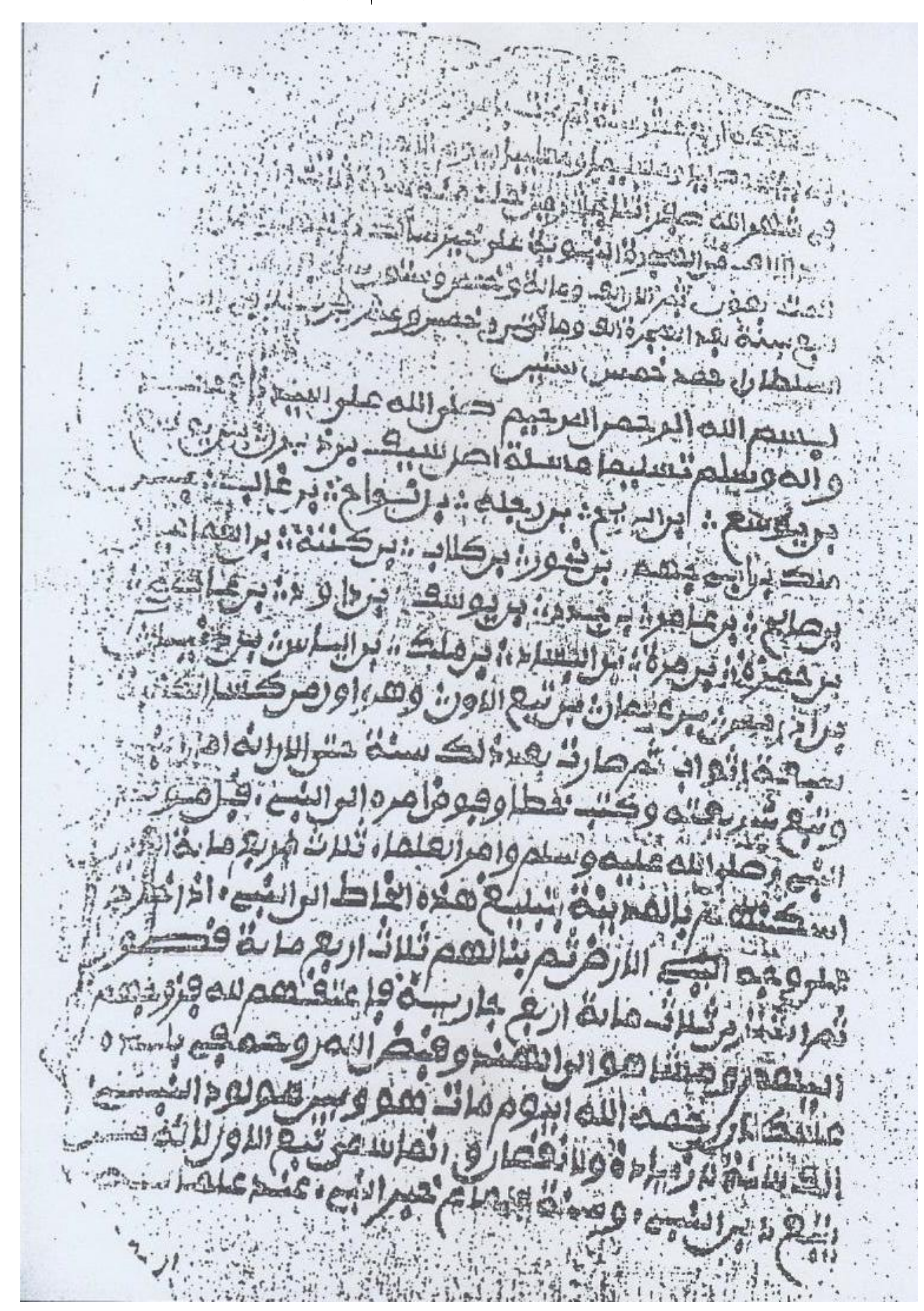
رسالة الماي كاداي إلى علماء توات*

من السلطان كاداى بن حمشيش سلطان كانم أيده الله ونصره ، والحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، أما بعد : فإلى المرابطين الذين مع الشيخ مختار وسيدي عمر الشيخ وإلى سائر إخوانهم العلماء ، وإلى درمقشة المقيم بتوات ، السلام عليكم جميعا وبعد : فقد عجبنا من أمركم ولماذا تركتم عادة كبرائكم ؟ لماذا قصرتم عن النزول وإرسال البعثات إلى بلادنا منذ عهدكم مع كبيرنا السلطان صفير ؟ فأنتم لم تعودوا إلينا منذ ذلك الحين ، لماذا هذا ؟ فإنني أقسم بالله أنه لن يصيبكم أي شيء من الأذى فيما لو جئتم لا من جهتي ،ولامن أحد غيري ، فعليكم أن تأتوا إذا كعادتكم ، وكل من جاء من توات حاملا معه رسالة منكم لا يسأل عن شيء من الرسوم ، لان البلاد بلادكم ، كما كانت لأنها بلاد أسلافكم والسلام .

الرسالة التي بعث بها الماي كاداي الى علماء توات[1]

1 – فضل كلود الدكو: المرجع السابق، ص253، انظر أيضا الرباصي: المرجع السابق، ص250.

الملحق رقم (09)

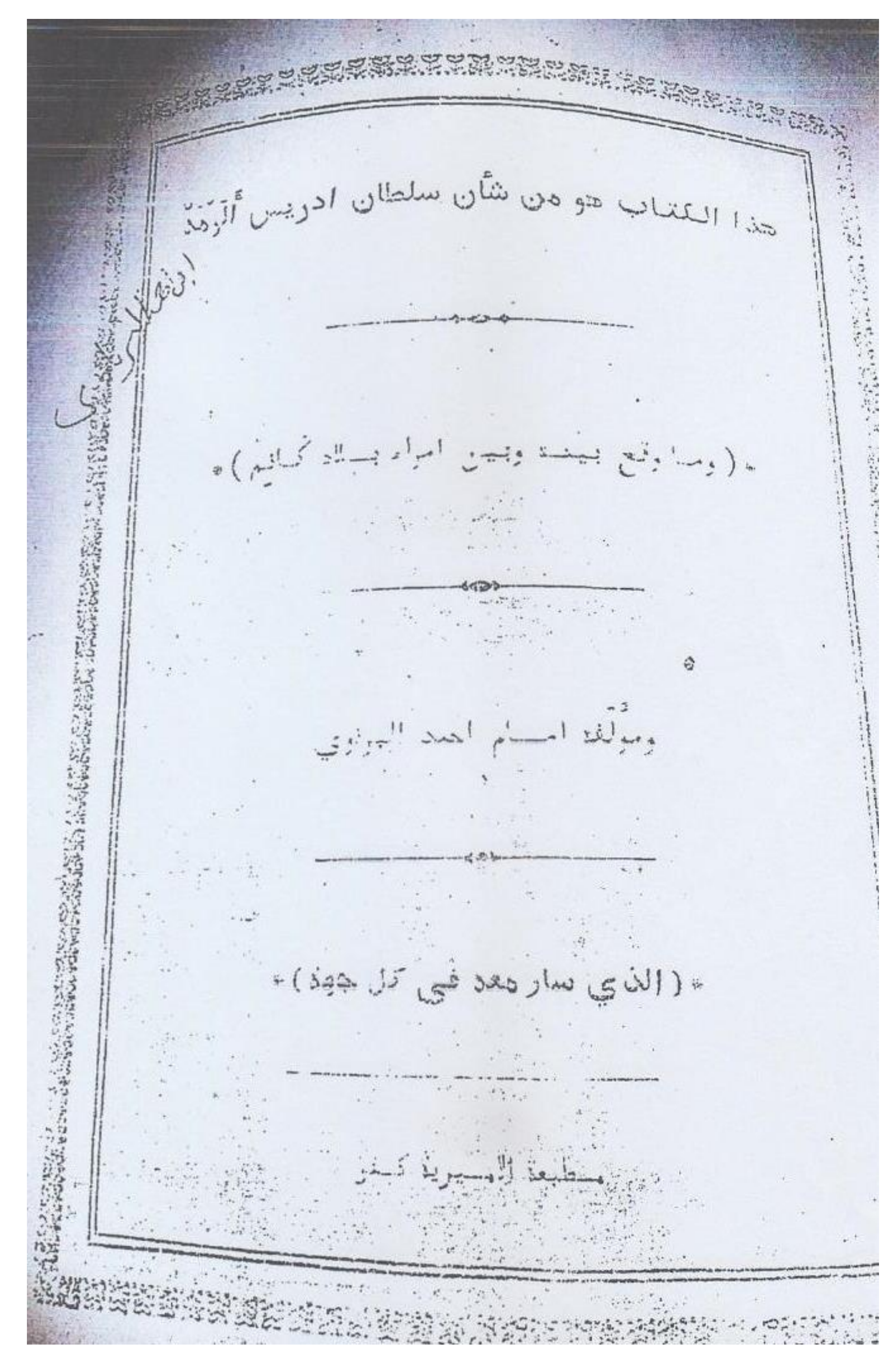


بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على النبي [illegible]
واله وسلم تسليما هذه اصل سيف بن [illegible]
[illegible] بن رجله بن شواح بن غالب [illegible]
[illegible] بن شور بن كلاب بن كننة [illegible]
بن صالح بن عامر [illegible] بن يوسف بن داود [illegible]
بن حمزة بن مرة بن البساد بن فلك بن الياس [illegible]
[illegible] من تبع الاول وهو اول من كتب [illegible]
[illegible] ثم صارت بعد ذلك سنة [illegible]
[illegible] وكتب خطا وهو امره الى النبي قبل [illegible]
النبي صلى الله عليه وسلم وامر العلماء ثلاث [illegible]
[illegible] بالمدينة بتبليغ هذه الالفاظ الى النبي [illegible]
[illegible] الارض ثم بنا لهم ثلاث اربع مائة [illegible]
[illegible] ثلاث مائة اربع جارية [illegible]
[illegible] رحمه الله [illegible]

صورة لمخطوط بن فرتوا يبين النسب السيفي لسلاطين الكانم-برنو[1]

1 - انتصار جابر: المرجع السابق، ص255.

الملحق رقم (10)



هذا الكتاب هو من شأن سلطان ادريس ألوما

(وما وقع بينه وبين امراء بلاد كانم)

ومؤلفه امام احمد البرنوي

(الذي سار معه في كل جهد)

مطبعة الأميرية كنو

الصورة الأولى لمخطوط مرقون ونادر عن النسخة الاصلية بعنوان شأن سلطان ادريس[1]

1 – احمد بن فرتو: شان السلطان ادريس، نسخة مرقونة من المخطوط الأصلي.

الملحق رقم (11)

نسخ مخطوطة بنماذج من المحارم السلطانية[1]

1 – فضل كلود: المرجع السابق، ص ص 53، 54. انظر أيضا الرباصي: المرجع السابق، ص245.

الملحق رقم (12)



صورة لمسجد سنكوري [1]

1 – محمد ميغ كنان: مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في تمبكتو وجني وغاو في عهد الاساكي، قراءات افريقية، الخرطوم، ع55، جويلية2012م، ص135.

الملحق رقم (13)



صورة توضح طريقة تعليم القران في الكتاب في بلاد السودان الغربي[1]

[1] - كرم الصاوي: دراسات في تاريخ بلاد المغرب والسودان الغربي والاوسط، المرجع السابق، ص568.

الملحق رقم (14)



صورة تبين طريقة فلاحة الأرض في سنغاي[1]

1 -كرم الصاوي: المرجع السابق، ص569.

الملحق رقم (15)

Kafaara	كفارَ	الكفارة
Dina	دِنَ	الدين
Hejii	هِجِي	الحج
?umuraa	أُمُرا	العمرة
jakaa	جَكا	الزكاة
Limaamuu	لِمامو	الإمام
?alijinaa	أَلِجِنا	الجنة
Selii	سِلِي	الصلاة
Liimaniya	ليمَنِيا	الإيمان
Batoo	بَتو	العبادة
jurumuu	جُرُمو	الجرم
Tuubi	توبِ	التوبة
Laadirya	لاَدِريا	العدل
?amiina	أمينَ	آمين
Barakaa	بَرَكَا	البركة(القوة)
Tasabiyaa	تَسَبِيا	التسبيح (المسبحة)
Yamari	يَمَرِ	الأمر
Janaabaa	جَنابا	الجنابة
Jahanama	جَهَنَمَ	جهنم
Sarakaa	سَرَكا	الصدقة
Sariyaa	سَرِيا	الشريعة
Sirati	سِرتِ	الصراط
Silama	سِلَمَ	المسلم (إسلامي)
Suuri	سور	السحور

جدول يبين بعض الكلمات باللغة العربية ونطقها بالماندينكية (أثر اللغة العربية في لغة الماندينكو)[1]

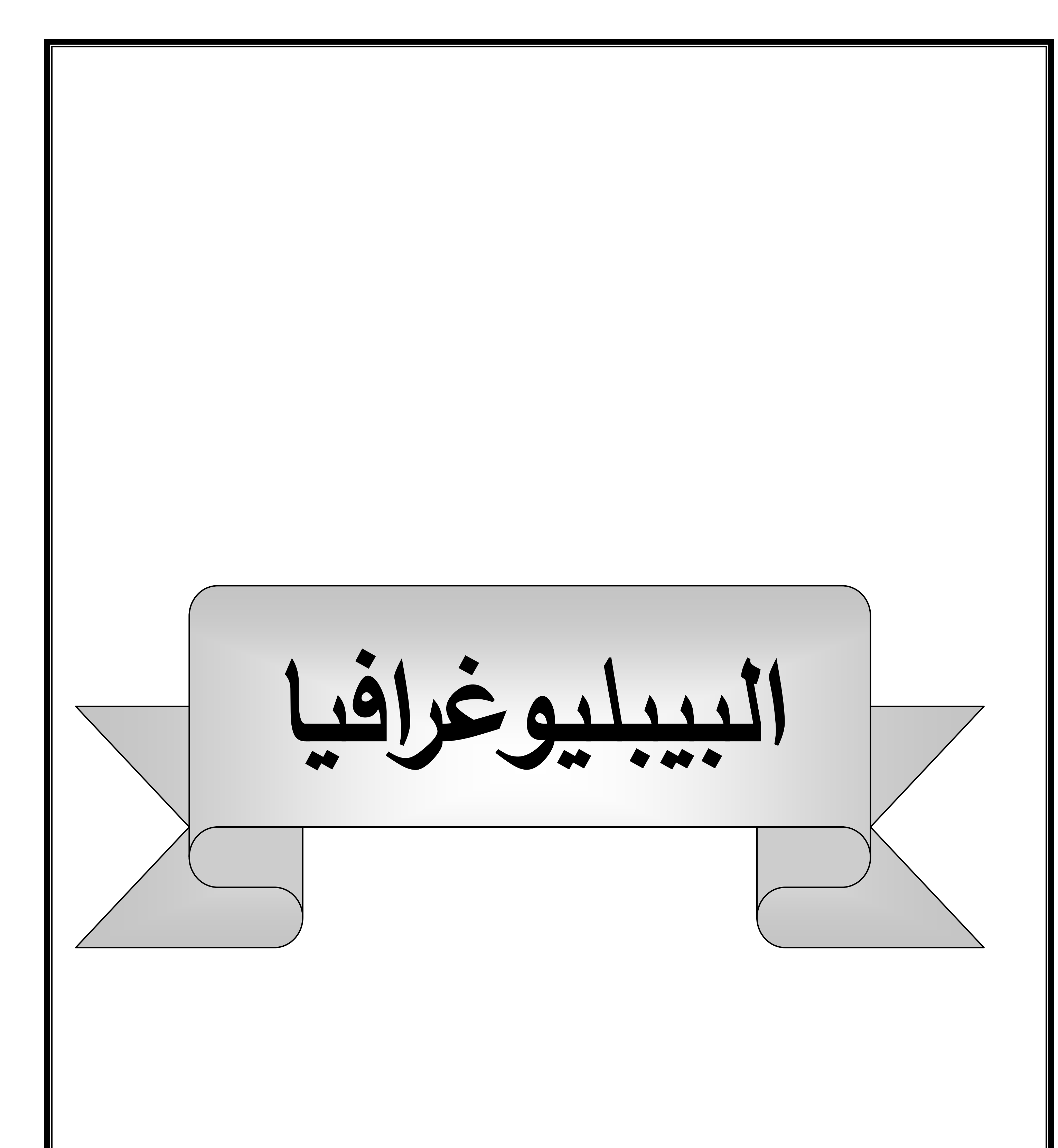
1 - يعقوب الأمين: المرجع السابق، ص48.

الملحق رقم (16)

الرقم	السلطان	تاريخ ولاية العرش	مدة الحكم
01	علي غازي بن دونمه	1472-1503م	33 سنة
02	ادريس بن علي	1504-1562م	23سنة
03	محمد بن ادريس	1526-1545م	19سنة
04	علي بن ادريس	1545-1546م	سنة واحدة
05	دونمة بن محمد	1546-1555م	تسع سنوات
06	عبدالله بن دونمة	1555-1562م	سبع سنوات
07	الماجيرا عائشة (فترة وصاية)	1562-1571م	ثماني سنوات
08	ادريس بن علي الوما	1571-1603	33 سنة

جدول لاهم سلاطين البرنو قبل فترة ادريس الوما[1]

1 – من انجاز الباحث اعتمادا على إبراهيم طرخان: المرجع السابق، ص ص 181، 184.


البيبليوغرافيا

اولاً-المخطوطات:

1- احمد بن فرتوا، شأن السلطان ادريس الومه، مكتبة كنو، مخطوط مرقون بحوزة الباحث

2-مراسلات ملوك البرنو مع الدولة العثمانية، طرابلس، توات، الدولة الحفصية، مبايعة السلطان الوما لاحمد المنصور من مصادر متعددة.

3-المغيلي محمد بن عبد الكريم، مصباح الأرواح في أصول الفلاح، تقديم وتحقيق: رابح بونا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر-، 1968.

4-المغيلي محمد بن عبد الكريم، أسئلة الأسيكا وأجوبة المغيلي، تحقيقي عبد القادر زبادية الجرار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974 م.

ثانياً: المصادر العربية:

1-ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في اخبار العرب والعجم والبربر ومن ارهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للنشر، ج5، 1979م.

2-الأصطخري، المسالك والممالك، بيروت، دار صادر، د ت.

3-البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد الكتابي ومحمد حجي، بيروت – دار العرب الإسلامي-1981م.

4-البكري ابو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب جزء من موسوعة المسالك والممالك، تحقيق حماه الله ولد السالم القاهرة، دار الكتاب الاسلامي، د ت.

5-الأرواني، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، تح الهادي مبروك الدالي، تق عبدالله الهرامة، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2001م.

6-ابن حوقل، **صورة الارض،** نشر كريمر، طبع لندن، ج1 ،1938.

7-التمبكتي احمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقد عبدالحميد عبدالله الهرامة، ط2 دار الكتاب، طرابلس، 2000م.

8-التمبكتي احمد بابا كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج2، تحقيق الأستاذ محمد مصلع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المملكة الغربية، 2000م.

9- التونسي محمد بن عمر، تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة،1965 م.

10- حسن الوزان، وصف افريقيا، تر محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2 دار الغرب الإسلامي، 1983م.

11- السعدي عبد الرحمن بن عبدالله بن عمران، تاريخ السودان، طبعة هوداس، انجي، فرنسا .1964

12- كعت محمود، تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس، طبع هوداس ودولافوس، باريس، 1964م.

13- العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، تحقيق حمزة احمد عباس،ط4، منشورات المجمع الثقافي، ابوظبي، 2002،ص107-108.

14- القزويني، اثار البلاد واخبار العباد، دار الصناعة والنشر، بيروت ،1969م.

15- القلقشندي أبو العباس احمد، صبح الاعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ج5، 1983م.

16- الناصري أبو العباس احمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى، تح وتع جعفر الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ج3، 1955م.

17- المقري التلمساني، روضة الآس العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من اعلام الحضرتين مراكش وفاس، تح عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1983.

18- مجهول، تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان، نشر هوداس، 1966م.

19- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ج1، 1982.

20- الفشتالي عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تح عبد الكريم كريم، ط1 وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1977م.

21- المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة ،1955.

22- مارمول كربخال، افريقيا، تر محمد حجي ومحمد الزنيبر وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ج3، 1984.

ثالثاً: المراجع العربية والمعربة:

1- أبوبكر عمر ميغا، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي من 400هـ-1100هـ، مكتبة التوبة، الرياض، 1997م.

2- احمد الشكري: الذاكرة الافريقية في افق التدوين الى غاية القرن 18م، منشورات معهد الدراسات الافريقية، الرباط 2010 م.

3- احمد كاني: الجهاد الإسلامي في غرب افريقيا، الزهراء للأعلام العربي، القاهرة، ط1، 1987م.

4- احمد نجم الدين، افريقيا-دراسة عامة واقليمية -، الاسكندرية، 1988.

5- أسماء احمد الأحمر، الدين والدولة في مملكة سنغاي الإسلامية(1464-1591م)، الجامعة المغاربية، طرابلس، ط1 2008م.

6- اسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1983م.

7- باري محمد وسعيد إبراهيم، المسلمون في غرب افريقيا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م.

8- بنرمضان زوليخة: المجتمع والدين والسلطة في إفريقيا الغربية ما بين ق5هـ و11/10-16م، ج1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية –المملكة المغربية-، 2015م.

9- بوفيل: الممالك الإسلامية. في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، تر زاهر رياض، الانجلو مصرية، القاهرة 1968م.

10- بازل دافيدسون: افريقيا تحت أضواء جديدة، تر احمد جمال، بيروت، دار الثقافة، ج1، 1957.

11- بول مارتي: كنتة الشرقيون، تر محمد محمود ولد دادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق.

12- التونسي محمد بن عمر، **تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان**، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة،1965م.

13- الحمدي احمد، الفقيه المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي، مكتبة الرشاد، سيدي بلعباس، الجزائر،2012.

14- جعفر الناصري المحيط بالمهم من اخبار صحراء المغرب وشنقيط، تقديم احمد الناصري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب،2015.

15- جلال يحي تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي الحديث، القاهرة،2010م.

16- جميلة امحمد التكيتك مملكة سنغاي الاسلامية في عهد الاسكيا محمد الكبير (1493م/1528)، ليبيا ،1998.

17- جودت حسين، جغرافية افريقيا الاقليمية، دار النهضة الغربي، بيروت ،1981.

18- حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الافريقية، مكتب الانجلو مصرية، القاهرة، ط2، 1963.

19- حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى، منشورات معهد الدراسات العربية، القاهرة،1957م.

20- حسن احمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في افريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، 2009م.

21- حسن عبد الظاهر، الدعوة الاسلامية فيغرب افريقيا، الزهراء للإعلام، ط1، القاهرة، 1991.

22- حماه الله ولد السالم، صحراء الملثمين وبلاد السودان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2011.

23- حورية توفيق، الإسلام في افريقيا وواقع المسيحية والديانة التقليدية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة،2002م.

24- يحي بوعزيز، تاريخ افريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر الى مطلع القرن العشرين، دار البصائر، الجزائر،2008م.

25- خالدي مسعود، الجاليات السودانية والبربرية في السودان الأوسط والغربي من القرن الحادي عشر الى السادس عشر الميلادي، المكتبة المصرية للنشر والتوزيع،2014م.

26- الرباصي، العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو(7-10هـ/13-16م)، منشورات جامعة 07اكتوبر، ليبيا،2008م.

27- زكي عبد الرحمن، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، المؤسسة المصرية الحديثة، القاهرة ،1961.

28- زمان عبيد وناس، تاريخ مدينة كاو منذ نشأتها حتى سقوط امبراطورية السونغاي، دار الأيام، الأردن 2015م.

29- سعيد الحنديري، العلاقات الليبية التشادية، مركز الجهاد الليبي، طرابلس، 1983م،

30- الشاطر بصيلي: تاريخ وحضارات السودان الشرقي والاوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1989م.

31- شوقي الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، القاهرة ،1971.

32- صالح بن يونس، تاريخ الإسلام وحياة العرب في امبراطورية كانم-برنو، مطبعة مصطفى البابي، مصر،1976م

33- طرخان إبراهيم علي: امبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية العامة، للكتاب،1975.

34- طرخان إبراهيم علي: دولة مالي الاسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر،1970م.

35- عبد الجليل شاطر البصيلي، حضارات السودان الشرقي والاوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ا لقاهرة ،1972.

36- عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا، مطبعة يوسف، القاهرة، 1970.

37- عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، المؤسسة المصرية الحديثة، القاهرة ،1961.

38- عبد الفتاح الغنيمي، الاسلام وحضارته في وسط افريقيا _سلطنة البولالا_ مكتبة مديولي، القاهرة، 1996.

39- عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الاسقيين (1493-1593)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،ا لجزائر،1971.

40- عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في افريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989.

41- عبد القادر زبادية، دراسة عن افريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2010م.

42- عبدالله سالم، انتشار الاسلام في افريقيا جنوب الصحراء، ط1، منشورات جامعة 07اكتوبر، 2010م.

43- عبد الله عبد الرازق ابراهيم، انتشار الإسلام في غرب افريقيا، موسوعة الثقافة التاريخية والاثرية والحضارية، دار الفكر العربي، القاهرة،2006م.

44- عبدالله عبدالرازق إبراهيم، التاريخ الثقافي الافريقي، ط1، الافريقية الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

45- عبدالله الألوري، الإسلام في نيجيريا، ط1، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 2014م.

46- عز الدين عمر موسى، دراسات إسلامية غرب إقريقية، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003.

47- عطية الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق افريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام) ، ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1998.

48- علي خليفة المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط وأثرها على الحياة الاجتماعية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ط1، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 2003م.

49- عمر موسى، العرب وافريقية، مجموعة بحوث، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1989م.

50- الغربي محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الفليج للطباعة والنشر، الكويت، 1982م،

51- الغنيمي مقلد عبد الفتاح، الإسلام وحضارته في وسط افريقيا، سلطنة البولالا، مكتبة مذبولي، القاهرة، 1996م،

52- فضل كلود الدكو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية الكانم، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،1998م

53- فليكيس ديبوا، تمبكتو العجيبة، تر عبد الله عبد الرزاق ابراهيم، مراجعة شوقي عطالله، المجلس الاعلى للثقافة، القاهرة، 1994.

54- فيج دي جي، تاريخ غرب افريقيا، تر يوسف نصر، دار المعارف، مصر، ط1، 1982.

55- فرناند بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، ط1، تعر مروان ابي سمرا، دار المنتخب العربي، بيروت-لبنان، 1993.

56- قداح نعيم، افريقيا الغربية في ظل الاسلام، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1974.

57- سعيد الحنديري، العلاقات الليبية التشادية، مركز الجهاد الليبي، طرابلس، 1983م.

58- كرم الصاوي باز، دراسات في تاريخ بلاد المغرب والسودان الغربي والاوسط في العصر الإسلامي، الافريقية الدولية للنشر، ط1، القاهرة، 2016م،

59- مادهو بانيكار، الوثنية والاسلام، ترجمة وتعليق احمد فؤاد بلبع، المجلس الاعلى للثقافة، ط2، القاهرة ،1995.

60- محمد البخاري: انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ما وراء الصحراء-تنبكت-غدامس نموذجاً، 07-13/11-17)، ط1، ليبيا، 2004.

61- محمد بللو، انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهجة الشاذلي، الرباط، 1996.

62- محمد عبد الغني سعودي، افريقيا، دراسة في شخصية القارة وشخصية الاقليم، القاهرة، 2007م.

63- محمد عوض محمد، الشعوب والسلالات الافريقية الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965م.

64- محمد مرسي الحريري، جغرافية القارة الافريقية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م.

65- محمد ميقا عبد الرحمن، الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من ق08 إلى ق18م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2011.

66- محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، دار الفكر العربي، القاهرة،1948م.

67- محمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، القاهرة، 1967.

68- مسعود عمر، تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي، منشورات جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا، 2003.

69- مطير سعد غيث، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد، دار المدار الإسلامي، بنغازي ط1، 2003م.

70- مقدم مبروك، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية خلال ق09هـ/15م، دار الغرب للنشر والتوزيع-الجزائر-، 2003م.

71- نبيلة حسن محمد، تاريخ افريقيا الاسلامية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2013م.

72- نعيم قداح، افريقيا الغربية في ظل الإسلام، ط 2، القاهرة، 1974م.

73- الهادي مبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، القاهرة –الدار المصرية اللبنانية-، 1999م.

74- الهام محمد علي ذهني، جهاد الممالك الإسلامية في غرب افريقيا ضد الاستعمار الفرنسي (1850-1914م)، المريخ للنشر، ط1، الرياض، 1981.

75- الافراني، نزهة الحادي في اخبار ملوك القرن الحادي، ط2، الرباط، مكتبة الطالب، 1988م.

76- رياض زاهر، الممالك الإسلامية في غرب افريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، القاهرة، مكتبة الانجلو مصرية، 1968م.

77- يعقوب الأمين، أثر اللغة العربية في لغة الماندينكو، منشورات جامعة 7اكتوبر، ط1، ليبيا، 2007م.

رابعاً: الرسائل الجامعية:

1-احمد حسين، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر ميلادي كما عرفها الجغرافيون العرب –رسالة ماجستير- غ م،جامعة القاهرة،كلية الاداب ،1977م

2-أحمد سيد حسين دروسني، دور المرأة السياسي والحضاري في دولتي مالي وسننغي، رسالة مقدم لنيل الماجستير، إشراف عبد الله عبد الرازق قسوم، غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة، سنة 2007.

3-الأمين عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطتين الاسلاميتين مالي وسنغي، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة القاهرة، دار المجمع العلمي بجدة، 1979.

4-حسن أبو الفضل، الحياة الاجتماعية في مملكة الكانم، رسالة دكتوراه الفلسفة في الدراسات الافريقية من قسم التاريخ، القاهرة 2016.

5-حسن علي، تأثير الإسلام وثقافته في السودان الغربي منذ القرن الحادي عشر الميلادي حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي، (أطروحة دكتوراه، غ م)، جامعة ام درمان الإسلامية، 2009.

6-محمد الفاجلو، الحياة العلمية في دولة صنغاي (1464-1591)، رسالة ماجستير، غ.م، المملكة العربية السعودية، 1993م.

7-سحر عنتر، فقهاء المالكية وأثرهم في مجتمع السودان الغربي في عهدي مالي وصنغي، رسالة ماجستير في الدراسات الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية-جامعة القاهرة-، 2010م.

8-السراج زين العابدين، دولة كانم الإسلامية، رسالة ماجستير، غ م، معهد الدراسات الافريقية، جامعة القاهرة، 1975.

9-شكري صالح، السودان الأوسط مملكة كانم، برنو 1085-1600م، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2004م.

10- علي بسيوني: برنو في عهد الاسرة الكانمية، رسالة ماجستير، غ م، اشراف احمد الحته، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة،1976م.

11- احمد فتوح عابدين، الحواضر الإسلامية في غرب افريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، رسالة دكتوراه، غ م، معهد البحوث والدراسات الافريقية، جامعة القاهرة ،1989م.

12- خامساً: المراجع باللغة الأجنبية:

1- Barth,H ,Travels and Discoveries in North and Central Africa(1849-1855),London,1875.

2- Cissoko (S.M). Tombouctou. Et L,empére Soonghay, epanouissment du Soudan, nigérien aux Xve -XVIe siécles, les Nelles editions Africaines, Dakar, Abidjan, 1975

3- Delafosse,les Noire de L'Afrique, Payot & Cie., 1922.

4- Denham and Clapperton, Narrative of Travels in Nnorthern and Central Africa, in the years1822, 1823, and1824, Third edition, volII, London, 1919, p325.

5- Dubois, felixse, Timbouctou the Mysterious, translated From the French by Diana white, New York, 1969.

6- Dupuis, Yacouba ; industries et principales professions des habitants de la région de tombouctou, paris

7- Dupuis,Y, Industries et principales professions des habitants de tombouctou, paris, 1921

8- -Hunwick, J,O, Religion and state in the Songhay Empire, Islam in tropical Africa, Oxford, 1966.

9- Lange, D, Progress de l'islam et changement politique au Kanem du X1 au X111 siècle, vol 19, 1978.

10- Lenz, o, Timboctou voyage au maroc au Sahara et au Sudan,paris, T II

11- Monteil, cH, une cite Soudanaise Djenné,Métropole du delta central du Niger, Société d'Editions géographiques, maritimes et colonials, paris, 1932.

12- Michel. Abitbol, Tombouctou et les arma, Maisonneuve, paris, 1980.

13- Niane, p, T, le Soudan Occidental au temps des grands empires Xie-Vxi, Paris, 1975.

14- Palmer,History of the first Twaleve Years of the Reign of Mai Idris Alooma of bornu ,LAGOS.1926.

15- Palmer. Soudanaise Mémoires. three volumes in one.frank cass ,CO.LTD.1967.

16- Palmer.H.R :the Bornu Sahara and sudan ,london,1936,

17- Rouch (j) contribution à L' histoire du songhay, Dakar, 1953

18- TRIMINGHAM J .S :History of islam in west africa-london-1970.

19- Trimingham,S, A History of islam in west Africa,london,Oxford Univ,press,1962.

5-الملتقيات والندوات

1-احمد إبراهيم دياب، علماء بلاد السودان الغربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر وآثارهم العلمية، ندوة العلماء الأفارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الإسلامية، بغداد 1985م

2-آيت عدي مبارك، مساهمة المغاربة في بناء حضارة بلاد السودان من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين أعمال مجموعة البحث حول المغرب وإفريقيا، كلية الأدب والعلوم الإنسانية-الرباط-، ط1، 2012م.

3- جبريل ابوبكر، طرق القوافل وأثرها في تغذية العلاقات الثقافية بين ليبيا وجيرانها جنوب الصحراء، ندوة التواصل ...كلية الدعوة الإسلامية، ط1، طرابلس، 1995م،

4-سيد احمد العراقي، تجارة القوافل بين شمال وغرب افريقيا وأثرها الحضاري، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ،1984.

5-شعبان عرباني، العامة والنشاط الزراعي في دولة سنغاي (869-1000هـ/1464-1591م)، مجلة الدراسات الإفريقية مج33-القاهرة-، 2011م.

6-الطيب الوزاني، مقومات التفاعل الثقافي والحضاري بين دول غرب إفريقيا والمغرب الأقصى، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، كلية تطوان، 12-14 ماي 1998.

7-عبد الجليل التميمي، العلاقة بين المغرب الأدنى والسودان الأوسط، ندوة العلاقة بين الثقافة العربية والافريقية، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1985.

6-المجلات والموسوعات:

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج4.

2- تاديور لفنسكي، دور الصحراء الكبرى واهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب (موسوعة تاريخ افريقيا العام –اليونيسكو_ مج3، 1988م.

3- دائرة المعارف الإسلامية، مادة برنو

4- ديرك لانج، ممالك تشاد وشعوبها، موسوعة تاريخ افريقيا العام، منظمة اليونيسكو، 1988م

5- زبادية عبد القادر، التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي –بعض آثاره وأعماله في الجنوب الجزائري وبلاد السودان، مجلة الأصالة، الجزائر، ع26، 1975.

6- زبادية عبد القادر، ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو خلال القرن السادس عشر، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ع7و8، جانفي 1977م.

7- محمد الجهيمي، الأوضاع الاجتماعية وأثرها على العلاقات السياسة والاقتصادية والثقافية بين طرابلس وممالك وسط افريقيا ما بين القرنين التاسع والسابع عشر الميلاديين، مجلة فكر وابداع، القاهرة، ع69، 2012م.

8- سعد مصطفى، "ليو الإفريقي" مجلة جامعة القاهرة، الخرطوم، العدد 1، 1970م،

9- سعديوه بن محمد، التواصل الحضاري بين العرب والأفارقة مقاربة لبعض ملامح التبادل، مجلة دراسات موريتانية، ع03، مارس2014م.

10- سيتكي سودي سوكو، الصونغاي في ق12 إلى 16هـ، تاريخ إفريقيا العام، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر 1988م.

11- شعبان عرباني، العامة والنشاط الزراعي في دولة سونغاي (869-1000هـ/1464-1591م)، مجلة الدراسات الإفريقية مج33، القاهرة، 2011م.

12- شلبي احمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط2 القاهرة، ج06، 1975.

13- عبد الجليل التميمي، الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا خلال العصر الحديث، منشورات المجلة التاريخية المغربية، ع07، تونس، 1981.

14- عبد العزيز العبيدي، انتشار الإسلام في إقليم كانم، مجلة دراسات افريقية، ع46، السنة 27، ديسمبر2011م.

15- عبد القادر مصطفى المحيشي وآخرون، جغرافية القارة الافريقية وجزرها، الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط1، ليبيا، 2000م.

16- علي موسى، جغرافية العالم الاقليمية، دار الفكر، دمشق، 1981م.

17- علي يعقوب، الثقافة الإسلامية في مملكة برنو الإسلامية، مجلة قراءات افريقية، ع5، يونيو 2010م.

18- عنايات الطحاوي الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، مج1، افريقيا الإسلامية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية العراق، 1970.

19- عمار هلال، مملكة الكانم وبورنو، مجلة المنهل، ع450، السنة 53، مج48، 1989م.

20- م.ادامو، تاريخ افريقيا العام، مج4، اليونيسكو، لبنان ،1988م.

21- مبارك آيت عدي: مساهمة المغاربة في بناء حضارة السودان من حلال كتابات الرحالة الاوروبيين، مجلة العلاقات المغربية الافريقية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ط1، 2012م.

22- محمد توفيق سماق، الموسوعة الدولية العالم أواخر القرن العشرين، مطبعة الآداب والعلوم، دمشق، مج21، 1998م.

23- محمد مسعود حيران، التفاعل العلمي والمعرفي بين الغرب الإسلامي والسودان الأوسط والغربي، حولية المجتمع-طرابلس-، ع04، 2006.

24- خير الدين الزركلي، الاعلام قاموس تراجم، ج1، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.


فهرس المحتويات